

آلهة مصر

تأليف : فرانسوا دوما

ترجمة : زكي سوس

آلهة مصر

تأليف

فرانسوا ديماس

ترجمة

زكى سوس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

الفهـــــــرس

الفصـــل الأول

● مصـــادر معرفتنـــا

تعجز المخلفات المادية وحدها عن تعريفنا بالآلهة التى تعبد لها أحد الشعوب ، وانه لأمر هام ، دون مراء ، أننـــا مازلنا قادرين على تأمل أبولو أو زيوس على الصـــورة التى شكلها لهما الاغريق • وقد كان من الممكن أن تكون معرفتنا خواء لو لم نتملك بعـــد الأناشـــيد الهـــومرية والنصـــوص الأدبية المتمددة ، أو ما يتصل منها بعلم النقوش ، تلك التى تسمح لنا بتصور الفكرة التي كان الأقدمون يشكلونها عن آلهتهم، وما كان من الممكن ـــ مهما كانت القرائن القوية ـــ أن نجزم بأن الميسينيين(١)كانوا يعبدون آلهة الأولمب الكلاسيكية، قبل أن يتاح لنا فهم كتابتهم ؛ على أن مصر القديمة قد تركت لنا لحسن الحظ الى جانب العـــدد الـــوفير من الآثار المغطى أغلبها بالنقوش كثيرا من الوثائق الأدبية ، بفضـــل جفاف مناخها الفريد ، وهى تشمل : أدراج البردى ، ولفائف رق الغزال والألواح الخشبية ؛ التى نستطيع عن طريقها ، أن ننفذ الى حد كبير الى عالم معتقداتهم وآرائهم الدينية •

ومع هذا ، فلن يكون هـــذا الـــكتيب عجالة عن الديانة المصرية أو بيانا عن أساطير آلهة النيل • بل اننا سنقتصر على بذل محاولة لوضع شيء من التصنيف لجماعة آلهة مصر القديمة Panthéon (٢) الوفيرة العـــدد ثم فحص طبيعة كل

---

(١) الجزء الجنوبى من بلاد الاغريق القديمة وفيه نشأت اقدم حضاراتهم (المحرر) •

(٢) معبد كان يخصصه الاغريق والرومان لكل الهتهم ويطلق على مجموع كل الهـــة قطر ، ليدل على علم اساطير مكتمل ـ (المترجم) •

اله على حدة ، ونحن نجتاز البلاد ، على قدر ما يستطيع المرء ان يتبينها • وسيكون للأساطير شأن فى ذلك كما يكون لعلم اللاهوت فى معناه الصحيح • وسنحاول فى فصل ختامى أن نرى الى أى حد استطاع الكهنــة المصريون ان يذهبــوا فى معرفتهم بالعلم الالهى(١) •

★★★

ومن الخير ، بادىء ذى بدء ، أن نتساءل : كيف نقلت الينا المصنفات الدينية القديمة التى نستحوذ عليها ؟ • فان لهذه التنصيلات أهمية بالغة فيما يتعلق بتفسيرها • ونحن نعرف من النصوص ومن الآثار ، أنه كانت توجد مكتبــات فى حيازة المعابد • وقد كان بعضها فى متناول أيدى الكهنة كمكتبة ادفو التى توجد فى غرفة صغيرة ، عــلى مقربة من

---

(١) من الصعوبة بمكان كتابة اسماء الآلهة على الوجه القويم او اسماء الاعلام التى نسخت من لغة اجنبية وستسير هنا وفق بعض المبادىء البسيطة ، الهدف منها تسهيل استخدام الكتاب • عندما يكون النقل بالافريقية موجودا فاننا سنستخدمه لانه وضع فى الزمن الذى كان المصريون انفسهم لا يزالون ينطقون به • ولكن من الواضح ان هذا كان نقلا فى عهد متاخر لا يسمح لنا ان نصل – على الاقل مباشرة – الى الصيغة الصوتية فى العصور القديمة • أما فيما يتعلق بالأسماء الأخرى ، فانه على الرغم من البحوث الحديثة التى لا تكف عن عرض نظريات جدد ، فى بعضها استغواء عظيم ، فاننا سنتبع اسلوب الكتابة الذى ينتهج فى الكتب الفرنسية حتى لنتحاشى مضايقة القارىء او ايقاع المنت بالقائم على الطباعة • ولقد وحدنا النهج بالتزام القواعد الآتية : العين السامية (تذكر المؤلف انها occlusive laryngal sourde اى : صوت انفجارى حلقى مهموس والواقع انه متوسط بين الشدة والرخاوة وهو Spirante laryngal sonoure المسيابى حلقى مجهور – المترجم) تبينها النبرة accent circonflexe على حرف اللين المجاور • وقد نسخت النفخات البسيطة بالحرف (هـ) h والنفخات القوية بالحرف (خ) kh الذى يقابل Ch فى الالمانية • وحرف القاف وهو occlusive velaire sourde شديد لهوى مهموس ادى بالحرف q ‎dj, dj,‎ يطابقان الحروف الاسنانية التى تختص بها اللغة قبل ان تضعف هذه الحروف فى لغة العصر المتأخر • ان حشو كتبنا بعلامات الطباعة التى يقصد بها تعديل أصوات الحروف ، diacritiques والتى يعسر على معظم القراء تميزها ، لا جدوى منه • ولا يلقى الأخصائيون اى عناء فى الوصول الى صيغة الاصول •

ملحوظة – لقد حرصت على كتابة صيغة الأسماء الأصلية كما وردت فى الأصل المصرى الى جوار الصيغة اليونانية الشائعة فى الكتب العربية وذلك لقرابة الصيغة الأصلية للغة العربية كما سيجىء – (المترجم) •

مدخل بهو الأعمدة . والبعض الآخر كان يودع فى أكثر الأمكنة خفاء فى المعبد كما هى الحال فى دندرة ، حيث يوجد مخبأ السجلات الذى يقع مدخله على ارتفاع ثلاثة امتار فى أحد الهياكل التى تحيط بقدس الأقداس ، كانت المكتبات المفتوحة تضم على الأخص كتب الصلوات التى كان الكهنة يحتاجونها عدة مرات كل يوم . بينما كانت المكتبات الأخرى تغلق فى حرص عظيم على البرديات الدينية او القانونية التى تحدد امتيازات الكهنة المالية . وقد كانت هذه البرديات وثائق اصلية أو نسخا منها أعدت فى زمن لاحق . وفى عهد الرومان كان يحتفظ فى اسنا بنصب لتحوتمس الثالث توضح نقوشه نظام تقديم القرابين .

★★★

وأيا كانت طبيعة النصوص او قوامها المادى ، فانها كانت تصدر عن « بيت الحياة » . وهو تلك المؤسسة الرائعة التى يرجع تاريخ ظهورها الى عصور سحيقة . ولكننا لم نعرف القليل عن وجوه نشاطها الا منذ منتصف الألف سنة الثانية ــ ففى العصر المتأخر ، كان كل معبد فى مصر يملك بيت الحياة الخاص به والمتصل ببيت حياة معبد العاصمة أو المعابد الكبرى والمعابد المجاورة أو تلك التى كانت ترتبط به بروابط متصلة ، كتلك التى كانت على وجه خاص تربط بين كهنة ادفو وكهنة دندرة ، اذ أن حاتحور وحورس اللذين درجا على تقديم العبادة لهما ، كانا يعتبران فى الأساطير زوجين ، ولا يستطيع المرء أن يفسر ــ الا بفضل وجود جهاز موحد ــ تطابق صيغ الأسرار المحجوبة (١) التى تتعلق بالمولد الالهى والتى كانت تتلى فى الدير البحرى ثم فى الأقصر بعد ذلك بمائة عام وكذلك النصوص التى توجد فى هيكل ميلاد « نخت نبف » (نختنبو الأول) فى دندرة

(١) mystère ــ مجموعة المبادىء العقيدية أو الشعائر التى لا يجب ان يعرفها غير الذين تلقنوها .

وتلك التي توجد في هيكل ميلاد فيله ، وهما يكادان يكونان معاصرين ولكن تفصل بينهما مسافة تقرب من ثلاثمائة كيلومتر • وقد كانت هناك هيئة لادارة بيت الحياة كان من أخص مهامها العديدة العكوف على دراسة الآلهة • وقد كانوا يعرفون كيف يحددون للفنانين أشكال هذه الآلهة والمواد التي تصور منها • وقد حرص المصريون دائما أشد الحرص على تشكيل صور الآلهة واقامة المعابد وفق الارشادات التقليدية • وكانوا كذلك على معرفة بعلم اللاهوت الذى كان يحاول النفاذ الى طبيعة الآلهة وتحديد وظائفها وخصائصها • وكانوا يضمون الصلوات التي تقوم بالحفاظ على وجودهم، وشغلوا انفسهم بكل العلوم الملحقة اللازمة لوجوه نشاطهم حتى الطب الذى كان هدفه حماية الانسانية • وكانت « بيوت الحياة » هذه تقوم كذلك بنسخ الكتب المقدسة وتوزيع نسخ متقنة منها على مكتبات المعابد • لقد كانت نوعا من مؤسسات التعليم العالى ، تنهض بنفسها بوضع طبعاتها ، بعد أن تكون قد رجعت الى أعظم الادراج (١) صحة وأكثرها جلالا •

وعلى هذا كانت توجد في مصر حركة نقل مباشرة بالغة الأهمية للنصوص الأدبية والدينية ، ومع أننا لا نعرف الكثير عن تاريخها الا أننا نستطيع التكهن به • وكما أنه يوجد نوع من الصور الرسمية للمخطوطات الأدبية في المدارس ، فقد كانت توجد في « دار الكتب » الملحقة بكل معبد ، مخطوطات دينية تسترعى الانتباه على وجه خاص • ومن سوء الطالع لم تصل الينا أية مكتبة كهنوتية عتيقة ، كاملة • وليس لنا الفرصة المتاحة لعلماء اليونانية أو اللاتينية ، لأن التقاليد الاغريقية واللاتينية استمرت دون انقطاع حتى وصلت الينا • وكم من نصوص اغريقية ثمينة لم نعرفها الا عن طريق مخطوطات ترجع للقرن الخامس

(١) جمع درج بمعنى ما يكتب فيه وهو « ملف » البردى •

عشر ! وعلى هذا فان علم لاهوت مصر القديمة يجب ان يعاد تصنيفه من عناصر متفرقة هيأتها لنا الصدفة خلال الحفائر التى تجرى خلسة او الحفائر الرسمية او الصدف التى لا ضابط لها ـ صدف الحفظ والصيانة ـ ان مدنا كانت على درجة عظيمة من الاهمية من وجهة النظر الدينية مثل ممفيس أو هليوبوليس قد توارت بطريقة تكاد تكون تامة لأنها كانت قريبة جدا من التجمعات السكنية الحديثة الكبرى ٠ فلم يصل الينا من هذه المراكز الدينية كبيرة الأهمية سوى القليل جدا من النقوش ، بل انه لم تبق لنا بردية واحدة منها ٠ وعلى النقيض من ذلك فإنه توجد في حوزتنا بردية في الجغرافية الدينية والأسطورية ، في حالة من الصون رائعة ، عثر عليها في المقاطعة الثامنة عشرة ، ضئيلة الشأن ، في مصر العليا ٠ ويجب أن تكون هذه الحقائق ماثلة أمام أذهاننا ، عندما نريد أن نعرض صورة شاملة لآلهة البلاد ٠

★★★

ما هي الوثائق الأساسية وما الوسيلة الملائمة لفحصها ؟ هذان هما السؤالان اللذان يجب أن نبذل الآن محاولة للاجابة عليهما في ايجاز ٠

ان النعوت التى تصاحب أسماء الآلهة ، في اللوحات التى تزخرف جدران المعابد تتيح في الكثير الغالب ، اعادة تشكيل علم أساطيرها بل وعقيدتها الدينية ٠ وتتضمن نصوص أعظم استطالة أناشيد صلوات وشعائر ، على الأخص عن آمون أو أوزيريس ، ومسرحيات دينية مثل الشعائر المحجوبة التى تتصل بالمولد الالهى أو تلك التى تدور حول انتصار حورس ، وتقاويم عن الصلوات في دندرة وادفو وكوم امبو وكذلك عناصر تتيح لنا اعادة وضع مصنف عن الجغرافية الدينية بعنوان : « كتاب البلدان الواقعة في مصر ووصف كل ما له اتصال بها » ٠ وهكذا كانت رغبة المصريين القدماء في تخليد عبادتهم بتوضيح قصصها على الحجر ، هى

التى اتاحت بهم ان ينقذوا للخلف كثيرا من الكتب التى كان من الممكن أن تتوارى إلى الأبد • وفى حالات استثنائية اجتمعت لنا شذرات من النص المنقوش على الحجر وشذرات من النص المخطوط ، كما هى الحال فى موضوع « حماية المهد الالهى والملكى » •

من الملائم ان يميز جيدا الموضع الذى تحتله النقوش فى المقابر • وعندما يكون الموضوع هيكل العبادة وتطوره ، فاننا لا نستطيع أن نجد غير الشعائر العامة أو مشاهد الحياة اليومية ، التى لا يستطيع أن يصل الى مغزاها الرمزى ، الا من تلقنوا العلم به ، ان وجدوا • وعندما تظهر شعيرة فتح الفم فى مقبرة الوزير رخميرع ، فى طيبة ، فانها تكون فى موضع لا يتيسر فيه للزائر أن يقرأها دون أن يصعد اليها على صقالة واذا كان رئيس كهنة تحوت فى هرموبوليس الحكيم والقديس بتوزيرس ، يريد أن يحفر فى الموضع الأساسى فى هيكله الجنازى ، الشعيرة المحجوبة الأوزيرية عن البعث بواسطة الذهب ، فانه يضعها فى صيغة رمزية تماما ويشوه النقوش التى تصحبها ، الى حد لا يستطيع معه أحد فهمها الا من تلقن سرها ، وذلك هو ما فعله بالتحديد فى بداية الأسرة الثامنة عشرة واضع أنشودة أوزيريس المحفوظة فى متحف اللوفر : فقد دفعه وجوب اقامة النصب الذى يحملها فى مكان يمكن أن يصل اليه عدد ما من غير المؤمنين ، الى العناية بحذف كل ما كان يشير اشارة بينة الوضوح لشعائر بعث الاله ، المحجوبة •

أما فى المواضع التى عرف أنه لا يمكن الوصول اليها ، من الأبنية الجنازية وغرف الدفن فى الأهرام والقبور المنحوتة فى الصخر فى وادى الملوك ، Syringes (١) أو

---

(١) اطلق الاغريق لفظ syringe ومعناه Flute de Pan ، ناى الاله بان ، على القبور المنحوتة فى الصخر تحت الأرض فى طيبة لملوك مصر الأقدمين • وقد تعرفوا على الاله «من» فى الاله بان الذى كان اله القطعان والرعاة • يرسم بقرنين على رأسه وبوجه ماعهب والجزء الأسفل من جسمه يشبه نظيره فى التيس بما فيه الذيل ، يرقص ويعزف على الناى syringe — syrinx – (المترجم) •

المدافن الملكية المتأخرة المقامة فى افنية المعابد كتلك التى توجد فى تانيس ، فانهم لم يترددوا فى نقش الكتب اللازمة لبقاء الملك الى الأبد او نقش أجزاء منها . ولهذا فانه مازال يمكننا أن نقرأ نصوص الأهرام والكتب الجنازية الملكية التى ترجع لعهد الامبراطورية الحديثة : كتاب الأبواب ، كتاب الكهوف، كتاب ذاك الذى يوجد فى الآخرة ، كتاب النهار والليل وأوراد الشمس .

والواقع ، أن مشكلة العبادة الجنازية التى كانت ضرورية للخلود لم توضع بالنسبة للملوك كما كانت توضع بالنسبة للأفراد . فقد كانت الاوقاف الملكية الباذخة تطمئن الى أن الملوك لن يحرموا بتاتا من هذه الخدمة الدينية . ولكن عندما أدرك المرء أن الفراعنة أنفسهم لم يكونوا قط فى حمى من النسيان كما لم تكن معابدهم بمنأى من الدمار أو النهب ، فقد اتجه الظن الى أن العبادة التى تؤدى للسلف وتقام فى المعابد الحاضرة يمكن أن تكون بديلا فى مثل هذا الموقف البغيض . ولاشك فى أن اعتبارات من هذا القبيل ــ الى جانب ظروف الدلتا الجغرافية ــ هى التى دعت فى العصور المتأخرة الى دفن الملوك فى أفنية معابد الآلهة حتى يستطيع أولئك وهؤلاء التبرك بالعبادة(*) . وكان الأمر على نقيض ذلك فيما يتعلق بالأفراد العاديين ، فقد كان من اللازم أن يلج الكهنة أو أشخاص أولو علم وتقوى هياكلهم لتلاوة الصيغ المخصصة ، مع ذكر أسمائهم حتى يمكن جلب القرابين . وكذلك كان من اللازم أن يكون الوصول الى هذه الهياكل ميسورا وألا تشى بأى سر من أسرار شعائر أوزيريس المحجوبة التى وجدت منذ زمن باكر جدا . ولقد عنوا بأن يصوروا على تابوت الميت الكتب الخفية الهامة لبقائه . ولدينا مجموعة طويلة جدا يطلق عليها « نصوص

(*) امتد هذا الى الافراد الذين حرصوا على وضع تماثيل لهم فى افنية .

النواويس(١) » أخـذت من كتاب (نصـوص) « الاهرام المدنيـة » ووضعت بحيث تلائم الافراد ، وهـذه المجموعة كاملة بفضل النسخ العديدة المتماثلة التى توجد بين ايدينا على عدد كبير جدا من التوابيت الخشبية المغشاة بالجص التى ترجع للدولة الوسطى • وتتصف هذه المجموعات من الصيغ الموضوعة للميت بالثراء الكبير ، لأنها مأخوذة عن أصول جد متباينة : فعندما تحاول أن تطابق بين شخصيتى الميت والاله الخالق للبدايات الأولى (٢) ، فانها تنقل مقتبسات من مصنفات تتعلق بالخلق • وعندما تلحقـه بنمـوذج الاله حورس فانها تسـتخدم شعائر محجوبة دينية قديمـة تشيد بانتصار هذا الاله • وهـكذا نستطيع أن نكـون فكرة عن اللاهوت والأساطير فى هاتيك العصور القديمة •

ولو أن كمية أدراج البردى التى عثرنا عليها لا تمثل ، دون أى ريب ، الا نسبة ضئيلة من تلك التى كانت توجـد فيما مضى ، وعلى الرغم من أن بعضها جاءنا بالغ التشويه ، فانها مازالت تؤلف مصدرا عظيما لمعلوماتنا عن آلهة قدماء المصريين • ومع هـذا ، فان ملاحظة تفـرض نفسـها من البداية : فبينما وصلت الينا كمية عظيمة من مصر العليا ومن الفيوم فاننا لا نكاد نملك منها شيئا من الدلتا وذلك لأن المناخ فيها أكثر رطوبة ولأن سكانها ، وهم فى جميع الأزمنة أكثر كثافة قاموا بالكثير من أعمال النهب فى المواقع الأثرية • وقد بقيت معارفنا محدودة من الناحيـة الدينيـة

---

(١) فى كتاب « الهرم الدفين » خصصت لفظ ناووس ليؤدى معنى Sarcophage للتفرقة بينه وبين لفظ Cercueil-coffin تابوت •

(راجع الهرم الدفين ــ ص : ١٦) وذكرت ان اللفظ الألمانى ناوس Naus أخذ عن العربية ــ (المترجم) •

(٢) Démiurge ــ الاله الخالق ورد فى الفلسفة الافلاطونية • وفى القرون الأولى من المسيحية ظهر مذهب فلسفى كان أشياعه يضعون المعرفة فى المرتبة الأولى من بين الفضائل الدينية ولهذا أطلق عليهم Gnostics • وكانوا يؤمنون بالهين عظيمين : الأول هو الاله المتعالى والثانى هو الاله الخالق demiurge ــ (المترجم) •

عن مراكز مثل (صا الحجر) (سايس) و (تل بسطه) (بوباسطس) وابو صير ، التي اختفت معابدها أو كادت رغم ضخامتها ، والتي لا يوجد أى درج من البردى يوضح لنا لاهوتها ، لان مصادرنا تتالف بصفه فريدة من تلميحات الى الهتها جاءت في وثائق عثر عليها فى امكنة اخرى اصابها ضرر اقل •

لقد توافرت نسخ كتاب الموتى حتى العصر المتأخر وان يكن من الضرورى اصدار طبعة كاملة دقيقة لها • وما اسرع ما تتيح محتويات فصوله المتغايرة التعمق فى معرفة الالهه المصرية التى تشكل على الدوام النماذج التى يسعى الميت الى التوافق معها أو اذابة كيانه فيها ! • ويجد المرء فيها أناشيد وبحوثا عن الخلق تمليها تفسيرات متعاقبة ، وإشارات عن مختلف الآلهة التى يطمح الميت فى إتخاذ سلطاتها • ولكن هذا الحشو ، المأخوذ جزئيا عن نقوش النواويس ، يتضاءل امام كتابات أكثر أصالة •

ومن بين أعظمها أهمية الأناشيد التعبدية : تلك التى كانت تتلى للأله «حعبى» وهو النيل الذى يغمر مصر بفيضه ، فى عيد الفيضان ، والأنشودة التى كانت تغنى لآمون اله طيبة ، ملك الآلهة ، المحفوظة فى مخطوط جميل بمتحف القاهرة ، والأناشيد التى كان المرء يترنم بها للاله بتاح ، اله الحاضرة القديمة ممفيس ، فى المعبد الذى خصص له فى الكرنك على مقربة من آمون • ولو أن غزارة علمها اللاهوتى لا تضارع ، فانها تتعمق الى غور أقل فى المعرفة الالهية بالموازنة بمصنفات آخرى مماثلة يرجع مصدرها ، على الدوام ، الى كهنة طيبة ولكن تتجاوز فى طولها الحد الذى يمكن أن تنشد معه فى الأعياد • مثل بردية ليدن الشهيرة التى تتضمن « مائة نشيد لآمون » فهى تبدأ باستغلال المعنى الرمزى للأرقام التى تستهل بها المقطوعات ، لتنفذ الى مجموعة من تفسيرات مجملة غالبا ما تكون ذات عمق عظيم

بسمو عظيم ، عن الإله « الحمي » ر « الاحد » • وتكملهـا أناشـيد بـرديان تشسـتر بيتى Chester Beathy ، التى لم يتردد جاردنر في وصفها بأنها تنتمى الى «مذهب التوحيد» • وفي استطاعتنا أن نضفى عليها اسم القصائد اللاهوتية او الفلسفية •

تملك متاحفنا عـدة نسخ رائعة الجمال من الشـعيرة الالهية اليومية لآمون وقرينته «موت» وكذلك شعيرة لامنحتب الاول المؤله • وتمثل مراثي ايزيس ونفتيس أمام جسـمى أوزيريس و « كتاب ضد ابوفيس » التنين الذى يحاول ابتلاع مـركب الشـمس وبردية هاريس Harris السحرية وعناصر مسرحية دينية تؤدى أدوارها عند التتويج الملكى ، مجموعة من الوثائق الهامة التى تعين على تعمق جوهر الالهة ، عـلى وجه أفضل ، عن طريق العبادة التى كانت تقـدم لنـا • وهنالك قصص قد لا تبدى احتراما للآلهة أكثر مما يفعـل أحيانا هوميروس أو أرسـطوفان ، لكنهـا تسرد مغـامرات أسطورية متتابعة ، مثـل قصـة حورس و « ست » (Soth) أو قصة رع وايزيس • وهى بذلك تجنبنا الاقتصار عـلى القصص الاغريقية ، عنـدما توجد ، كعجالة بلوتارخ عن ايزيس وأوزيريس •

وليست البرديات التى يطلق عليهـا برديات بحـيرة موريس وبرديات تبتونيس Tebtynis (١) أو بردية يوميلهاك Jumilhac سـوى كتب دراسـية عن الجغرافيـة الدينية المحلية ، وتمدد بردية هاريس الكبرى ــ التي يتجاوز طولها أربعين مترا ــ منشـآت رمسـيس الثالث الدينية ، بينما تستهل المراسيم الكهنية التى تتعلق ب « بانجم » أو ب « نسى ــ خنسو » بأناشيد لآمون التى تمثـل جـزءا من اللاهـوت الخالص •

(١) أم البرجات بالفيوم •

ويجب ان يضاف الى هذا مصنفات تكاثر عددها فى عهد الامبراطوريه الحديثة : كمجموعه القطع المختارة التى كان الهدف منها تدريب الكتاب الاحداث على صوغ الاسلوب الجميل . وهى تحوى عددا لا باس به من الشذرات الدينية • وتوضح حتى قصص الحروب ورحلات الصيد الملكية كيف انها وضعت من خلال منظور دينى ، لقد كان الشعب بأجمعه اسير شبكة اسطورية ترغمه على تنظيم كل وجوه نشاطه حتى اكثرها بساطه ودنيوية فى ظاهرها ، بحيث تتناسق مع النماذج الالهية ، فقد كانت هذه الوسيله الوحيدة التى تتيح لها فرصة للنجاح • ووصل الأمر الى انه لا توجد وثيقة مهما كانت ضئيلة ، لا يمكن ان تهيىء عنصرا يفيد منه بحثنا • وكثيرا ما تتيح لنا شذرات من تمثال والقاب اشخاص منقوشة على الجزء الخلفى من تمثال مهشم ، وكل هذه المواد التى تودعها المتاحف فى المخازن، أن نقوم بعمل أبحاث دقيقة قيمة وقد تقودنا ، على سبيل المثال ، الى أصغر معابد الدلتا التى لا نعرف عنها الا القليل • ويعرف المرء الأهمية التى يمكن أن توجد فى أيامنا فى القيام بدراسة منظمة لأمكنة العبادة . التى مازال المرء فى أوربا يغشاها فى أوقات معلومة من السنة للاحتفال بعيد • وقد يستطيع المرء الرجوع أحيانا الى أبعد أزمنة ما قبل التاريخ •



وكذلك فعلى الرغم من الخسائر الهائلة التى لحقت بالأدب القديم والفجوات العظيمة فى معلوماتنا ، فاننا بالحرى نرزح تحت كوم الوثائق الأدبية والجنائزية ، أو التى تعالج الحياة اليومية والمنقوشة على الأحجار فى الوقت الذى نضع فيه قائمة لآلهة مصر • وما أكثر الصور المتناقضة التى قدمت لنا عنها فعلا منذ ما يقرب من مائة عام ! • وقد ذهب أوائل مترجمى النصوص الدينية من أمثال دى روجيه De Raugé وبروجش Prugsch ـــ الذين تأثروا بما خلفه لنا الكتاب

الاغريق فى العصر المتأخر واستمدوا علمهم بطريق مباشر على الأخص من نقوش المعابد التى أقيمت فى العصر اليونانى الرومانى ، الى أن الدين المصرى عقيدة بالغة السمو ، باله أوحد وخالق يتجلى فى طائفة من الآلهة الثانوية التى تتساوى مع البشر فى أنها من خلقه . ولا شىء أعظم مغزى فى هذا المجال من كتاب صغير وضعه بيريه Pierret ونشر فى عام ١٨٧٩ بعنوان « عجالة عن الأساطير المصرية Essai sur la mythologie égyptienne » حيث تستدعى الانتباه تلك النصوص التى يذكرها المؤلف والتى مازالت ترجمتها ، فى مجموعها ، قيمة . وقد حدث فى ختام القرن رد فعل عنيف بتأثير المذهب الوضعى (١) . لقد حاول ماسبيرو ــ كقارىء للنقوش العتيقة وعلى الأخص نصوص الأهرام التى كشف عنها ونشرها ، أن يوضح ان الديانة المصرية لم تكن الا نوعا من عبادة أشياء مؤلهة Fétichisme (٢) . وأن تلك الآلهة التى كانت لها رءوس وحوش كانت حيوانات تتصورها أخيلتهم . وكان مما يبعث الرضى فى النفس أن يراود المرء التفكير أنه فى عصر فى مثل هذا القدم ، كان ذكاء الانسان أقل تقدما وأنه ظل سائرا فى مدرجة الرقى دون انقطاع حتى وصل فى النهاية على أيدى الاغريق الى تصور آلهة ذات خصال انسانية خالصة . واختلط بهذا مذهب فريزر عن الطوطمية « totémisme » (٣) .

---

(١) Positivisme : الوضعية ـ مذهب « اوجست كونت » الذى ينكر الميتافيزيقا ويقيم المعرفة على الوقائع والتجربة ـ (المترجم) .

(٢) fétichisme ، هو فى مبدئه الاعتقاد بان الاستحواذ على شىء ما يمكن أن يجلب للحائز عون او حماية الروح أو الملاك الحارس الذى يستقر فى ذلك الشىء . واللفظ fetiche fetich, fetisch الذى أطلقه البرتغاليون على آلهة غربى افريقيا ، عن feitics ، اصطناعى المشتق من اللفظ اللاتينى facticius facére يصنع ـ (المترجم) .

(٣) فريزر : (الطوطمية والزواج بغير ذوى القربى ١٩١٠) .

الطوطم أى نوع من الأشياء الحية أو الجماد تعتبره بعض العشائر وعلى الأخص فى امريكا الشمالية الرمز لرابطة وثيقة غير منظورة . و totémisme استخدام الطواطم كأساس لنظام اجتماعى فيه التزامات ومحظورات .

كانت مصر حقل أحلام لهواة الطواطم بشارات كل واحدة من مقاطعاتها • وعلى هذا النحو كان التفكير الديني المصرى يتناول بالشرح ، عن طريق تفسيرات صاغها المحدثون لفهم عادات غير معروفة تماما على الوجه الصحيح في كثير من الأحيان ، عند شعوب متأخرة في أيامنا ! وفي غضون هذا الزمن كانت تتراكم وثائق ، نشرت ، في أناة ونسخت وعلق عليها • لقد كشفت ومازالت تكشف في اطراد لا يني يتزايد ، عن لغة مرنة ومعقدة مازلنا حتى الآن على شوط بعيد من تعمق كل ظلال معانيها ، وعن تفكير في نهج عقلى لا يختلف في جوهره عن تفكيرنا ، وعن فن فيه دقة بالغة ، قادر على أن يلج بنا في عالم من المعاني والرموز كثيرا ما تكون دقيقة ، وعن أدب رائع في لطف معانيه النفسية واشراق ديباجة أسلوبه ورفعته الخلقية ، وعن فكر سياسي وفكر قضائي نجحا في خلق حضارة استطاعت خصائصها الذاتية ان تقوم بالحفاظ على نفسها خلال تطور دام ثلاثة آلاف عام ونيفا • فما وجه العجب اذن في أن يتمشى الدين الذى يتكشف بالبحث المطرد ، مع الصورة التي تقدمها لنا وجوه النشاط العقلية الأخرى في مصر القديمة ؟

انه من غير المجدى أن نغامر بأنفسنا في نظريات عني بوضعها الفلاسفة منذ عهود التاريخ المتعددة • وعلى شريطة أن نظل متواضعين أمام النصوص والآثار وأن نهيىء أنفسنا ليلهمانا ـ دون أن ندرى ـ المعرفة بدلا عن أن نفرض عليهما ، بأى ثمن ، تصوراتنا التي سبق اصطناعها فاننا نرى أن صورة تتشكل في أنفسنا شيئا فشيئا ، قد تصححها قراءاتنا اليومية والوثائق الجديدة أو تكملها، ولكن خطوطها الأساسية تظل باقية •

على ان علينا ، ونحن نشكل معارفنا ، ان نشير من الآن الى وجود بعض العقبات ، ذلك انه على الرغم من وفرة المصادر الا انها تكون احيانا في شذرات متناثرة حتى ان معلوماتنا تكشف عن فجوات محيرة محزنة ، فنحن نملك . على سبيل المثال ، نقوش معبد اقيم خصيصا للاله « سبك » sobek ، ومجموعة من الاناشيد تتغنى بحمده • ومع هذا فاننا نجهل من كانت الاساطير تجعله أبا له حتى أن الاشارة الواحدة التي توجد لدينا عنه في درج من البردى ينتمي الى الأدب وليس للكهنوت ، مازالت بالنسبة لنا اشارة بالغة الغموض •

ان مسألة الترتيب الزمني مشكلة رئيسية • ولكن لا يكاد يوجد حل لها ، لعدم وجود وثائق متتابعة • ومن الجلى ان معاصرا لهوميروس لم يكن يفكر في الالهة تفكير معاصر لبركليس • ولكن كيف السبيل الى معرفة ما اضافه كل جيل الى الايمان الذى يتعلق بالله ؟ فعندما يظهر نعت الهي لأول مرة ، لا يوجد شيء يبرهن على أنه لم يكن له وجود زمنا طويلا قبل ذلك • فقد يكون سحيق القدم • وبخلاف هذا ، كان يعاد انتساخ نصوص عتيقة ويحتفظ بها لانها تؤلف جزءا من الثروات الدينية التقليدية حتى لو أن الرأى عن الموضوع قد تطور • ومن المؤكد أن نصوص الأهرام تتضمن صيغا عتيقة تماما لم تعد تمثل العقلية المتطورة عند أولئك الذين اشاروا بنقشها ، وما كان مصرى الأسرة الخامسة محب البذخ والباحث عن أدب سلوك لا يقوم على العدالة وحدها بل وعلى الاحسان أيضا وواضع فكرة عن الاله بالغة السمو ، بالغة التهذيب ، ما كان ليقوم بنسخ الاهانات المنحطة الموجهة لبعض آلهة الملحمة الأوزيرية ، في فقرات معينة ، الا لأنها كانت تقليدية • على نحو ما تفعل الكنيسة الرومانية في زمننا عندما تدمج في صلاتها شذرات من التوراة ؛ لم تعد تتطابق مع عاداتنا ولكنها استخدمت في الواقع ؛ لأنها تنتمى الى قواعد الايمان التى

جاءت في التوراة والانجيل ويجب أن تفسر في معنى مجال النص الذى استخدمت فيه ٠

وعلى هذا يجب أن نحاول وصف تطـور المعتقـدات ٠ فاذا لم يكن هذا في استطاعتنا ، فيجب على الأقل بذل الجهد لتاريخ الخصائص البارزة التى نتبينها ٠ ولـكن في هـذا أيضا ، ما أكثر ما يوجـد من صنوف عدم التيقن ! لم يكن أفلاطون يرى في الآلهة ما كان يقره معاصروه ٠ وليست البحـوث الدينية للمهندسـين المعماريين « سوتى » Souti وحور Hor أو التطورات الخلقية التى قدمهـا « بكى » Beki الا أعمال حكماء وأناس بذلوا الجهد لفهم عقيدتهم والحياة وفقا لها على قدر ما يستطاع من التعمق ٠ انهم لم يكونوا سوى اقلية ، دون اى ريب ٠ وكذلك كما يرى في أيامنا يجب ان نضع موضع الاعتبار ان ما هو الهى يتركز في الضمير الدينى في أسمى صوره ؛ فلا يتبدد الى نثار من الصور التى تستحيل أحيانا الى مجرد خرافة خالصة ٠ وهنا نعبر حدود الدين والآلهـة ونهبط الى تلك الأرواح وتلك الشـياطين التى ملأ بها خيال المصريين المحمـــوم في زمن الامبراطورية الرومانية المتأخر ، أدراج البردى السحرية ٠ وليس لنا أن نغامر بأنفسنا هنا في ولوج تلك الأصقاع التى تكتنفها الشكوك ٠

الفصل الثانى

● كيف نعالج موضوع جماعة الآلهة المصرية
مناهج علماء اللاهوت القدامى

عنـدما يتصـل المرء لأول مرة بعالم الآلهـة فى مصر القديمة ، فانه يقع فى شيء من الحيرة أمام هذه الوفرة من المعبودات والحيوانات الالهية او المقدسة والآلهة التى تتخذ، فى كثير او قليل ، شكل الحيوان • ويدور فى خلد المرء تجاه مثل هذا الخليط المتراكم من الأوصاف والنعوت والشعارات المميزة ، فى حدود متفاوتة ، ان يفكر فى « ديانات مصرية » وتلك نظرة سطحية تماما للأشياء ، يمكن أن تؤدى كذلك للتحدث عن « ديانات مسيحية » • وليفكر الانسان لحظة فى الدهشة التى تلم بصينى ، عالم بالأمور التى تتصل ببلده ولكنه يجهل كل ما يتعلق بنا ، حين يكـون عليه أن يدرس الدين الكاثوليكى الرومانى فى فرنسا •

سيدرك بادىء ذى بدء مقدار العبادات المحلية • فكم عدد كنائس العذراء الذى لا يستطيع المرء احصاءه وكم عدد القديسين الذين تطلق أسماؤهم على أكثر كنائسنا تواضـعا فى الريف ، والذين يستحوذ كثير منهم على خصائص محددة تمام التحديد ؟ منهم من يعيد الرشد الى أولئك الذين فقـدوه بشرط أن يولجوا رءوسهم خلال ثقب منحوت فى بلاطة فى كنيستهم • وآخرون يشفون أمراض الأطفال خاصة ، وسكان القرى يحجون الى كنائس منعزلة فى الخلاء ، تقع قريبا منهم

وذلك في اوقات معلومة من العام • ان اكثرها هياكل للعذراء جاءت في اعقاب معابد للآلهات ـ الامهـات التي ترجع الى عهد ما قبل المسـيحية • واذا كانت العبـادة التي تؤدى في هذه الكنائس تتشابه تقريبا ، فان كلا منها يحتفظ مع ذلك بمراسم خاصة به ، وترجع الى ازمنة لا تعيها الذاكرة • انه لحق أن الاشـارات والرموز الدينيـة هي التي تحتفظ الانسانية بذكراها أطول زمن •

هل يمكن ان يكون ذلك سببا للتحـدث عن « ديانات » بصيغة الجمع ؟ • اننا نعلم ان الأمر ليس كذلك لانه يوجد كثيرون بيننا مازالوا يعيشون ذلك الدين بطريقة شخصية وروحية • ان صورة حمل او حمامة او وعل لا تزعجهم كما كان المصريون المثقفون والمهذبون لا يضيقون بالعجل «أبيس» او كبش خنـوم • فلنحاول اذن في البـداية أن نرى كيف تنتظم جماعة الآلهة المصرية • واذا كنا لا نستطيع أن نعيش ذلك الدين روحيا ، فانه في قدرتنا على الأقل محاولة فهمه •

★★★

وفي البداية نقول ان ما يلفت النظر في مصر ، هـو الدور الذى تقوم به الآلهة المحلية • فقد كان لكل مدينـة الهها أو الهتها • كانت مدينة بوتو (١) في أقصى الشـمال تعبد الهة لها شكل ثعبان وتستوى على ساق بردى • وفي منديس كان يسود اله له مظهر تيس • وفي هليوبوليس كان أتوم يتخذ شكلا آدميا على الأقل في العصر التاريخي • وفي اطفيح كان لحاتحور الهة الحب وجه امرأة ، وان برزت من شـعرها المسـتعار ، أذنا بقـرة • وكانت هيراكليوبوليس (اهناسيا المدينة) تقدم عبادة للاله الكبش حرسافس (حرى شف) • وكان تحوت وله رأس أبي منجل رب هرموبولس (الأشمونين) • وفي أسيوط كان افويس (Ophois) (أو بواوات)

---

(١) ابطو بالقرب من تل الفراعين ـ احتفظت بالاسم •

يبدو فى مظهر ابن آوى • وكان لحورس ادفو حيوان مقدس هو الصقر الذى هيأ مصوروه وضع راسه على جسمه البشرى • وكان خنوم فى اسنا او فى الفنتين يبدو برأس كبش • أما الآلهة المسماة بحورس بالنوبة فكانت دائما تتميز بمدنهـا التى نشأت فيها • وعلى هذا ، فان لهذه الجغرافية الدينية بالغ الأهمية • لقد قامت الأمكنـة المقدسـة فى مصر بدور جد عظيم • ولابد أنها وجدت منذ ابعد عهود ما قبل التاريخ ، وحتى اذا كانت الآلهة التى تعبد فيها تغيرت . فانهـا ظلت عزيزة لدى القوى غير المرئية وواصل الناس — على الرغم من حركة التاريخ الدائمة — تقديم العبادة لها •

على أننا نكتشف هـذه التغيرات أكثر مما نعرفهـا • فنحن نخمن أن أوزيريس حل محل عنجتى (Andgety) فى أبى صير (أبوصير بنا) ، فى الدلتا ومحل خنتى منيتو Khenty Amentyou أى الذى يرأس سـكان الغرب » ، فى ابيدوس بمصر العليـا • وفى ابان العصر التـاريخى ، فى الدولة القديمة ، استعلى رع على اتوم فى هليوبوليس • ولكن حتى فى هـذه الحـالة الممتازة ، لا نصـل الى ادراك السـبب الذى دعا مدينـة معينة الى اتخـاذ اله جـديد • يجب ان يكـون هنـاك شىء فى امكانه تقـديم العـون لنـا • انه الأصـل المشـتق منـه أسـماء الآلهة • ان بعضها ينتمى ، فى جلاء ، الى اللغة المصرية • ان رع هـو الاسـم الشـائع للشمس • وأمون مستمد من الأصـل « امن » أى الخفى ، وأتوم من « تم » ، أى الكامل ، وأفويس معناه فاتح الطرق ، ونفتيس سيدة المسكن ، وحاتحور مسـكن حـورس ، وفى الواقع أنه لا يوجد ما يؤكد لنا أن هـذه ليست الا البسـة مصرية أضفيت على آلهة سابقة • وعلى اية حال ، فان بعض الأسـماء الالهية ينم عن أصـل سـابق للمصرية : ان حعبى (HAPY) اله النيل فى الفيضان ليس مصريا على اليقين(١) •

(١) لدى من الأسانيد ما يجعلنى اخالف المؤلف فى هذا • وقد اوردت حاشية لهم آخر الكتاب عن مرجع هذه الأسماء للغة العربية — (المترجم) •

و « مين » اله فقط يبدو انه جاء من الاقاليم الصحراوية ، التى يقطن بها الزنوج فى الجنوب ، واحتفظ دون ريب باسمه الاجنبى . ويبدو من غير الممكن تفسير نايت وأوزيريس باللغة المصرية .

ولكن ملاحظة يجب ابداؤها هنا . هي ان كثيرا من الآلهة لا تحمل اسمها الحقيقي . وقد كان الاسم يحمل عند الاقدمين ذات الشيء وجوهره ، ويمنح من يعرفه بعض القدرة على هذا الشيء . وعلى هذا كان من الاهمية البالغه آلا يباح باسمه الحقيقي الى اى كائن مهما كان . وقد عرف التاريخ كيف يتكشف اسماء آلهة وعبادات مازالت متشابكة الخيوط . وقد قدم « لاكو » افتراضا بارعا لو تاكدت صحته لألقى الينا ببعض الضوء . فقد لاحظ أن الكتابة الصحيحة القديمة لأسماءخنوم واتوم وانوبس (Anubis) وآمون وسبدو (Sopdou) ومنتو (Montou) وما اليها كانت توجد فى اخرها (و) ، من شأنها أن تجعل حامل الاسم ينتسب بالقرابة لحيوان معين . وعلى هذا يكون معنى خنومو « ذاك الذى ينتسب للكبش » ، وأنوبو (Anoupou) « ذاك الذى ينتسب لابن آوى » وهكذا .

ومن سوء الطالع أن أصل الأسماء الالهية ــ فيما عدا اسم خنوم ــ لا يطابق اسم أى حيوان معروف فى اللغة المصرية أو فى آية لغة أخرى من مجموعتها الحامية ــ السامية (١) .

لنقلع عن الأمل في أن نصل الى حالة عتيقة ، سابقة للغة المصرية ، يمكن أن يكون فيها القول الفصل (٢) . ان الدين الذى نعالج موضوعه ، قد بلغ الغاية في تطوره كما

(١) انها تطابق اسماء الحيوان كما جاءت فى المصادر العربية كالدميرى والجاحظ والقزوينى وهكذا . أو اسماء الاصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية أو لها معنى واضح فى اللغة العربية . وقد أصبح انتساب اللغة المصرية للعامية خرافة ــ (المترجم) .

(٢) فى اللغة العربية حل لجميع مشكلات اللغة المصرية القديمة ــ (المترجم) .

أن الخصائص التي كانت له في الدولة القديمة ، خلال الالف سنة الثالثة ، تماثل في مجموعها الخصائص التي بدا فيها في العصر المتأخر في وقت مولد المسيحية ٠

من الأفضل ان نحاول ان نتبين بعض ملامح هذه الكتلة الضخمة من الألهة المصرية ٠ وتبدأ بالطائفة العظيمة ، من الآلهة المحلية التي قمنا بتقسيمها والمعروفة جيدا في كل مدينة أو حتى في الصحراء ٠ ثم هناك مجموعة ثانيـة من المعبودات شائعة في مصر باكملها ٠ ولها سمات جغرافيـة مثل حعبي (Hâpy) ، النيل ، أو زراعية مثل : أخت (Akhet) أى المـــرعى ، ونبرى (Nepri) ، الحنطـة وارموثيس (Ermouthis) (رننوث ، رنوت ، رننت) أى الحصـــاد ، وغيرها مألوفة ، تويرس (Touéris) (تا ـ ورت) ، اى فرس النهر الانثى ، وهي تحمي الحبالى ، ومسخنت (Meskhenet) وتحمى حالات الوضع ـ وبس (Bès) قزم عجيب الشكل ، يحمى من المؤثرات الخبيثة ٠

وقد انضم الى هذه الآلهة الوطنية ، في غضون التاريخ ، بعض المعبودات الأجنبية التي استعيرت من الشعوب المجاورة وتمصرت الى حد ما : ووصل من العالم السامى بعل وعنات Anat (١) وعشتاروت ٠ ووصل من سكان أعالي النيل ، ددون (Dedoun) وانوكس (Anoukis) (عنقت) ٠ ووصل غيرها من ليبيا ٠ وأحيانا رفع بعض الناس وبعض الملوك الى مرتبـة الآلهة السماوية : اموثيس (امحتب) ، المهندس المعمارى ذائـع الصـيت للملك زوسر ، وامنوثيس (امنحتب) بن حابو وزير امنوفيس (امنحتب) الثـالث وسيزوستريس (سنوسرت) الثالث أو امنوفيس (امنحتب) الأول ٠

---

(١) كتبت « عنت » في اللغة المصرية واقدم ذكر لها يرجع لعهد الامبراطورية ٠ (المترجم) ٠

وأخيرا اذا ولجنا المعابد وسمح لنا ان نقرأ النقــوش التى تزخرفها ، او فتحت لنا المكتبة المقدسة ، فان امرين يكون لهما وقع فى نفوسنا : الامر الأول هو ان الآلهة المحلية فى بعض المدارس اللاهوتية العظيمة توجد فى اسمى رتبة فى جميع المصنفات اللاهوتية : فرع اله هليوبولس ، وتحوت (Thot) اله هرموبولس ، تقدم لهما العبادة فى كل مكان ٠

وعندما يلم المرء بعلم لاهوتها فانه يتبين خصائص لها فى كل مكان ٠ ثم اننا سنجد معبودات ليست لها آية عبادة محلية محددة وقديمة ٠ ولكن اسمها جلى فى اللغة المصرية ، وهى العناصر الأربعة التى ألهت : الأرض والسماء والهواء والماء والمحيط الآزلى تصوروها فى أشــكال مختلفة ، نون (Noun) ومثير (Methyer) ، ومعيار العالم : ماعت (Maât) والتصور العقلى ، سيا (Sia) ، والكلمة الخالقة حو (Hou) .

وأخيرا نخص بالذكر آلهة الامبراطورية المظام ، بتاح (Ptah) وآمون وأتون ٠ وقد ارتقت بتطور التــاريخ الى أعظم المصائر رفعة ، رأت الكهنـــة يعمقون أغوار طبائعهــا وينسبون اليها علم لاهوت المراكز (الدينية) العظيمة ، التى عرفت كيف تضع الآراء عن الطبيعـــة الالهيـــة وتنصب فى النهاية فى تيار علم لاهوت عظيم ، يمكن أن يقال عنــه انه شائع لدى كل الانسانية المتاملة ٠ وقد استطاع أحد الملوك أن يقدم لواحد من هذه الآلهة ــ آتون ــ فى أدعيتــه التى كرسها له كامل تجربته الدينية الشخصية ، دون أن يجعــل له ميتافيزيقا أصيلة ٠

ومع هذا ، فاننا اذا أردنا التوغل فى خفايا فكر دينى كامل يلزمنا أن نقوم بخطوة أولى ٠ يجب أن نبــذل جهــدا لفهم المناهج العقلية فى التفكير المصرى القديم ٠

لم تكن اللغة المصرية فى العصر القديم تعرف التجريد وعندما كانت تريد التعبير عن فكرة ، كانت تستخدم لفظا

معينا محسوسا • وعلى ذلك فان فكرة التفكير والذكاء كان يعبر عنهـا بلفظ « قلب » الذى كان يظن المصريون أنه مقرهما • ان جزءا كبيرا من ألفاظنا المجردة يرجع الى هذا المصدر عينه : ان الفاظ فكرة (idée) وفهم (comprendre) وعقل (raison) كانت فى الأصل أمورا أو عمليات معينة محسوسة تماما • وفى عصر قطع شوطا فى التقدم ، فى آخر الألف سنة الثانية ، حاول المصرى صوغ أسماء مجردة ، substantifs abstraits بأن درج على أن يسبق الاسماء المعينة المحسوسة substantifs concrets أو الصفات بلفظ « شيء » . الغامض كل الغموض • وعلى هذا فان عبارة «كل شيء ميت» كانت تعادل «الموت» و « كل شيء سيىء » تعادل كل «السوء» ولكن هذا النهج لم يبلغ الغاية حقا الا فى اللغة القبطية • وتظل اللغة المصرية حتى النهاية تركيبية وليست تحليلية • وعلى هذا فان التفكير الذى تترجم عنه سيكون له القليل من صفة التجريد • انه لا يزال قريبا جدا من التجربة ويبدو بالحرى من خلال صور ورموز أكثر منه فى تعابير تحليلية . فلا توجد ألفاظ لقول : قوة وعناية الهية •• ولهذا كان على المصرى أن يبحث عن صور لتأدية آرائه • وقد لجأ للتعبير عن قدرة اله ، الى القول بأنه ثور . دون أن يزعجه عدم توافق الصورة مع مجال النص : وعلى هذا النحو قال عن تحوت اله القمر انه «ثور النجوم» ، كما لجأ للايحاء بالعناية الربانية لاله الى تصويره فى صورة راع • ولكن المرء يرى فى الحال أن هذه الصور ، مع ما فيها من ايحاء . يصيبها العرج على الدوام فى ناحية ما • فالثور رمز القدرة ، وفى ايجاز ، بهجمته وقوته • غير أنه يمكن أيضا أن يكون رمزا للقدرة التناسلية • وعلى هذا يعدل الوضع بصورة قريبة فيقال ان الاله هو أيضا أسد •

ان هذا المنهاج هو الذى يفسر الغـرابة الظاهرية فى كثير من النصوص الدينية • ويصف شاعر لاهوتى امون فى منظومة تتحدث عن قدرته المطلقة المخيفه على التعاقب بانه أسد ذو نظرة متوحشة ، وثور فى حالة انتصاب ، وتمساح يسرق ويذهب بمن يهاجمه • وهذه الصور المتعاقبة تصحح الواحدة الأخرى ثم تكملها لتشكل لوحة نهائية تثير المشاعر • « ان الجبال تهتز من تحته فى ثورة غضبه • والارض ترتعد عندما تسمع زئيره » (ويمكن ايضا ان يترجم اللفظ : خواره) (١) ••• انه كفء بقرنيه » •

وعلى هذا ، فانه من خلال عدم التماسك ، الذى أريد وسعى اليه ، فى هذه الصور التى تضمنها تأليف جد رائع وبذل الجهد فى وضعه ، يجب علينا ان نبحث عن الحقيقه التى لا تنقلها على الوجه الاكمل واحدة منها والتى توجد فى ناحية ما بين الرسوم المتعاقبة ، غير القابلة للتراكيب ، التى عرضناها •

وعلى هذا فان المصرى لم يحاول اطلاقا ، على نقيض الاغريقى ، ان يحدد الحقيقة اللاهوتية بطريقة تحليلية ومن الداخل • بل يحاول الاحاطة بها من الخارج بواسطة صور موضوعة الواحدة الى جانب الأخرى ، تكمن هى خلفها • كان الاله الخالق ، عند علماء اللاهوت القدامى يستحوذ على الأبدية ، وتفسير هذا بالنسبة لنا أنه لم تكن له على الاطلاق بداية ولن تكون له نهاية قط • وفضلا عن هذا فانهم لم يكونوا يتصورون تلك الأبدية كأنها غير متحركة • لقد كانت بالحرى تنعكس فى حركة السماء التى لا انقطاع لها ولكن لا حيد عنها والتى يثير انتظامها فكرة تطور مستمر متعادل ومتماثل مع ذاته • ثم شبهوا الخالق بالشمس وعرضوا الفكرة على هذا النحو فى منهج معين محسوس :

---

(١) اللفظ فى اللغة المصرية هو خرو ، ويقابل فى اللغة العربية خوار — (المترجم) •

سيد الأبدية ، الذى لا ينقطع عن عبور الأعوام ٠
الذى ليس لزمن حياته حدود ٠
الهرم الذى يعاوده الشباب والذى لا ينقطع عن عبور الفراغ اللانهائى ٠
الاله المسن الذى دأب على جعل نفسه شابا ،
أمام العيون العديدة وأمام الآذان الوفيرة ٠

اننا لا نستطيع أن نعرف بدقة لفظ فراغ ـ لا نهائى الذى يترجمه المرء فى غالب الأحيان بلفظ ابدية ، وليس من المؤكد على اية حال ان يكون له معنى فلسفى بما ان المؤلف يشعر بالحاجة الى تحديده بصور حين يقول : انه لا ينقطع عن عبور الأعوام ، ولكنه يردف ، دون حدود ٠ ثم يدخل بعد ذلك موضوع العودة الدائمة لشباب الكوكب دون أى تلميح الى حمل أمه نوت (Nout) به فى بطنها ليلا : وهنا نجد صورة الهدف منها الاحاطه بفكرة وليست مجرد قسمة أسطورية ٠ ولما كانت الأبدية تدل ليس على حدث زمنى لا نهاية له وحسب ، ولكن على امتداد كلى ، فانه يضيف فى الحال صورا توحى بحضور الله فى كل مكان وهو الذى يرى ويسمع كل شىء وعلى هذا يكون فى كل مكان ٠

لا توجد جدوى فى مضاعفة الأمثلة لهذا المنهاج فى التعبير ٠ وستتاح لنا الفرصة لمصادقته عندما نحاول معرفة علم لاهوت بعض آلهة معينة ٠ ومع ذلك ، لا يوجد أى فيلسوف لم يحس الحاجة الى أن يكمل بالصورة ، وفى بعض الأحيان بالأسطورة ، ذلك الذى يكون فيه الوصف المجرد للتجربة الداخلية رسما مجملا ، فى معظمه ٠ ان الذى يتميز به الأدب الدينى المصرى هو فقط اسهاب واسع فى الشرح بالصور والسعى فى تجميعها ، وعدم تماسكها ، فى كل مرة يرغب فيها عالم اللاهوت تعمق الطبيعة الالهية ٠ ولكن

توجد وسيلة أخرى لمعالجة الحقيقة ، كانت شائعة عند المصريين وتدهشنا كثيرا • انها تلك التى نطلق عليها فى لغاتنا ، التورية أو التلاعب بالألفاظ •

ليست الألغاز عندنا الا نوعا من الدعابة التى كثيرا ما تكون سخيفة • ولكن قدماء المصريين كانوا يظنون أن الأسماء كانت تعبر عن جوهر الأشياء عينه • وفى قصة أسطورية تسعى ايزيس ، الى معرفة اسم رع للاستحواذ على قدرته ومن الواضح أن الاله يرفض الافصاح عنه • انه يعرف أن كيانه يرتبط باللفظ الذى يدل عليه • ان الجدال الذى قام حول الكليات (١) فى العصور الوسطى بين أشياع حقيقة الافكار فى العقل الالهى وبين اصحاب مذهب الاسمية (٢) الذين كانوا يرون فيها مجرد ألفاظ ، يبين تماما أن الفكر المصرى كان يسير فى دائرة بلغت درجة كبيرة من الرقى • لقد اقام فى سمو نظرية عامة ، تصورا دائما يصادفه المرء لدى كثير من الشعوب القديمة • حتى ان ادراكهم لتماثل الحروف الأصلية فى كلمتين لم يجعلهم يستبعدون أن يكون أمرا وليد الصدفة فحسب ، بل كان يكشف لهم كذلك عن وجود ارتباط رئيسى بينهما ، فاذا كانت الحروف الأصلية فى اسم أتوم (Atoum) الاله الأزلى، هى بعينها الحروف الأصلية فى الفعل تم (Tmm) « كمل » فيكون مرجع ذلك الى أن أتوم (Atoum) هو الاله الذى « أتم نفسه » بذاته ، بخلق نفسه أولا ثم خلق العالم بعد ذلك • واذا كان أصل لفظ « خفى » يشتمل على الحروف الأصلية التى ترد فى اسم آمون ، فان سبب ذلك هو أن المعبود ، على

---

(١) Universel, universaux.

الاسم الذى كان يعبر به (السكولائيون) المدرسيون عن الآراء او التعابير العامة التى كانت تستخدم لتصنيف الكائنات والآراء • والمدرسى (سكولائى) يطلق على كل ما يتعلق بفلسفة المدرسة اى تلك كانت تدرس فى العصور الوسطى — (المترجم) •

(٢) nominalisme الاسمية •

المذهب القائل ان الكليات ليست الا أسماء او الفاظا وهو يقابل الواقعية والتصويرية — (المترجم) •

القول الصــحيح ، « لا يمــكن معرفته » • ان أفلاطــون فى محاوراته وبلوتارخ ، لم يفتهما ان يضعا وجوه مقابلة من هذا النوع • انها تشرح وحدها بعض التطــورات فى علم اللاهوت المصرى •

ان امون ، كما كانت تعلم طائفة الكهنة فى طيبة ، كان الواحد • وليس غيره من الآلهة الأزلية الا بعض اســمائه ، التى تعبر عن صفة من صفاته فحسب ، وهكذا كان يمــكن آن يقال : خالق الانسانية طرا (تم و) Tmm W) اوجـــد (سخبر) (Skhpr) كل موجود باسمك الذى يحمله اتوم ـ خيرى (Atoum-Khepri) .

واستنادا الى الألفاظ « الانسانية طرا » و « أوجــد » يتكون علم اللاهوت فيما يخص قدرة آمون الخالقــة ، التى يعبر عنها الاسم الذى يحمله فى هليوبولس : اتوم (Atoum) الذى اتخذ شــخصية اله الشــمس الذى يتطــور الى خبرى (Khepri) •

وكانت مدينة طيبة تحمــل اسم « مدينــة امون » وفى ايجاز « المدينة » كما كان الرومان يسمون روما Urb؛ بما انها كانت تقع فى الموضع عينه الذى ظهر فيه تل الأرض الجرداء خارج المحيط البدائي فى الأزمنة القديمة جــدا ، فقد صارت بهذا ، الطراز الأول لكل البلدان التى استعارت منها اللفظ عينه الذى استخدم لتسميتها : وهو لفظ مدينة •

وكذلك من الجائز آن مكان العبادة الأصلى لحاتحور كان يدل عليها فى الأزمنة القديمة : «تلك التى تنتمى الى آمبوس (Ombos) ولكن فى اللغة المصرية ، كان لهذا اللفظ نفس الحروف الأصلية التى تجىء فى لفظ « ذهب » • وكان ذلك لأن الالهة كانت من الذهب ، كما كان لحم رع نفسه ، مادة الجسوم الالهية • ويرى المرء بجميع الآراء التى يمكن آن

ترتبط بهذا التماثل فى الحروف الأصلية التى تجى فى لفظين ٠

ويجب أن يضاف الى هذه الوسائل الغريبة فى نقل المعرفة أو اثارتها ما درجوا عليه من عادات نفسية تزعجنا فى البداية ٠ كان قدماء المصريين يضفون على ما نطلق عليه مبدأ تماثل الشخصية افاضة أوسع مدى عن مفهومنا ، بما لا يقاس ٠ وفيما يبدو ، لم يفصلوا فكرة المشاركة التى تسمح ، دون سواها ، بتوطيد الروابط بين الجواهر المتميزة ٠ وعلى هذا فقد كان يذهب ظنهم الى ان كائنين يمكن أن يستحوذا على شخصية واحدة ٠ ان أتوم يمكن أن يكون خبرى والاثنان معا يمكن ان يكونا آمون ٠ وهم يذهبون بعيدا فى مجال تماثل الشخصيات هذا حتى يصل الأمر بهم فيه الى ضمان المحافظة على كل التفسيرات الدينية التى يضعونها جنبا الى جنب فى رعاية ، دون احلال بعضها محل البعض الآخر ٠ ان هذا يؤدى بنا الى الظن بأنهم كانوا يعتبرون كلا منها صالحا ، على طريقتهم ٠ ان عاداتنا فى آن نستعير فى اطراد متزايد القواعد التى توجه فكرنا نحو العلوم الوضعية ، تنكر علينا هذا النوع من العمل ولكنها تمنعنا فى الوقت عينه من استشعار ما يكون أمرا عارضا فى معارفنا وعلى الأخص فى معارفنا الميتافيزيقية ، وأبعد من هذا ، فى التعبير عنها ٠

فلنأخذ هنا مثالا ، يبلغ من الصعوبة ما يجعله يعبر دفعة واحدة عن مصطلح متخيل عن الحقائق العقلية وعن تصورات أديت فى ألفاظ معينة محسوسة ٠ منذ العهد البدائى ، تصور علماء اللاهوت فى هليوبوليس الههم أتوم فى صورة خالق ذاته ٠ انه نجح بادىء ذى بدء فى خلق نفسه بنفسه وكان هذا نهجا للتعبير عن أبديته ٠ وكان من صفاته « ذلك الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته » ٠ غير أن سيطرة الشكل الانسانى التلقائية على الفكر قد دفع بالكهنة الى

تصور عملية القران بوصفها حلا لخروج الاله من عزلتـه واحاطة نفسه بكائنات أخرى • ولما كان أتوم وحده ، فقد استتبع هذا أن ينسبوا اليه القيام بعملية استمناء أصيلة • ذلك ما تدفعنا الى قوله الأساطير ، وعلينا ألا نرى فيه خروجا عن الخلق القويم ولكنه التعبير غير اللبق عن فكر تراعى فيه الفكرة العميقة وحدها • وقد نسب احيانا ايضا الى اتوم القيام بعملية أخرى اقل ايذاء للشعور ولكنها فجة أيضـا وهى أنه لفظ من فمه اول زوجين الهيين • والعاقبة لا تثير صعوبة وهى عندنا أقل أهمية أيضا •

حدث بعـد زمن وجيز ، ودون ريب فى عهـد الأسرة الثالثة ، فى مستهل الألف الثالثة ، بعد أن قام كهنة بتـاح (Ptah) ، اله مدينة الجدار الأبيض وهى التى أصبحت منف (فيما بعد) بتحليل الوسيلة التى اتخذت لتنظيم الأشياء والناس وعلى الأخص الملك ، أن بدءوا بوضع نظـرية تامة للمعرفة ، وفى نهاية الأمر عرفوا نهجا خالقا أصيلا حقا : تحمل الحواس المعرفة الى القلب• وهو يشكل فكرة وينفذها باصدار أوامر نافذة تدرك نتيجتها المادية بالحس • وعـلى هذا فالخلق يبدأ بالفكر ويتجلى بالكلمة الخالقة • والاله بتاح ، يفكر ، فى قلبه ، فى الأشياء والكائنات ثم يعطيهـا أسماء فتظهر للوجود • وهذا الخلق بالكلمة الالهية كان لابد أن يلقى نجاحا باهرا • ويبدو لنا أنه كانت فيـه كفـاية ذاتية وأنه حل بجدارة محل الفـكرة القـديمة التى كانت سائدة فى هليوبوليس • ولكن بالنسبة للمصريين ، لم يكن الأمر على هذا النحو اطلاقا • لقد ظنوا بكل تأكيد أنه عـلى الأرجح لم يكن الا صورة أكثر قربا للحقيقة ، من الصـورة السابقة • وقد كان فى هذه الطريقة لمواجهة المعرفة فضـلا عن ذلك ، ارضاء لغريزتهم فى المحـافظة عـلى التقاليـد الدينية • ان رأيا يطبق على الآلهة يحمل نوعا من التقديس ويفرض نفسه بصفة نهائية • ولا يمكن دحضه فيما بعد • كيف يتاح لهم أن يفسروا منذ ذلك الحين أن التصور الأخير

ليس الا نهجا جديدا للوصول الى الحقيقة وان التصور القديم يظل صالحا ؟ انها صور متشابكة تبدو لاول وهلة بلا معنى ، ولكنها حين حللت طريقتها للمعرفة وللتعريف بالحقيقة بدت تامة الوضوح ٠

« ان تاسوع بتاح امامه كأسنان وشفاه أى أنه بذرة ويدا أتوم ٠ أن تاسوع أتوم في المواقع ، جاء للوجود ببذرته ويديه ٠ ولكن التاسوع هو الاسنان والشفتان فى فم ذلك الذى سمى كل شيء ، والذى خرج منه شو (Chou) وتفنوت (Tefnout) اللذان جاءا بالتاسوع الى العالم » ٠

والتاسوع هو جمع الآلهة الذى أوجده الاله الخالق Démiurge والذى واصل عمله فى خلق العالم ٠ وقد خلق بتاح آلهة التاسوع بأن دعاها بأسمائها واستخدم فى هذا الأسنان والشفتين ٠ ان هذين اللفظين المبينين يوضحان الوسيلة الخالقة التى استخدمها الاله ، ولذا فانهما يعادلان الأعضاء التى استخدمها أتوم ، فيما سبق ، للقيام بالخلق ٠ ان كل صورة من هذه الصور حفظت على هذا النحو ولا تستبعد واحدة منها ، بصفة نهائية ، لصالح أخرى ٠

ويجدر بنا تذكر هذه الاعتبارات اذا أردنا ألا ننكر كلية قدر الفكر المصرى وأن ندرك مدى تأثيره فى نطاق علم اللاهوت ٠ لقد تمكن من أن يفرض نفسه على حكماء العبريين وعلى عدد معين من فلاسفة الاغريق ، ذلك لأنه كان يستحوذ على معارف قيمة ٠ ولكن بعد فقدان التقليد الحى الذى كان من شأنه أن يسمح باقرار المعنى الدقيق للنصوص والأساطير ـ كما يرى فيما يتعلق بالفكر الهندى الحالى ـ يتحتم علينا أن نبذل مزيدا من الجهد البالغ ، ودون معاونة ، لرفع القناع السميك الذى ألقته اللغة واتجاه عقلى يختلف اختلافا عن اتجاهنا ، على هذه المكاسب العقلية القديمة ٠

الفصل الثـالث

● الآلهة المحلية في مصر العليا

" وهكذا اصغ الى ما يتعلق بالآلهة وتلقته من اولئك الذين يفسرو
الاسطورة في تقى وفلسفة ، الجز على الدوام الاساليب المسمو
بها في المراسم المقدسة ، على ان تضع في ذهنك انه لا شيء ه
اضحية او اى عمل يمكن ان ينجزه المرء فيه رضا للآلهة اعظم ه
ان يكون له عنهم رايا صادقا • وعند ذاك تصل الى القرار ه
شر ليس اقل من الالحاد وهو التطير "

بلوتارخ (ازيد / ١٢

ان خليط الآلهـة المحلية الوفير هـو آكثر الاشياء التي
تسترعى انتباه ذاك الذى يسعى الى فهم ديانة مصر القديمة •
ولا ريب في آن النصوص القديمة لم تحدثنا دون انقطاع عن
آلف اله للقطر ، كما تفعل النصوص الحيثية في التحدث عن
الف اله لخيتي • ولـكن لم تكن توجـد قرية لهـا شيء من
الأهمية ، دون أن تكون لها آلهتها الخاصة • ولم تكن حاضرة
كل اقليم أو مقاطعة nome هي وحدها التي لها آلهتها ولكن
كذلك كان للتجمعات الصـغيرة في داخـل المقاطعـة آلهـة
مختلفة • ومن المؤكد آن هـذه الآلهة كانت تغـرس دعائم
قوية لنزعة حب الوطن المحلية ، ان لم نقل لنزعة الحرب ،
ويدور هذا في حدسنا عن آكثر من مدينة صغيرة • ولـكن
عندما كان الاله المحلي ، عقب ظروف سعيدة ، يرفع الى رتبة
اله الامبراطورية ، فان الوثائق كانت تتضـاعف ويتعـدى
زهو المدينة التي ينتمي اليها ، كل حد • وعلى هذا النحو ،
أعلنت طيبة عندما أصبحت الحاضرة في عهد الأسرة الثامنة

عشرة ، انها المثال الأعلى لـكل المدائن ، المدينة الأصيلة ، المدينة التى يجب أن يقدم لها الطاعة العالم بأجمعه : «يجب ان تنتمى اليها مصر العليا ومصر السفلى • ويجب أن تكون السماء والأرض والجحيم طوع أوامرها • وأن تكون لهـا الأمواه والجبال ونون مع مخلوقاته وحعبى (مع) زرعه وكل ما يحمله جب (اله الأرض) • وكل ما تسطع عليـه الشمس ينتمى الى « كاها فى سلام » •

ويرى المرء من هذا المثال وحده ، أن النمو السياسى لمدينة أو لاله قد خلق فى الحـال مبدأ خضوع أو بعبـارة أخـرى ، مبدأ وحدة • لقد سبق أن رأينـا ما كان « لبيت الحياة » من أثر على تنظيم علم اللاهوت والعبادة • لقد كان له نفوذ فعال بالغ بنسبة ما كان للملكية من قوة عظيمة • وقد أدى نشاط الكهنة المحليين دورا هاما أيضا ، وقد أخذوا شيئا فشيئا ، يسعون الى اقامة نظام لذلك الجمع من الآلهة ، وايجاد تماثل بين الآلهة الذين يربطهم الجوار ، بعضهم الى البعض الآخر ،والى أن يجعلوا من كبير آلهتهم الاله الأوحد • ويمكننا أن ندرك نتيجة تلك النزعة فى العصر المتأخر فى ادفو ودندرة واسـنا • حتى اننا لا نكاد نعرف عن هـذه الآلهة الا ما وصلنا من كتابات كهنوتية رسـمية تمثل ذروة عمل لاهوتى رسمى متتابع التطور يحجب عنا الآلهة المحليـة الأصلية • ان تنـوع الاضـافات التى أتت بهـا العصـور والكهنة تحول بيننا وبين اعادة تكوين الحالة القديمة • اننا لم نعد نعرف ديانات مصرية ولكن آلهة متباينة لدين موحد فى مجموعه •

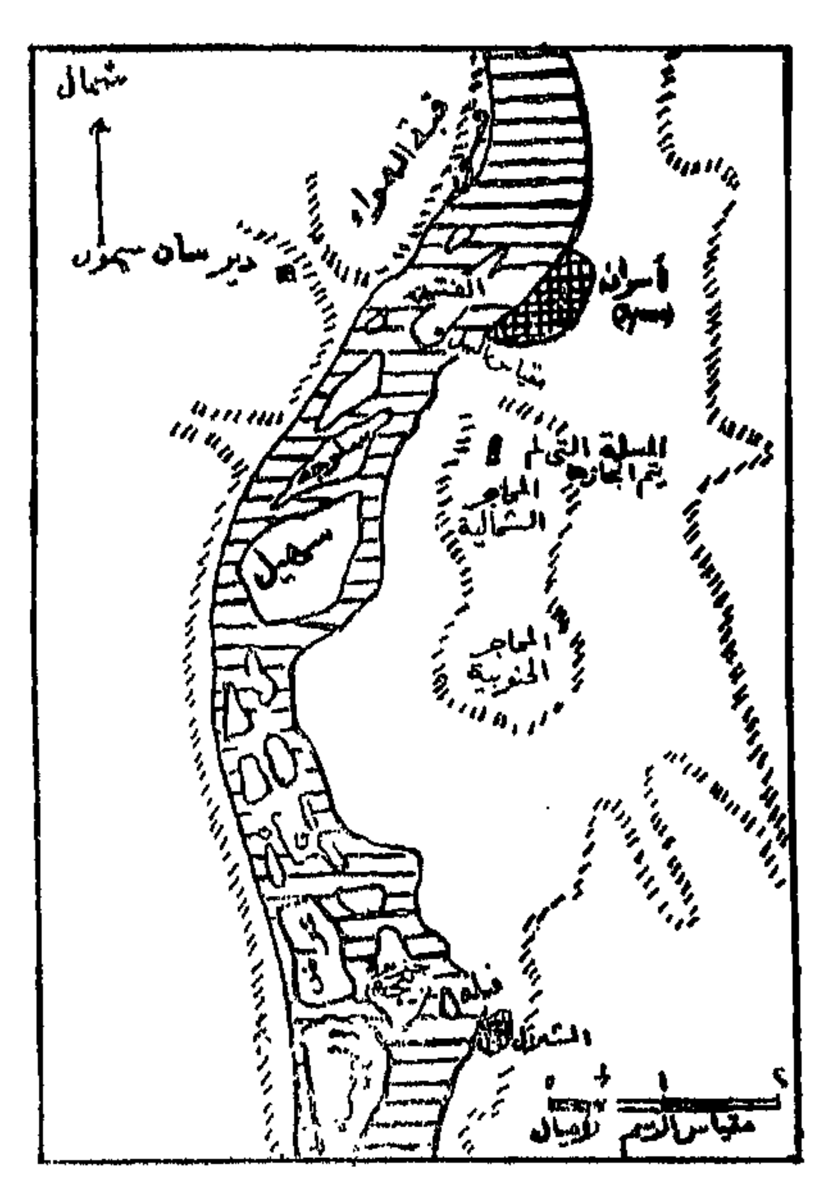
ومما يسترعى انتباه المرء عنـدما يزور معبدا مصريا تنظيم المعبودات فى مجموعات يتألف كل منهـا من ثالوث • وقد يرغب المرء فى ارجـاعها الى عهد بعيد القدم • لكنـه يتبين أنها تشكيلات متأخرة نسبيا وغير مستقرة ، عنـدما تواتيه فرصة ليرى كيف تطورت ــ وهو أمر نادر ــ • وعلى

سبيل المثال ، نجد فى زمن الملوك الاغريق ثالوث حاتحور دندرة وحورس ادفو واحى ، مكونا تكوينا يبلغ حد الكمال. ومع هذا، يلاحظ المرء الزيادةالتى تقع مرارا عديدة فى معبد حورس ، سيد خادى (١) الذى كانت حاتحور تغشاه بنفسها فى خلال عام الصلوات . وفى الواقع ، فى بداية الدولة الوسطى ، كانت الالهة التى تصحب حاتحور فى هيكل سنتو حتب هى حراختى الذى يدعى ببساطة سيد دندرة فى نفس مرتبة حاتحور ، وحورس سيد خادى وهو يظهر فى المكان الذى شغله بعد ذلك بزمن احى الاله الابن . ولا يظهر حورس ادفو . ان فصلا طويلا من نصوص التواويس ، فى نفس العهد ، مخصص لاحى . ويبدو فيه احى تماما كابن لحاتحور ولكنه ابن ايضا لتفتيس وايزيس وابوه رع . ان الخصائص التى يتجمل بها فيه تختلف اختلافا بينا عن تلك التى يبدو فيها ، على وجه عام ، فى دندرة فى العهد الاغريقى . ويرى المرء أن عمل علماء اللاهوت قد قطع شوطا بعيدا منذ تلك الحقبة القديمة ، ولم يعد فى استطاعتنا الرجم بالحالةالقديمة التى كانت عليها المعبودات المحلية ، سحيقة القدم . وتتطلب الحال اعمالا عديدة مفصلة وحتى عند ذاك ، لا يكون من المتيقن أن غاية مداها يصل الى شىء أكثر من افتراضات فيها الكثير أو القليل من الحذاقة ، من الضرورى أن تثير فينا المطابقات الغريبة بين العبادات المحلية الكثير من التبصر . والواقع ، أنه لا يمكن أن يفوت المرء ملاحظة أن التصور الثنائى الذى يبدو أنه كان يلازم التكوين العقلى عند قدماء المصريين ، قد قام هنا بدور عظيم . وكما نرى على جانبى المحور ، فى مختلف ردهات معبد ، قيام المزخرفين بوضع الآلهة التى تتطابق فى نفس الأمكنة ، فاننا نتخيل كذلك مطابقات غريبة بين مصر الشمال ومصر الجنوب ، واذا كانت توجد أون الشمال (هليوبوليس) وأون الجنوب (أرمنت) فقد لا يستطيع المرء

(١) النابة المقدسة فى المقاطعة السادسة ، دندرة .

الشعور بالمطابقة • لآن الالهين جد مختلفان • ومع هذا يجب آن يلاحظ أن قرينة منتو هى مؤنث رع ، الشمس ، سيد هليوبوليس ولقد بذلت الجهود لتوثيق الصلات بطريقة مصطنعة • غير آنها في حالات آخرى ، تظهر واضحة أمام العيون • فأوزيريس يتولى الحكم فى (أبو صير) فى مصر السفلى وفى أبيدوس فى مصر العليا • ويستحوذ آمون على ديوسبولس ماجنا وديوسبولس بارفا في مصر العليا • ولكن جعلت مطابقة لهما ديوسبولس الوطيئة فى مصر السفلى • ويمتلك حورس « بحدتى » فى مصر العليا و « بحدتى » آخرى فى مصر السفلى • ولتحوت « هرموبولس » فى مصر العليا وهرموبولس آخرى فى مصر السفلى • ويستبين الانسان في الحال ما كانت عليه من اصطناع مثل تلك الوسيلة في عرض الأمور • لقد آجبرت آلهة على اتخاذ دور آحد زملائها ، كان فى الأصل مختلفا عنها كل الاختلاف ، وذلك لتوطيد التعادل غير الطبيعى بين شطرى القطر •

اننا آحيانا نلحظ قيام آنواع من استبدال المعبودات • فقد حل آوزيريس فى أبيدوس محل اله قديم يدعى « ذاك الذى يرآس سكان الغرب » ، كما حل فى بوصيرص محل اله آخر يدعى « عنجتى » • فما سر ذلك ؟ فى بلاد الاغريق ، كانت تحمل آمثال هذه التغيرات ، فى معظم الأحوال دلالة على غزو • وهنا لا يبدو آنه كان يوجد شيء من هذا القبيل، وفى آبيدوس على وجه اليقين ، واننا لنجهل تماما السر الذى دعا الى آن يكون لرع المكانة العليا هليوبوليس بدلا من آتوم• ولماذا وصل الأمر بآمون فى النهاية الى ابعاد مونتو عن طيبة؟ وقد لا تكون هناك الا مسائل دينية خالصة ولاهوتية ، هى التى آحدثت ذلك • ولكن يتحتم اقامة البرهان على ذلك •• ان الأمر الوحيد المتيقن منه هو أنها ليست الوقائع العسكرية هى التى تفسر معظم هذه التغيرات •



منطقة فيلة (H. Keen An. Eq.)

فلنذرع اذن مصر من الجنوب الى الشمال ، وفقا للمنهج القديم فى البحث ، ولنطالع مادا كانت العبادات التى تقدم فيها • وسيكون ذلك مجرد وصف تاريخي ولن نتمهل طويلا حتى عندما يكون الانتاج الادبى فى احد المراكز الدينية وفيرا ويسمح بتقصى الخطوط العريضة لاحدى العقائد ، وان كان لنا ان نرجع للموضوع فى أحوال خاصة جدا • وبعد كل تقدير ، فان هذا على التحقيق هو المنهج الذى يمكن أن نطبقه اليوم لمعرفة الدين المسيحى فى فرنسا • ان علم اللاهوت يجب ان يدرس في ذاته وخارجا عن العبادات الخاصة • ومهما تكن خصائص سان ــ جن Saint-Gens أو سانت ــ آن ــ دوراى Sainte-Anne-d'auray ومقادس لورد Lourdes أو لا ساليت La Salette (١) ، فانها لا تمس فى شيء صفات الله (عز وجل) أو حتى علم اللاهوت الخاص بالعذراء •

فى أقصى جنوبى مصر ، كما تنطبق التسمية ، فى المكان الذى يشق فيه النهر ، لآخر مرة ، طريقا عبر سد من الجرانيت صوب أرض طليقة وصوب البحر ، كانت توجد مدينة استعارت اسمها من تجارة العاج التى كانت تمارس فيها وهى مدينة الفنتين • وكانت تتخذ مأوى لها أقصى جزيرة الى الشمال من الشلال ، وقد ورد ذكرها فى أقدم الوثائق المعروفة • وكان يعبد فيها الاله خنوم • وكان حيوانه المقدس الكبش • ويرسم الاله على الدوام برأس هذا الحيوان (شكل ١٢) • وكانت تعقد له الرياسة فى الشلال وكان أحد الأعمال التى تتصل بالشعائر والذى يجد فيه الرضى بصفة خاصة ، يتألف من سكب الماء الذى يأتى بالخصب أمامه ــ وهو الذى كان يظن أنه يتفجر من الصخور فى هاتيك الأنحاء ــ بجرة كانت تحمل اسمه • وقد ألحق به فيما بعد الهتان يبدو أنهما كانتا ترجمان الى عهد بعيد فى

(١) بعض المزارات التى تنسب لها معجزات خاصة فى فرنسا وخاصة لورد التى أذيع ظهور العذراء بها فاصبح الناس يحجون اليها طلبا للبركة او الشفاء من الامراض • (المراجع) •

القدم ودون ريب يرجع أصلهما الى أقطار تقع على مسافة نائية الى الجنوب • (هما ساتيس وعنقت) ومن الراجح أن الالهة ساتيس كانت ترتبط بحاملى الأقواس النوبيين •



(اشكال الآلهة من ١ ـ ٩)

وبعد ذلك بزمن ، أدى تشابه اسمها مع اسم سوتيس Sothis :: وهو نجم الشعرى الى أن تتمثل هذه الالهة فى هذا

النجم (١) وفى ايزيس • وقد قدم اليها كغطاء رأس تاج الوجه القبلى الأبيض يحف به قرنان (شكل ٢٤) ، وكانت أنوكس (عنقت) تمتلك وحدها جزيرة سهيل احدى أعظم الجزر اتساعا ، تلك التى تقع فى وسط الشلال على وجه التقريب • وكانت لها قسمة أفريقية بارزة تجلت واضحة فى غطاء رأس من الريش (شكل ٢) • ولكنها مصرت باعطائها مثل ساتيس ، شخصية «عين الشمس» ، الالهة التى انسحبت وهى غاضبة الى الأقطار الجنوبية وكان يتحتم على آلهة مصر البحث عنها ، أن صلتهما بخنوم ليست واضحة بصفة قاطعة • كانت ساتيس على وجه اليقين زوجته ، أما انوكس (عنقت) فربما كانت ابنتهما ، وهذا أرجح من أنها كانت زوجته الثانية • ولكن تاريخ كل هذه التنسيقات ، فى الوقت الحاضر ، غامض كل الغموض •

لسنا نعلم متى جاء أوزيريس (شكل ٢١) ليقيم فى هذه الأنحاء • ومع هذا فقد كان له فى العهد المتأخر قبر فى جزيرة بيجه وهو الذى سماه الاغريق اباتون Abaton (٢) • ويقع مباشرة الى الغرب من جزيرة فيلة الصغيرة حيث سادت ايزيس (شكل ١١) • ولم يكن فى قدرة أى أجنبى أن يجوس خلالها ، وكانت تحذيرات عديدة تحمى راحة الاله • وكانت ايزيس تذهب ، كل عشرة أيام ، فى موكب لتؤدى على قبره شعيرة سكب اللبن • وفى فيلة كانت تعبد مع أوزيريس وحربوقراط (حر باخرد) ومعنى اسمه فى اللغة

---

(١) اشار بعض المؤلفين الى ان عبادة الشعرى كانت شائعة عند العرب فى الجاهلية • وذكر ابو الفرج والدمشقى قبيلة قيس على الاخص راجع : M, Paul Casanova
Quelques Légendes Astronomiques Arabes, considérées dans leurs rapports avec la mythologie égyptienne , Imp. I.F.A.O, 1902.

وجاء فى القزوينى : « وكان قوم فى الجاهلية يعبدونه لانه يقطع السماء عرضا دون غيره من الكواكب » وذلك قوله تعالى : « وانه هو رب الشعرى » — (المترجم) •

(٢) Abaton — الاسم الذى اطلقه الاغريق على قبر اوزيريس فى جزيرة بيجه ومعناه « الذى لا يمكن الوصول اليه » •

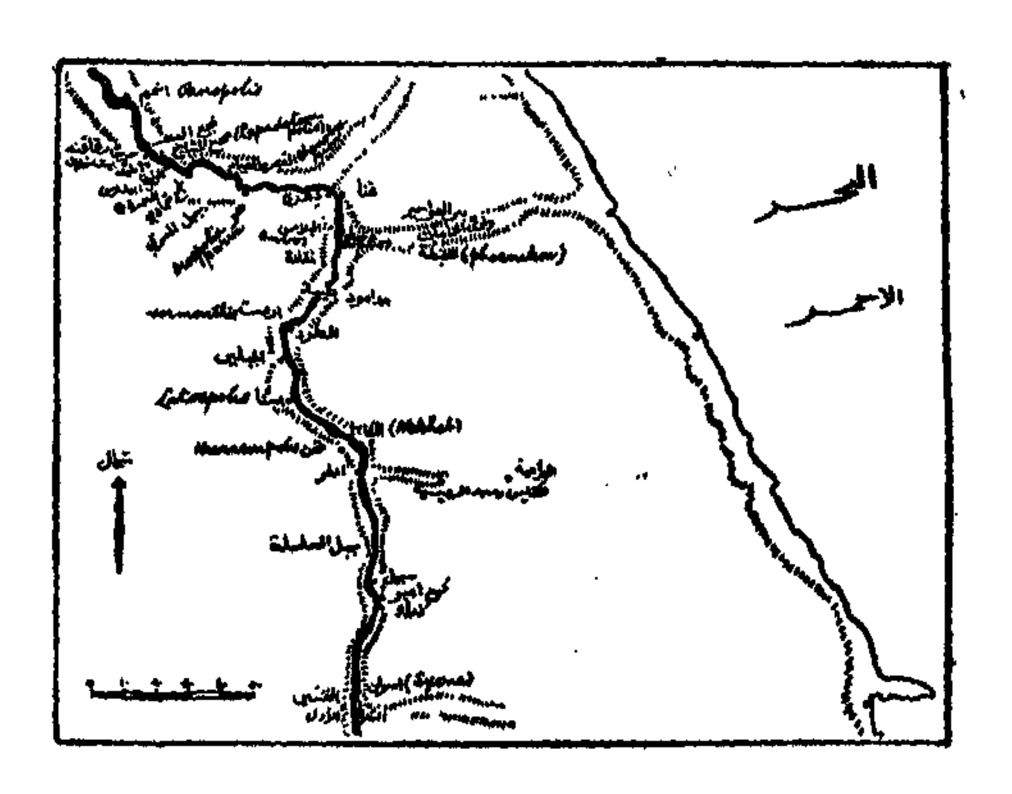
المصرية « حورس الطفل » - والى جانب هذه الآلهة ، كانت تقدم لحاتحور عبادة في معبد صغير مستقل ، كان الناس يغنون ويرقصون فيه لأجلها ، أثناء الليل • وبحذاء المدخل ذي العمد الذي كان يسير من مرسى السفن الجنوبي حتى الصرح الاول ، كان يوجد في البداية معبد الاله النوبي آرينسنوفيس (١) • لقد جاء من الجنوب ويعتبر سيد بونت على ساحل الصومال • ويجده المرء متمثلا في اله آخر نوبي يدعى ددون • ولكن المصريين أعطوه شخصية الههم شو الذي ذهب بعيدا بحثا عن الالهة الغاضبة • وعلى مسافة الى الشمال ، كان يوجد معبد صغير آخر، أقيم خصيصا لاموثيس (امحوتب) المؤله ، والذي أصبح الها يشفي من العلل ودعاه الاغريق لهذه الواقعة ، اسكلبيوس ، لقد عرف معبد فيله شهرة عريضة • لقد كان يهرع اليه الحجاج الذين يتحدثون بالاغريقية ، أنفسهم ، وتركوا نقوشا لا عد لها ، على حيطانه • وكان يجيء الهمج وعلى الاخص البلميس Blemmyes (٢) اليه لتقديم العبادة لايزيس التي رفعت في عهد متأخر الى مرتبة الهة عالمية • وكان يسمح لهم بان يحملوا الى بيوتهم كل فترة صورة مقدسة كان يجب عليهم أن يعيدوها • وكان يجب الانتظار حتى عهد جستنيان واستخدام العنف ، لاطفاء شعلة آخر موطن للوثنية العتيقة في عام ٥٣٥م •

---

(١) اسمه •• iri hms' nfr ـ المهد الاغريقي •

(٢) بلميس Blemmyes :

جاء ذكرهم في « بلني Pline » على انهم شعب اثيوبيا وفي عهد ديوقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) غدا البلميس وهم رابطة من القبائل تقطن شرقي السودان ، من القوة بحيث اجبروا الحامية الرومانية على الانسحاب من دودكاشوانوس Dodekaschoines وهو شطر وادى النيل من اسوان حتى هيراسوكامنوس Hierasykaminos (المحرقة) على بعد ٧٠ ميلا منها (١٢ شوينى ومن هذا اشتق اسمها) واجبر الامبراطور على تأجير قبائل الصحراء الغربية لصدهم • ووافق ايضا على دفع مبلغ من المال سنويا للكف عن غزو اقاليم مصر الرومانية واقام معبدا في فيلة حيث يقسم مندوبون من جميع الشعوب المعنية على مراعاة الاتفاق في حضرة الهتهم ـ (المترجم) •



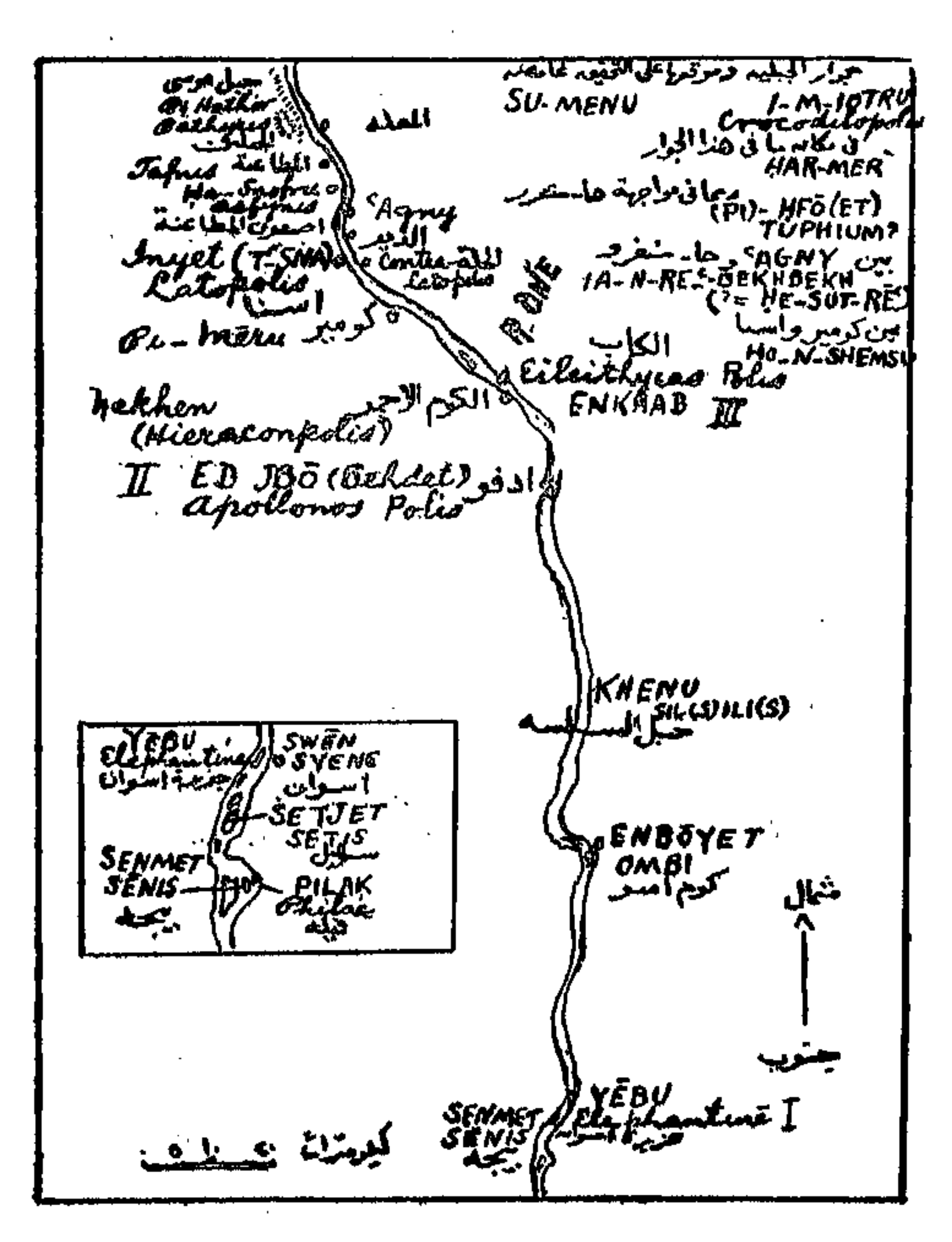
مصر العليا والصحراء الشرقية (الجنوبية) (H, Kees, An. Eg.)

وكانت تقوم على مسافة ابعد الى الشمال ، فى نفس هذه المقاطعة الأولى ، عبادة جد غريبة لدينا عنها معلومات غزيرة لأن معبدا يرجع للعهد الرومانى مازال جزء عظيم منه قائما ، يستوى مشرفا على النهر فوق تل كوم امبو المقدس • هنا يتقاسم الموقع الهام فى شطرين متعادلين وهو مالا يوجد مثيل له فى أى مكان اخر فى مصر • وهذان الالهان هما حرويرس ، حورس المبجل (١) (شكل ٩) وسبك (شكل ٢٥) ، الذى كان يمثل فى معظم الاوقات براس تمساح • وكان يوجد معبد فى نفس المكان على الاقل منذ الأسرة الثامنة عشرة وبكل توكيد فى زمن أعظم بكورا • ولكنا لا نعلم أنه كان يبرز خصائص المعبد الذى نقوم بزيارته • وينهض لدينا دليل للاعتقاد بذلك لانه فى عهد الملكة حاتشبسوت يقدم نقش خفيف البروز لتاسوع الكرنك وضعا غريبا : فانه بينما كل الآلهة يتعاقب ترتيبها فى انتظام وتأخذ وجوهها نفس الاتجاه ، يحول حورس ، دون سواه ، ظهره الى نفتيس التى تتقدمه ليواجه سبك الذى يتبعه • ومن سوء الطالع لا يصحب أى شرح هذا الخروج على القواعد المعتادة فى رسم المناظر المصرية • ولكن فى اثر تذكارى بذلت فيه العناية ، لا يمكن تفسير هذا الشذوذ الا بوجود صلة ، خاصة تماما ، بين حورس وسبك ربما كان يبررها أمر تفصيلى فى أساطيرهما لم نهتد اليه حتى الآن •

★★★

ان لمعبدهما فى كوم أمبو تصميما فريدا فى نوعه الى الان فى فن العمارة الدينية المصرية • فهو ينقسم طولا الى شطرين يوجد فى كل شطر منهما ، هيكل مستقل • ويقابل هذين الهيكلين بابان متماثلان وهناك بابان لكل غرفة من الغرف التى تسبقهما ، للردهة المتوسطة ولردهة القرابين وردهة التجلى ولبهو الأعمدة ، وقد خصص القسم الشمالى بأجمعه لحرويرس والقسم الجنوبى لسبك • ولكل منهما

(١) حرويرس ـ الصيغة اليونانية لحرور •



مصورة مصر العليا ـ من فيلة الى الجبلين ، وبيان المقاطعات

أعياده وعبادته الخاصة المتميزة • وقد منحت أسرة لكل منهما • كان لحرويرس شخصية لاهوتية اتخذها زوجة : الأخت الكاملة وكان له ابن ، سيد ـ القطر ـ المزدوج ـ الطفل • وقد قدم لسبك كشريك له حاتحور وكابن خنسو ـ حر • ألا يكون سبك اسم التنكر الذى اتخذه ست امبوس ، والذى أصبح فى نهاية الألف سنة الثانية اله الشر ووصفه بلوتارخ باسم تيفون ؟ ليس في قدرتنا الوصول الى معرفة ذلك ، ثم ان الاناشيد اللاهوتية المحفورة على جدران المعبد الحالى قد استطاعت تخفيف الاختلافات الاصلية التى كانت تقوم بين الالهين ، حتى ان أى تحليل دقيق لا يصل الى كشف الخصائص القديمة الا فى عناء • انها بالحرى تعرض الخصال العامة للألوهية ، أكثر مما تعرض الخصائص المعينة التى تظن أن ألهة العصور العتيقة تميزت بها •

في وادى جبل السلسلة الضيق ، فى الموضع الذى ينحسر فيه النيل بين جبلين من الحجر الرملى حفرت فى عهد رعمسيس مصليات ونقشت فيها اناشيد لاله النيل الذى كان يبدو هنا أنه انفذ الممر قسرا • ولكن يجب ان نهبط مبحرين في النهر حتي ادفو لنجد مركزا للعبادة معروفا تمام المعرفة بفضل معبد عظيم يرجع الى عهد البطالمة ، ومازال سليما ويكاد يكون فى الحالة التى كان عليها في زمن الملوك المقدونيين • ولقد خصص لحورس ادفو « ذاك الذى ينتمى الى بحدتى » (١) فى اللغة المصرية • وقد كان ، أساسا ، خصما لست امبوس • وكان يرمز له بالصقر • وقد كان يوجد عش عظيم لهذه الطيور المقدسة ومعبد للصقر فيما سبق ، في مواجهة هيكل الميلاد الحالى • وكان الكهنة يقومون في المعبد بمحاكاة مسرحية شعائرية تترسم أحداث قصص المعارك التى شنها الاله ضد خصمه • والعبادة هنا ترجع

---

(١) أضفى اسم بحدتى ومعناه العرش ، على عدة مدن مصرية كانت تستحوذ على معان للاله حورس وكان اعظم تلك المواقع اهمية حاضرة المقاطعة الثانية فى مصر العليا وكان اسمها الشعبى Deb وبالقبطية dlbw الذى انحدر منه لفظ ادفو ... (المترجم) •

الى الدولة القديمة . ولكن لا سبيل الى الوصول الى علم اللاهوت سحيق القدم الذى يتصل بحورس بحدتى . ومن المؤكد أن أسبابا قوية كانت تربطه منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، بحاتحور الهة دندرة اذ أن هذه الآلهة كانت تقوم كل عام بزيارته منذ عهد اتباع حورس ، اى قبل توحيد مصر فى عهد مينا . وفى عهد الاغريق كان يؤدى هذا الاحتفال فى شهر ابيب فى شىء عظيم من الوقار . ولقد كان يطلق عليه عيد « الاجتماع الطيب » . وهكذا كانت تقدم حاتحور كزوجة لحورس . وكان ابنهما ،« حورس ــ جامع شمل ــ القطر ــ المزدوج ــ الطفل » الصغير ، حرسماتوى . وشيئا فشيئا ارتقى الاله ادفو الى مرتبة المعبود الاوحد والازلى وكان علماء اللاهوت يقصون كيف قام بخلق العالم والآلهة الاخرى. وهذا هو ما كان يحدث على الدوام لكل رب الهى فى اية مدينة وصل كهنتها الى شىء من الأهمية . ويجب أن يذهب الظن الى ان هذه الادعاءات لم تنشأ الا فى العصر المتأخر . وفى الحالة التى نحن بصددها ، فان النقوش التى تدلى الينا بهذه المعلومات ، هى نسخة من مخطوطات يرجع تاريخها ، فيما يرجح ، الى عهد الامبراطورية الحديثة . وعندما يسير المرء هبوطا فى مجرى النهر ، فانه يصل أول ما يصل ، وهو يسير بمحاذاة الشاطىء الأيسر الى مدينة نخن ، الكوم الأحمر الحالية . ولقد كان لها ، فى غضون عهد ما قبل التاريخ البعيد ، أهمية عظيمة يشهد عليها ما عثر عليه من آثار ترجع الى أسرات طينة (١) والدولة القديمة . ولكنها هوت كثيرا عقب هذا . ولقد كان يعبد فيها حورس ، ويبدو أنه كان محنطا ولكن ليس لدينا علم وفير به ، ولما كانت تضفى على الملك شخصية حورس ، فيمكن أن تكون أرواح نخن التى تطالعنا مرارا عديدة فى الشمائر الملكية ، على شاكلة عيد

(١) تقع مدن طينه قرب « جرجا » الحالية وينسب اليها العصر الطينى الذى سادت فيه الاسرتان : الاولى والثانية وهو عصر التاسيس والبناء الذى سبق ظهور الدولة (المراجع) .

« حب ـ سد » او « الميلاد الالهى » هى ارواح الموتى من الامراء الاقدمين ·

وفى مواجهتها على التقريب ، على الشاطيء الايمن ، كانت توجد مدينة نخب (١) · وكانت تعبد فيها الهه يرمز اليها برخمه بيضاء وكان يطلق عليها تلك التى تسمى الى نخب ، نخبت (شكل ١٨) · ومما لا ريب فيه ، ان هذه المدينه كانت عند نشاة الحضارة المصريه رمزا لاقصى الجنوب وكانت تقوم على رعاية الملك الالهه ـ الوصيه التى تبسط جناحيها فوقه · ولقد وجدت معبودة مطابقه لها فى عهد توحيد القطر المزدوج ، وهى اوتو (واجت) ، الالهة الأفعى فى اقصى الشمال وكانت تسوم بالسهر على مدن مصر السفلى · ولهذا اصبح فرعون « ذلك الذى ينتمى الى السيدتين » · وكان تاجه يحمل فى المقدمه راس عقاب وراس افعى وكانا يثيران ذكراهما ويحميان الملك · ان تاج توت عنخ أمون هو احد مباهج متحف القاهرة · وكانت الاثنتان تشتركان فى احتفال التتويج · وتقوم كل واحدة منهما بوضع تاج اقليمها الأصلى على رأس الملك · وكانتا ترضعان الملك بلبنهما السماوى للحفاظ على ألوهيته · ومع هذا ، فان نخبت كانت تحفظ على الدوام ذكرى أصلها المتواضع بأن ظلت الهة مدخل الوادى الذى كان يؤدى من الكاب الى مناجم الذهب· ومن ناحية أخرى، فاننا نجدها منذ الأسرة الثامنة عشرة شبيهة بـ «حكت» الالهة ـ الضفدعة فى مدينة أنطينوى (Antinoé) (٢) ، وهى تقوم بتيسير الميلاد الملكى · وعلى هذا ، فقد كانت تقوم بدور شبيه بدور القابلة وكذلك تعرف فيها الاغريق هوية الهتهم ايلايثويا Eileithyia ، التى أطلقوا اسمها على مدينتها · وقد ارتفعت فى خاتمة المطاف

---

(١) الكاب ـ كانت حاضرة مصر العليا الدينية فى عهد ما قبل التاريخ وظلت احدى المدن الهامة فى البلاد حتى عهد البطالمة · وما زال سور فناء معابد نخبت قائما ويقع على بعد ثلاثة كيلو مترات الى الشمال من محطة المحاميد ـ (المترجم) ·

(٢) الشيخ عبادة ·

الى مرتبة آلهة الكون الخالقة بوصفها أم الشمس • وعنـــد ذاك مثلت بحاتحور وموت ونوت •



(اشكال الالهة والالهات من ١٠ – ١٨)

وكانت تقدم لها عبادة ليس فى معبد الوادى ، فسيح الجنبات ، الذى مازال الجانب الأعظم من سور فنائه قائمـا حتى الآن ، وحسب ، ولكن أيضا فى معبد بطلمى حفر نصفه فى الصخر فى مدخل الوادى الذى يؤدى الى الصحراء ، وعلى مسافة أبعد قليلا ، فى معبد جميل أقيم فى عهد أمنحوتب الثالث • وكذلك كانت تقدم الى تحوت عبادة فى الكاب •

وعلى قرابة عشرين كيلومترا هبوطا في مجرى النهر من الكاب ، عرفت عبادة كانت تقدم للالهة انوكس (عنقت) ولغزالها في ابر ــ مرو (١) • ولا شك في ان مكانها يقع بالقرب من كومير الحالية •

وابعد قليلا الى الشمال ، عرفت منطقة اسنا معرفة افضل ، ويرجع ذلك خاصة الى نقوش المعبد الذى مازال بهو أعمدته من العصر الرومانى ، قائما • وكان يعبد فيه الاله خنوم (شكل ١٢) الذى يتخذ راس كبش كما فى السنين • ولابد ان عبادته كانت ترجع هنا الى عهد قديم ، لقد حدد تحوتمس الثالث القرابين التى كان يجب ان تقدم فى بعض الحفلات الشعائرية • ولقد لوحظ مدى قرب الاناشيد المحفوظة فى النقوش من حيث التفكير والصياغة واللغة ، من اناشيد الامبراطورية الحديثة الكبرى التى كانت توجه الى آمون أو بتاح • وكان خنوم هنا ، اكثر من اى مكان اخر الخزاف الالهى الذى شكل على دولابه ، الانسانية جمعاء • وقد صور أحد الحكماء تناقص السكان خلال الثورة التى أودت بالدولة القديمة ، بهذه العبارات :

« كان ذلك هو الحال : النساء عقيمات ، لم تعد واحدة منهن تحمل • لقد كف خنوم عن تشكيل الأجنة بسبب حالة البلاد » • وقد كان عليه لسبب أقوى أن يصوغ الملك ــ الاله الصغير فى لحظة مولده • لقد رفعته القوة الخالقة التى تبعث الحياة والتى كان يستحوذ عليها الى مرتبة الاله الذى يصور الخلق (٢) • وقد كانت طبيعة الكبش فيه تعبيرا قويا

---

(١) كتب اسمها بالمصرية (الكوم الأحمر) بر ــ مرت وهى كومير التى تقع بين هيراكونبولس واسنا ــ (المترجم) •

(٢) dieu plasmateur لفظ يونانى معناه التكوين والصوغ اصلا ، واصبح يطلق على الجزء السائل فى الدم •

وقد جاء نص فى معبد اسنا فيه يشرح واضحه كيف كون خنوم جسم الانسان عضوا بعد عضو وكيف مزج اللم والنخاع حتى يكون العظم • وكان الدم فى العظم ننشطه حركة قوية • وقد امد الكائنات التى فى دور التكوين بالنفس (Sauneron, Esna) : ...

عن هذه القدرة • غير انه كان يجب شرح الأسباب التى تربطه بالآلهة الشبيهه به فى الفنتين وهوا بسليس Hypselis (١) وانطينوى (٢) وهيراكليوبولس (٣) وتمويس Thmouis (٤) وقد شرح علماء اللاهوت ذلك بأنه يمثل المجموع الكلى لأربعة آلهة ــ كباش • كان يطلق عليها الكباش الأربعة الأحياء ، ولم يكن خنوم الا اله هيراكليوبولس واله ثمويس ومنديس الذى يوزع بذره ، المستخفى عن الآلهة وعن الناس • ولم يكن فى هذا الكفاية وقد اتخذ بنفسه مهمة الخلق بأكملها بوصفه الها أزليا أصبح خنوم ــ رع :

وقد نسب اليه الزواج من الهة خصب زراعى كان يطلق عليها « نبت وو » أى «سيدة ــ الاقليم ــ الخصيب » • ولقد شبهت بالالهة أرموثس ، الهة الحصاد • وقد نسبت اليهما أبوة حكا الطفل وهو شخصية فيها قدر من الغموض • واننا لا ندرى متى التحقت نايت بخنوم • ولقد اتخذت زوجة خنوم هذه ، فى العصر المتأخر مكان الصدارة ، فى اسنا التى صارت تمثل فى الصعيد ، ما تمثله سايس (صا الحجر) فى الدلتا • وكانت معبودة مصر السفلى العتيقة ذات الحول، فى كل الأزمنة القديمة، أزلية وخالقة • ولم تضم اليها أى اله لأنها كانت تستحوذ على ثنائية جنسية أصيلة • ولا شك فى آن عجالات اسنا اللاهوتية قد نقلت عن

ــــــــــــــــ

.. وكذلك فان المخلوقات بأجمعها تعلن لك اعترافها بالجميل ، لانك بتاح ــ تانن ، الخالق بين الخالقين ، الذى أوجد فى « اسنا » كل ما هو كائن ؛ ذلك الذى غذى الكائن الصغير داخل بطن أمه الى أن يحين الوقت الملائم •• ولهذا فانه صانع البشر وآتى بالآلهة العالم وصنع الحيوانات صغيرها وكبيرها • وخلق الطيور والأسماك وكل الجنس الزاحف ؛ وجعل الأسماك تقفز ، بأمره ، فى مياه نون ، فى مخرج الكهفين حتى تغذى الناس والآلهة ، فى اللحظة المناسبة • وجعل المزروعات تنبت فى وسط الريف وجعل الشواطىء بالأزهار • واخيرا شق صدوعا صخرية فى قلب الجبال وأجبر المناجم على قذف المعادن التى تحتويها (ترجمة سونيرون) • (المترجم) •

(١) شطب •

(٢) الشيخ عبادة •

(٣) اهناسية المدينة •

(٤) تمى الأمديد •

أعمال دينية أصلية في سايس (صـا الحجر) حين شرحت نيف ان : الاباء ، وام الامهات ، الـكائن الالهي الذي بدأ يجونه في البدء ، كان يوجد داخل المياه الأولى التي خرجت من تلقاء ذاتها بينما كانت الأرض في ظلمات الاعمـاق ولم تكن اية ارض قد ظهرت أو أي نبات قد نما ... (ترجمة سونيرون) •

في ذلك الحين كانت تتصور في قلبها عنـاصر الـكون التي كانت توجد بمجرد تصورها لها • وكانت تسعى في آن تحدد بوضوح الكائنات ثم تنطق باسمها فتظهر للوجود • وعلى هذا النحو تلفظت بسبع كلمات خالقة • لقد عملت ، بادئ ذي بدء ، على أن تبرز التل الأول الذي اتخذت فوقه مكانا • وكان هذا التل هو اسنا وسايس ، في نفس الوقت • وبعد ذلك خلقت الشمس ، رع ـ آمون ـ خنـوم ثم آلهة هرموبولس الثمانية Ogdoade وفي النهاية ، تحوت • وهنا يجد المرء أفكار خلق الكون السائدة في منف وهليوبوليس وطيبة ، وقد صيغت لصالح سـايس واسنا • وبمجـرد ان تهيئ المصادر شيئا من الوفرة ، توجد نفس النوازع العامة التي يلحظها المرء في كل مدرسة محلية • وهي الارتقـاء باله المكان أو الهته الى مقـام الاله الأوحـد ، فيصبح خالق العالم والآلهة والناس في نفس الوقت •

ان وجه الغرابة هنا ، هي الأهمية التي اتخذتها نايت الهة سايس التي تستحوذ لنفسها على المكانة الأولى في اسنا • ومع هذا ، فانه ليس من المؤكد تماما بأنه كان يوجـد أي تناقض بين خنوم الذي صور الخلق ونايت الخالقة • ان عمل نايت يتخذ مكانه في الأصل الأسطوري عينه ، بينما يقـوم خنوم بعد ذلك بذاته بصنع العالم والآلهة والناس • وهـكذا تنتظم الفوضى الظاهرة في وسائل الخلق المتباينة هـذه ، والشخصيات الالهية المختلفة التي ذكرت • ولا شك ان أكثر علماء اللاهوت دراية ، كانوا يظنون ـ كما سبق أن أوضحنا

عند دراسة مناهجهم في التعبير أن الحقيقة تستقر في مكان ما ، يقع فيما وراء كل هذه الصور التي حاولوا في عسر شديد تنظيمها حتى مع ابرازهم بعض التناقضات ، مثل ظهور التل الأول في اسنا وسايس ، في نفس الوقت .

وعلى أية حال ، كانت نايت قد وطدت قدمها في أسنا في العصر المتأخر ، حتى ان السمكة لاطس Lates (قشر البياض)(١) ، حيوانها المقدس ، كانت تكرم فيها اعظم مما كان يكرم كبش خنوم وأن الاغريق أطلقوا اسمها على المدينة : لاتوبوليس Latopolis . شاهد اعضاء اللجنة المصرية في عهد بونابرت في مواجهة اسنا تماما ، على الشاطىء الأيمن ، معبدا يرجع الى العهد المتأخر خصص للالهة حاتحور . ولو أننا رجعنا الى البيانات الايجابية الواردة في نقوش لاتوبوليس ، لما رأينا لهذه العبادة الا القليل جدا من الصلات بعبادة الالهات العظيمات ، التي كانت تقوم في مواجهتها .

وعلى مسافة لا تبعد كثيرا عن اصفون « مسكن ـ سنفرو (٢) » العتيق ، وفي مدينة على الشاطىء تسمى حفات(٣) ، كان يعبد الاله حمن ، وكان يتخذ أحيانا شكلا آدميا وأحيانا آخرى شكلا محنطا كحورس هيراكونبوليس ، وكان له مظهر محارب وتقام له أعياد بحرية تنتهي بمقتل فرس نهر يرمز للشر والعدو . وقد كان له تواصل مع ايزيس ونفتيس التي كان له ابنة منها . ولكن شخصيته لا تزال بمنأى عنا .

---

(١) لاطس Ltaes Niloticus سمك في النيل من فصيلة القفور serranisae تعرف له في مصر اسماء كثيرة منها القشر والفرخ وحمار البحر (معجم الحيوان ، أمين المعلوف) ـ (المترجم) .

(٢) اسم اصفون في اللغة المصرية كاملا هو h(w)t - sntfrw ومعناه قصر سنفرو . وتوجد امكنة عديدة تحمل اسم سنفرو ثبت أن معظمها يرجع الى الدولة القديمة .

(٣) حفات ـ اسمها بر ـ حفاو (اى بيت الأفعى ، بيت الحفات) . وكتب حفات وحفت الخ . وكانت تقع على شاطىء النيل الأيمن الى الجنوب من الجبلين ديما غند « المعلة » بين اصفون جنوبا ، وبرحوت حرت Pathynis شمالا .

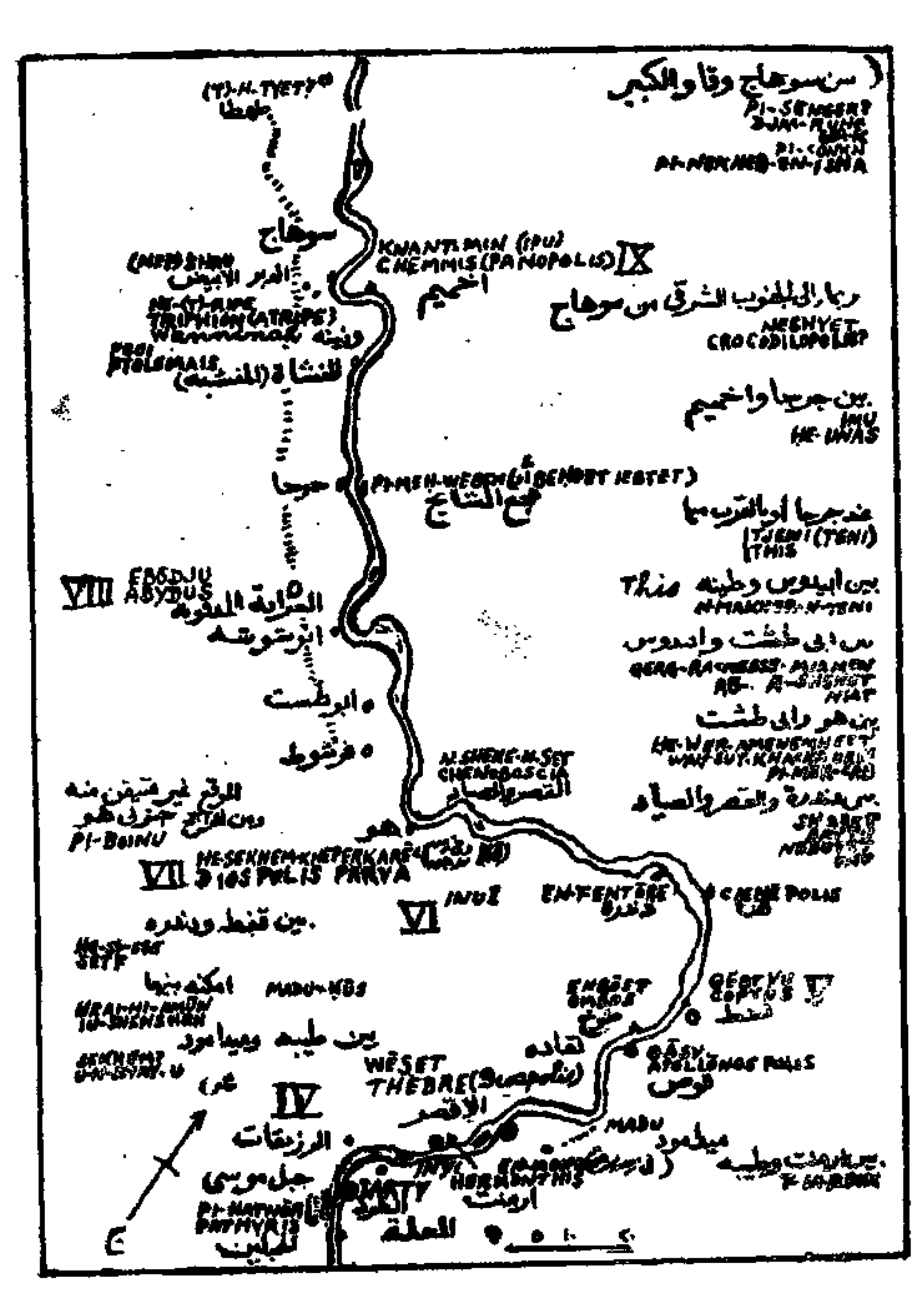
ولا تتيح لنا الوثائق أن نضفى خصالا معينة على حاتحور الهة مدينة الجبلين ، وهى باثورس Pathynis (١) القديمة . وان كانت معارفنا ستزداد عنها فى دندرة ، وقد كان يعبد على مقربة منها « سبك » بالاشتراك مع « خنوم » فى مدينة سومنو التى لا نعلم أين تقع على وجه التحقيق فى المنطقة (٢) .

وتسمح الأناشيد التى يرجع مصدرها الى سومنو عينها بأن نتبين بعض ملامح شخصية الهها فى شىء من دقة أعظم ، ولكن فى العصر المتأخر ، دون سواه . ومع هذا فلابد أن خصالا ليست بالقليلة كانت أعظم قدما . لقد أصبح ، بادىء ذى بدء ، حليف أوزيريس وأخذ يغوص فى النهر ليلتقط منه العناصر المتفرقة من جثمان الاله . وهكذا يتعاون مع آلهة فريق أوزوريس . ويبتهج الآلهة الآخرون بمحضره وينحنون أمام ألوهيته . وهذا لا يدعو الى الدهشة ، لأنه دافع عن رع فوق مركبة وأطاح بالمارد أبوفيس الذى يهدد دون انقطاع بابتلاع الشمس . والأفضل من هذا ، القول انه رع نفسه . انه يصبح شمسا وينير العالم بأشعته . ومنذ هذا الحين ، ستوصف أبديته الالهية بتعابير شمسية : فى كل الأمسيات تبتلعه أمه نوت ويضىء لسكان الغرب (الموتى) أثناء الليل وبعد استكمال حمله ، يعود للطلوع فى الصباح . ولقد اتخذ من رع طبيعته الأزلية فهو الذى ظهر فوق تل البدايات الأولى وجفت الأرض بعد ظهوره . انه خالق الأرض وكل ما تحمله .

---

(١) فى أسفل الجبل ، الى الجهة الشمالية يوجد تل هو موضع مدينة عتيقة ، دلنا نقش يرجع للسنة الثانية عشرة من حكم طريان على أنها باثورس ، بر حاتحور اى بيت حاتحور .

(٢) تقع بين ارمنت والجبلين فى المقاطعة الرابعة واستقر الراى على انها الرزيقات
Gauthier — Dict, Geog. Tome Cinquieme.



مصوره جغرافيه : مصر العليا ـ من الجبلين الى طهطا وبيان المقاطعات

وكذلك فقد وهب الثنائية الجنسية ، على غرار عــدد معين من الآلهة التى صورت الخلق · ولما كان انحدر عن نون، فانه هو النيل المخصب الذى يغرق الأرض بفيضه ويجعلها تأتى بنتاج · بل لقد أعلن الها أوحد مرات عديدة ·

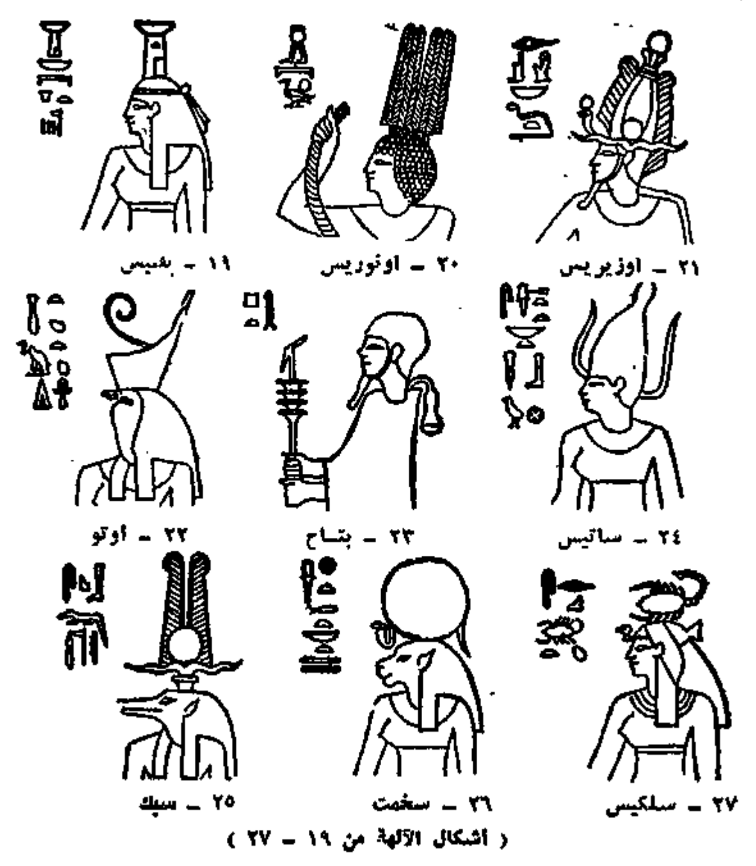
ويجب أن نصــل الى مدينة الطــود « طوفيم » القديمة ؛ لنعثر على معبودات توجد عنها وثائق وفيرة ، فهنــاك نجــد أطلال معبد عظيم خصص للاله مونتو · (شكل ١٤) · وقد كان الها فى أربع مدائن : الأولى أرمنت واســمها القــديم هرمونثيس Hermonthis ، وتقع على بعد ما يقرب من خمسة عشر كيلومترا الى الجنوب من طيبة ، عــلى الشاطىء الأيسر والطود التى تواجه أرمنت تماما وطيبة ومدامود ، على مسيرة بضعة كيلومترات شمال الــكرنك ، انه رب قديم جدا لهذه المنطقة · وكان حيوانه المقدس الصقر وكان يصور فى الكثير الغالب برأس هذا الكاسر · ولم يحدث الا فى زمن متأخر ، أن اتخذ أيضا الثور كرمز له · وكان هذا هو الثور الذى عــرف ــ فى أرمنت ــ فى الــعصر الاغريقى باســم بوخيس (١) · وأحيــانا كــانت صوره تمثــل رأس ذلك الحيوان · وكان يربى فى حظيرة مقدسة بالقرب من المعبــد وكان يشاهده الأوفياء والغرباء ، وكان يعد رفضه أو قبوله الغذاء الذى يهيأ له بمثــابة النبوءة ولــكن ذلك لم يكن الا تطويرا متأخرا لعبادة أكثر قدما ·

وفيما يبدو ، لم يكن لمونتو ، أكثر من غيره من آلهــة المدن ، تخصص متميز فى بداية ألوهيته · ولكن من الراجح أنه بعد الزمن الذى نجح فيه الملــوك الذين يطلق عليهــم منتوحتب أى أولئك الذين يحملون اســمه ، أن يعيــدوا عن طريق الغزو وحدة القطر المزدوج ، قد غــدا الها محــاربا

---

(١) اسمه فى اللغة المصرية (به) bh وترجع مصادره الى العهد المتاخر والعهد الاغريقى يقابل هبا وهو صنم عبد فى الجاهلية ــ (المترجم) ·

يأتى بالنصر ويحالفه الظفر • ولما كانت لديه ، على الأخص، موهبة الحرب ، فانه هو الذى يخضع للملك الأقطار الأجنبية • انه هو الذى أسرع الى نجدة رمسيس الثانى فى لحظات الشدة على أرض معركة قادش ، ولقد سمع فى أرمنت نداء ابنه • وقد شبه بالاله المحارب بعل عندما نشأت بين المصريين ، فى عهد امبراطوريتهم الآسيوية، وبين الساميين روابط متصلة • وبعد الغزو الآشورى أقيم فى مدامود نصب يصور أربعة آلهة بهيئة مونتو برأس ثور ، وكل اليها السهر على الدفاع عن الجهات الأربع الأصلية فى طيبة ؛ للحيلولة دون انتهاكها مرة أخرى ، وقد صنعت له تماثيل من البرونز تمثله فوق الأقواس التسعة — التى ترمز الى مجموعة الشعوب المعروفة •



(اشكال الآلهة من ١٩ – ٢٧)

ومع هذا ، فقد بقيت ذكرى الزمن الذى كان فيه الهد لجميع انواع النشاط فى المقاطعة • ولقد كان على الدوام يظهر على راس الجماعة الالهيــة التى تتآلف منهــا حاشــيه آمون ، تاسوع الكرنك العظيم الذى كان ، فى عهد الدولة الوسطى ، ينتمى اليه ، بادىء ذى بدء فيما يرجح • ولقــد كان سيد طيبة • وفى عهد تحوتمس الثالث على الأقل اتخذ الصفات الشمسية باسم مونتو ــ رع • ولقد آل أمره أيضا، على مثال اله قفط ، الى أن يتمثل تمثلا تاما بالاله آمون وأن يطلق عليه مونتو ــ رع • وقد رتلت له فى العهد الاغريقى الأناشيد التى كانت تتغنى به بوصــفه الها خالقــا رحيما بخلقه • حقا أنها كانت تنتهى بأنغام عسكرية تثير ذكــرى الوحشية والعنف فى معارك القتال ، ولــكن ما نعلمــه عن حورس ادفو وخنوم يسمح لنا بأن نفهم كيف جرت الأمور فى مراكز عبادة مونتو •

كان يظهــر فى آرمنت وقــد أحاطت به معبــودتان ، ترجمان ، دون ريب ، الى عهد سحيق القدم : تانِنت وايونت اللتان لا نعرف عنهما الا أقل الأشياء ، والأولى تحمل عــلى رأسها ساقى نبات يلتفان فى شكل لولبى ، على هيئة صليب فى أقصى طرفهما الأعلى • ومن الجائز أنهما كانتا معبودتين قديمتين من معبودات الخصــوبة فى الريف ويجدهما المرء بالقرب من آرمنت على كتلة من الحجر فى مقدس حاتشبسوت بالكرنك • وعندما أضفيت عــلى مونتو خصائص شمسية ، وبذلت الجهــود لعمــل مقــابلة أوثق بين أون ــ الشــمال (هليوبوليس) وأون ــ الجنــوب (ارمنت) ، خلقت للاله زوجة يطلق عليها « شمس ــ القطر ــ المزدوج ــ المؤنثة » رعت تاوى التى شبهت بتانِنت • وعند ذاك جاء الاله الابن «حربا رع» الذى صور مولده فى هيكل ميلاد أرمنت، والمتهدم اليوم • وكانت النقوش التى تشرح الصــور تنــوه بالرمز الفلكى لظهور اله الشمس هذا •

وبقيام الأسرة الثانية عشرة اكتسب آمون (شكل ١) أهمية بالغة في المقاطعة · اننا نتساءل : من اين جاءت هذه الاهمية له ، وقد كان الاله المغمور في قريه طيبه الصغيرة في نهاية الدولة القديمة ؟ ونستطيع ان نتبين ذلك مما ورد عنه قديما في نصوص الأهرام · فمما يسترعى النظر انه منذ ذلك العصر البعيد كان اسمه يتبادل ، في صيغة مغايرة ، مع اسم اله فقط « مين » · بل انه في بداية الدولة الوسطى ، يصبح التمييز بين آمون ومين مستحيلا في معبد استراحة (١) سنوسرت الاول بالكرنك ، ومع أن النقوش كانت تستعير في كثير من الأحيان صورة الاله « مين » ، فان اسمه لا يظهر على الاطلاق ويدعى الاله على الدوام آمون أو آمون ــ رع · وتشير هذه التسمية الأخيرة الى حدوث امتزاج منذ نهاية الدولة القديمة · وفي الواقع ، يقرأ المرء على ظهر تمثال صغير من الحجر الصلب ، عثر عليه في الكرنك في آخر القرن الماضى ، أسماء الملك بيبى الأول يتبعها ذكر « المحبوب من آمون ــ رع ، سيد طيبة » · ومن الجائز أن الملك وقد أراد كذلك أن يستحوذ لنفسه على الانتساب لآلهة مصر العليا ، عمد الى تشبيه آمون بأبيه رع· وكان من شأن العملية أن تكون أعظم يسرا بما أن اسم الاله يطابق الأصل المصرى « امن » خفى · وكان هذا « الاله الخفى » يمكن أن يتجلى في كثير من الأشكال ، شكل رع على الأخص أو شكل « مين » ·

وعلى أية حال فاننا نجهل المعنى الأول لاسمه · ولقد قوبل باللفظ البربرى آمان ومعناه ماء (٢) · ويمكن أن يعزز هذا التقريب ارتباط أحد حيوانات آمون المقدسة وهو الكبش ــ على ما يبدو ــ بعبادات الخصوبة في

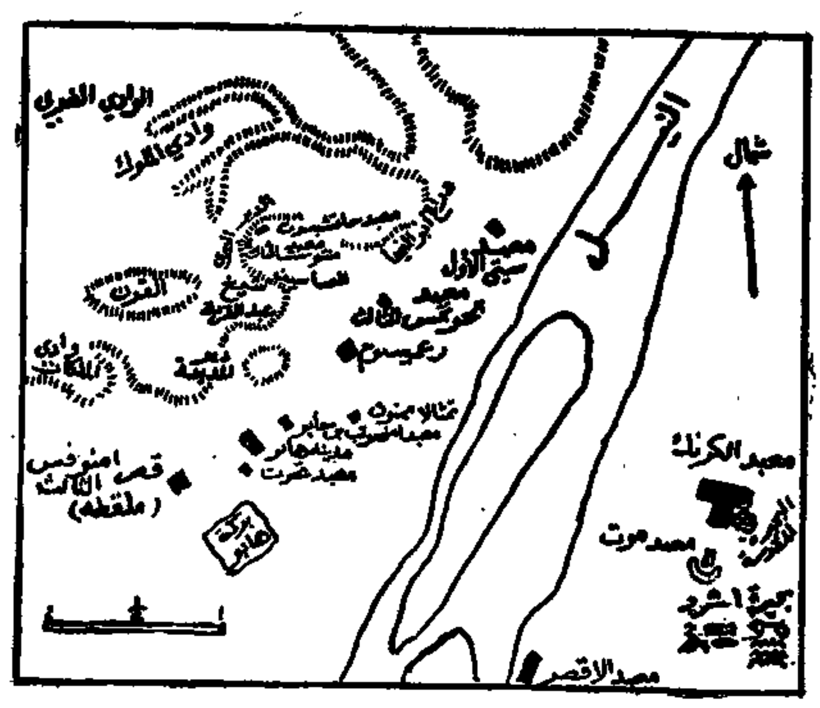
(١) ــ المكان المعد للراحة ، أو هو جوسق يعد في طريق موكب عيد تودع به الأسرار المقدسة ــ (المترجم) ·

(٢) هذا مجرد تشابه صوتى واحيل القارىء الى التعليق الوارد في آخر الكتاب · (المترجم) ·

الصحراء • ومع أنه لا يوجد لدينا الا القليل من المعلومات القديمة عن آمون ، فانه يتجلى بجميع خصائص قدرة الهية تاصلت جدورها تماما في ركن صغير من الارض هو — دون ريب — الكرنك الحالي ، حيث يحتمل ان يكون قد ولد وزير آخر الملوك المسماة منتوحتب • ولقد استولى هذا الوزير الذى يدعى امنميس (امنمحات) على الملك وقام بتأسيس الأسرة الثانية عشرة • وعند ذاك ازدهر حظ امون • وبعد أن أصبح اله الامبراطورية ، لم يتوقف تزايد هيبته • انها حقيقة واقعة أن علماء اللاهوت في طيبة قد كشفوا عن قدرة رائعة في وضع النظريات • لقد أمكنهم أن يستغلوا تماما الخاصية التي يهيؤها اسمه : « الخفى » • وتعرفوا هويته في أعظم الآلهة قدرة في جماعة الآلهة المصرية ؛ وأفادوا من أفكار هرموبوليس عن خلق العالم وبما أن واحدا من أعضاء الآلهة الثمانية Ogdoade في هرموبوليس كان يحمل نفس اسمه فقد جعلوا منه الها أزليا •

ومع هذا ، لم يمنعه ذلك من أن يرتبط — على غرار جميع الآلهة المحلية — بجيرانه ليكون معهما ثالوثا • وقد كانت هناك الهة كان حيوانها المقدس العقاب وهي موت (شكل ١٥) ، ولعلها « الأم » النموذجية ، كانت تقيم في مكان قريب جدا ، تحيط به من ثلاث جهات بحيرة لها شكل شبه دائري وتسمى أشيرو Achérou (١) • وقد عدت موت قرينته ونسب لهما ابن هو خنسو (شكل ١٣) الذى كانت شخصيته مزدوجة ، على الأقل في العصر المتأخر : « خنسو — في طيبة — نفرحتب » و « خنسو — الذى — يحكم — في — طيبة » •

(١) اما لفظ اشرو الذى جاء في النصوص المصرية فهو اسم البحيرة التي كانت تقع الى الجنوب من معبد آمون بالكرنك واطلق على الحي الذى أقيم بالقرب من تلك البحيرة والذى كان يحوى معبد موت — (المترجم) •



منطقة طيبة (H. Kees an Eg.)

ولقد تعددت آمكنـة عبـادة آمون في المنطقة . وفي الأقصر كان للاله « حرم ــ الجنوب » وهو اسم معبد الأقصر الذىأعيد بناؤه في شكل رائع، في عهد امنوفيس(امنحوتب) الثالث . وعلى الشاطىء الأيسر ، كانت تقدم له العبـادة في المدرج الذى اتخذه كل من منتوحتب وحتشبسـوت بعده موضعا لمعبديهما الجنازيين . كما أقام له كل من الملكة ثم الملك تحوتمس الثالث ، جوسقا مقدسا بلغ الغـاية في الـروعة المعمارية ، وفي مدينة هابو ، وفي الأسرة العشرين ، عرفت هيـاكل لآمون تحمل أوصافا متنوعة : آمون ــ با ــ خنتي وآمون ــ تا ــ شنيت وآمون بوكنن . ويدور في ذهن المرء انه تجاه هياكل مختلفة على غرار هياكل السـيدة العـذراء « نوتردام » التي توجد لدينا ! ومرة أخرى لنقتصر هنا على منطقة طيبة ، بما أن عبادة اله الحاضرة تشعبت في جميع أرجاء القطر .

سنعود لنتحدث في اطناب ، عن آمون اله الامبراطورية عن علم لاهوته المعروف لنا معرفة جيدة من وثائق عديدة . وتوجد ، فضلا عن هذا ، مشكلات عامة جدا تتصل بالديانة المصرية . ويكفى أن نوضح ، في هذه الاونة ، أن هذا الاله الذى قدر له أعظم مصير ، تتعمق أصوله تماما ، كالكثير من الآلهة غيره ، فى التربة المحلية التى استمد منها المجد ملوك حملوا اسمه وعبقرية علماء لاهوت أوتوا القدرة على تعميق طبيعته .

ولكن طيبة كانت زاخرة أيضا بكثير من الآلهة غيره . ومنهم حاتحور (شكل ٨) وأنوبيس (شكل ٣) اللذان عبدا فى مدرج الدير البحرى ، وأوكل اليهما الجبانة . وكانت حاتحور تتقبل عبادة على مسافة أبعد الى الجنوب فى « موطن الحق » ، أى دير المدينة الحالى حيث كان يعيش ، فى عزلة ، عمال الجبانة الملكية . وكان الجبل يرتفع فوق وادى الملوك ، بما يدعو للدهشة ، وهو يتخذ شكل هرم . وكانت تقيم به الهة يطلق عليها أحيانا « القمة » وأحيانا أخرى « سجر » (تلك التى تحب السكون) وهو اسم أجيد اختياره ، بصفة خاصة ، ليطلق على الهة موتى . وكانت لها أيضا مغارة تقدم لها فيها القرابين وتقع فى منتصف الطريق بين دير المدينة ووادى الملكات . وكان خنوم ومعبودات الشلال تستحوذ كذلك على معبد الشاطىء الغربى ، فى الأسرة التاسعة عشرة .

واذا أضفنا الى هذا أنه كان يوجد ، داخل فناء معبد آمون فى الكرنك ، ذاته ، معبد لبتاح ، ومعبد لأوزيريس صوب الباب الشرقى ، كما أقيم فى عهد متأخر على مقربة من الباب الجنوبى معبد فيه أنجبت الالهة أوبت ــ نوت أوزيريس ، وقد تجمعت لدينا معلومات فى تلك المنطقة ندرك منها الى أى مدى كانت العبادات المحلية وفيرة ومتباينة فى مصر .

والى الشمال من طيبة ، في قفط ، كان يسود اله غريب : وكان يصور مرتديا ثوبا شديد الالتصاق بجسده ، رافعا بيده اليمنى التى كان يدعها تمر فوق كتفه سوطا دون أن يقبض عليه حقيقة • وكان عضوه « منتصبا » وفي معظم الاحيان تتخذ بشرته اللون الأسود وهو ما يمثل رمز الخصوبة أكثر مما يمثل اللون الحقيقي للشخص • وقد ساد « مين » في الواقع في كل الوادى الصحراوى الذى يطلق عليه « وادى الحمامات » وكثيرا ما ربطت النصوص بينه وبين اقليم الجنوب • والى الخلف من صورته يوجد في الكثير الغالب، كوخ القش الذى كان يستخدم في الاصل معبدا له• ولأجله يزحف الزنوج وقد غرسوا ريشة في شعرهم ، في اتجاه سارية اقيمت • وكذلك ذهب الظن الى انه يرجع الى اصل أجنبي، افريقي دون ريب• وليس مستحيلا أن يكون قد جاء عن طريق قفط ، لانها منتهى طريق البحر الأحمر ، عند النيل • ولكن يبدو أن أصل « مين » يرجع الى أخميم التى تقع على مسافة ابعد الى الشمال • ولقد طابق الاغريق بينه وبين الههم «بان» • وكان يقدم له خس مصر عظيم الحجم الذى يعد مصدرا للقوة الجنسية • ولقد استعار منه جاره آمون صورته وشخصيته أيضا • وقد ارتفع « مين » ـ في مقابل ذلك ـ الى مرتبة الاله الأزلي والخالق ، مما كان يتلاءم مع الرمز الانهى للخصب • وقد عدت ايزيس زوجة له كما عد حورس ابنا له • وكانا يظهران أحيانا معه في النقوش العديدة التى تركتها في جميع العصور ، البعثات التى كانت تذهب الى وادى الحمامات بحثا عن حجر « بخن » (١) •

وفي مدينة قوص الحالية ، التى تتبع نفس المقاطعة ، ولكنها أقل أهمية ، كان يعبد حورس والهة تدعى حكت • ومع هذا فقد كانت العبادة العظيمة الأخرى المجاورة ، عبادة ست (شكل ٢٨) • وكان الاغريق يطلقون اسم

---

(١) الشست •

« أصقاع تيفون » علـى اقليم نبت أو أمبس الذى ولد فيه ست والذى يقع بالقرب من كوم بلال الحالى • ولقدكانفى العصور البعيدة الها كغيره من الآلهة على الرغم من معاركه التى خاضها ضد حورس وكان كذلك يقوم بدور فىالأساطين الشمسية وفى حماية الملك • ثم شبه بالشر عينـه وأخـذ ينحى جانبا مع تزايد أهمية عبادة أوزيريس الى حد أننـا لا نعرفه معرفة جيدة •



٢٨ ــ ست   ٢٩ ــ صوكاريس   ٣٠ ــ تحوت

(الأشكال ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠)

ويقص جوفنال Juvenal (١) أن فى زمنه تقاتل أهل أمبس مع أهل دندرة ، جيرانهم فى الشمال ، وأنهوا صراعهم بالتهام لحوم البشر • ألم ينسب أعداء أشـياع سـت اليهم جرائم شنيعة جمعها اللاتينى الساخر دون نقد واف ؟

★★★

وبمواصلة الابحار هبوطا فى النهر ، نصـل الى دندرة تنتورس Tentyris القـديمة • وهـذا تعبير مصرى معنـاه « المنتمى للالهة » • وقد كانت تلحق هذه الصفة فى الواقع باسم المدينـة ، وهـو أون ، لتمييزها عن المدينتين اللتين تحملان نفس الاسم ، هليوبوليس وهرمونثس • ولقد كانت حاضرة مقاطعة ، ظل اسمها يكتب خلال زمن طويل ، برمز

---

(١) Juvenal : شـاعر ساخر لاتينى ولد فى اكوينم حوالى عام ٤٢ م • وتوفى حوالى عام ١٢٥ • وقد وجه سخريته الملبئة قوة وزراية ضـد مساوىء روما • وقصيدته الخامسة عشرة عن مصر وفيها يعدد صنوف الآلهة من حيوان ونبات بروح مجانة عظيمة ــ (المترجم) •

تمساح يحمل ريشة وكانت هذه وسيلة للدلالة على أنها كانت مقدسة • وكان يقرأ «يك» أو شيء يقرب من هذا وقد عرفت أمثلة نادرة لاله تمساح تطلق عليه تسمية كهذه في أماكن أخرى ، ولشمار مقاطعة دندرة ولاسمها أيضا تاريخ شديد الغرابة يبين الى أى حد كان يمكن أن تختلط فيه المنازعات اللاهوتية والتنظيم الادارى فى مصر القديمة • فان سبك الذى كان جزءاً من تاسوع أمون فى الكرنك ، قد ظهر بهذه الصفة فى دندرة حتى عهد الأسرات الوطنية الأخيرة بينما تقص احدى العجالات التى يحتمل أن تكون قد كتبت بعد ذلك أن سبك هو ست فى دندرة وهذا يعنى أنه كان يطارد بلا شفقة فى مقاطعة أوزيرية ، ومع هذا فانه لم يحدث الا فى عهد البطالمة أن هشمت صورته التى كانت نادرة واستبدلت بها صور آلهة أخرى • ولقد وصل الأمر الى اعادة تسمية المقاطعة « آتدى » الذى استعير من اسم المعبد الذى ولدت فيه ايزيس. فى اليوم الرابع من أيام النسىء ويوجد ذلك المقدس الذى اشار اليه استرابون ، الى الجنوب تماما من معبد حاتحور •

كانت حاتحور ، فى الواقت ، (شكل ٨) الهة دندرة فى كل العصور القديمة • ونحن نعلم أنها كانت تعبد فيها منذ الدولة القديمة ولقد خصص لها الملك ببى الاول آثارا تذكارية عديدة : منها تمثال صغير لها من الحجر الجيرى الصلب كان يمثله بكساء عيد « سد » ، وتمثال آخر أثمن كثيرا منه ، لأنه من الذهب يصوره راكعا وهو يتهيأ لتقديم صورة ابنه الموسيقى « احى » للالهة • لقد كانت معبودة قديمة جدا يجدها المرء فى عهد ما قبل التاريخ ويرد ذكرها فى نصوص الأهرام• وكانت قد غدت توصف بعبارة « تلك التى تنتمى لدندرة » ويحاول الملك المتوفى أن يصل الى المنطقة السماوية التى تقطن بها • أولم يكن اسمها يعنى « مسكن ـ حورس » الصقر الذى يحوم فى أبعد مناطق السموات ؟ لقد كانت أيضا بقرة السماء ، المعبودة الكونية

العظيمة ، التي تلد الشمس • وعلى الرغم من غموض الأسطورة • لانه لا يوجد لدينا أى قصة متصلة لها ، فقد سمحت للشمس أن تطلع، في ظروف أخرى، من بين قرنيها • وقد اعيرت هذه القصة بعد ذلك الى نايت او الى البقرة « مثير » ، الفيض العظيم ، وهو خلق لاهوتي خالص • وتشهد هذه الدلائل القليلة على أنه ، منذ أقدم الوثائق الدينية ، وجد عمل لاهوتي كان قد وصل الى تقدم عظيم • وهو ما يدعونا الى الحذر فى آن نتصور اكتشاف علامة عصور أكثر حداثة حين نلتقي ببعض الدقائق أو التعقيدات اللاهوتية • بل ان الكثير من خصال الآلهة ، التى تحددها لنا، في دقة ، نقوش المعبد الاغريقي ـ الرومانى ، ترجع الى أقدم العصور •

فقد شبهها كتاب النواويس بالالهات الأجنبيات : أليست « سيدة بيلوس » ، تلك الالهة « بعلات » السامية كتلك التى تسكن سرابيط الخادم ، على مقربة من مناجم الفيروز في شبه جزيرة سيناء و « سيدة بونت » على ساحل الصومال القصي ؟ وفضلا عن هذا ، فقد كانت على الدوام المعبودة الكونية العظيمة المرتبطة برع • ان الأسباب التى تربطها بالشمس كانت موضوع أسطورة أتاحت لنا المعابد التى أقيمت فى العهد المتأخر الى جانب نص أدبى جميل مكتوب بالديموطيقية أن نعيد تشكيلها • كان رع مازال يعيش على الآرض ويتولى بنفسه حكم البشرية • ولكن ابنته حاتحور ــ تفنوت لم تكن تقيم الى جواره فى مصر • بل كانت تقطن صحارى النوبة الشرقية فى صورة لبؤة متوحشة ومخيفة تقذف عيناها النار وتلتهم لحم أعدائها ودمهم • ويرغب «رع» في أن يحضرها اليه ، وذلك دون ريب لأنها ابنته ولأنه يحبها وكذلك ليجعلها حامية له وقد كان عليما بقدرتها • ويعهد بمهمة حملها على العودة الى الالهين « شو وتحوت » • وكان أولهما ، بصفة خاصة ، مخلصا لرع وكان يحب أخته تفنوت التى كان يجب أن تصبح زوجته •

وكان تحوت سيد كل سحر وكل كلمة مؤثرة ، قادرا على تهدئة غضب الالهة واستئناسها • ولقد أخذ الاثنان سبيلهما الى قطر بوجم (١) البعيد حيث تقيم وتحولا الى قردين للوصول اليه • وكان أحد مواضيع حديثهما الكمال الذى بلغته مصر ، بلد رغ والنيل الذي يجتازها والحقول المزروعة يانعة الخضرة والقرى والمدائن التي تجعل منها بلدا منظما • واذا قدمت اليها ، فستشيد لها المعابد وستقدم لها كل يوم الغزلان والتياتل والتيوس التي تعودت عليها • وسيضاف اليها النبيذ الذى يجلب النشوة ويطرد وساوس القلب • ولن تنقطع الموسيقا والأناشيد وأنواع الرقص في ساحات أبوابها • ويرفق تحوت الحركة بالقول ويقدم لها اناء النبيذ للمرة الأولى ويضيف اليه الصيغ السحرية •

ولم يكن في أستطاعة الالهة مقاومة مغريات الرسولين الالهيين ، المتضافرة • ويتألف موكب بهيج : من قرود وأقزام غريبة مضحكة ، ويصحبه بس وجيتى وهما يعزفان على القيثارة والعود •• ويصير شو نفسه موسيقيا ولا يكف تحوت عن أن يصف في ألفاظ ساحرة « البلد ــ المحبوبة » التي يتجهون اليها • وفى البداية يصلون الى فيلة حيث تقوم باستقبال الالهة التى عادت راضية ، سيدات توجن رءوسهن بالأزهار وآخذن يحتفلن بمقدمها على صوت المصلصلات والطبول وهن يغنين ويرقصن ، وقد انضم اليهن كهنة يعزفون القيثارة ويحملون على ظهورهم غزلانا ويقدمون أوانى النبيذ وباقات الأزهار والمر وتيجان الورد • وتصبح اللبؤة المتوحشة حقا وقد طهرها الماء المقدس الهة الحب : محيا

---

(١) قطر بوجم أو بوكم ــ اختلف علماء الآثار في موقعه فذكر احدهم (بروجش) أنه يوجد الى الشرق من مدينة الكاب ، بين النيل والبحر الأحمر ويقرر يونكر انه فى جهة أبعد كثيرا الى الجنوب اما سكابرلى Schiaparelli فيقول انه يوجد في السودان ، إقليم بونت • ويضيف (جوتيه) الى هذا انه يذكر مرارا عديدة مرتبطا مع بونت وبلاد الالهة (بلاد العرب) ــ (المترجم) •

جميل ، شعر تنتظمه عقائص عظيمة وعينان تلمعان وصدر نافر ٠

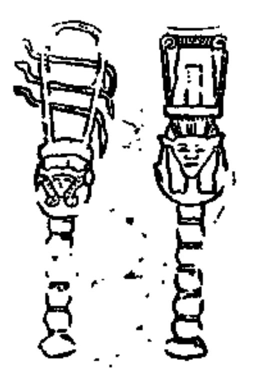
ثم تستمر الرحلة وتستقبلها أذرع مبسوطة فى كوم امبو وادفو واسنا وعلى الاخص في دندرة ، مدينتها : وهى « مقر القلب » و « أمكنة تفنوت » و « الموضع الذى تحبه تمنوت » الذى قال عنه تحوت : « ان البهجة تسوده وفيه يقدم لها النبيذ ، دون انقطاع ، قبل اية الهة أخرى ٠ ولقد تبتها رع في جبينه مثل الحية يوراييس (١) لتدافع عنه ٠ وقد غدت آلهة الحب ، مع احتفاظها الدائم بالجانب العنيف في شخصيتها وهو الذى جعل منها اللبؤة المتعطشة للدم ٠ انها تمثل « باستت » الوادعة تماما ولكنها فى لحظة يمكن آن تتحول الى « سخمت » الرهيبة التى يتبعها ركب الكوارث ٠ وقد عبرت الأسطورة عن طبيعة الحب المزدوجة ، الخالقة والمدمرة على التناوب بطريقة رائعة فى هذه المظاهر التكميلية للالهة التى تحاول الأسطورة شرحها ٠ ولقد امتدت عبادتها الى كل المدائن التى استقبلتها فى مثل تلك البهجة والتى كانت تقيم الاحتفال بعيد « لقد أعيدت » ٠

ثم أصبحت الهة الحب ، الى حد جعل الاغريق يطلقون عليها افروديت ٠ وهو الاسم الذى يشار اليها به فى النقش الاغريقى المحفور على دائرة الكورنيش في واجهة معبدها العظيم ٠ ألم تكن « الجميلة » و « سيدة الحب والبهجة ؟ » وقد أطلق عليها فى نوع من الأوراد ، سيدة الموسيقا ، سيدة أغنية الجوقة ، سيدة المديح ، سيدة الفرح (دور) سيدة رقص الباليه وسيدة الطرب ٠ ومعلمة الرقص ٠ وقد كانت أيضا سيدة النشوة التى يثمل المرء من آجلها ، ومن الجلى آن هذه كانت وسيلة للاتصال بها ، وبالاضافة الى ذلك كان يحتفل لأجلها بعيد النشوة المهيب ، طوال خمسة أيام فى شهر توت أول شهور السنة المصرية ٠

(١) الصيغة اليونانية للفظ icyt الذى يقابل عرتن فى اللغة العربية وهى حية عظيمة ، تأكل الحيات كما جاء فى المراجع العربية ـ (المترجم) ٠

وكان أحد الأشياء الاساسية المقدسة التى تصاحبها دون انقطاع فى دندرة آنية النبيذ ولكن كان يوجد أيضا التاج والساعة المائية والمصلصلتان (شكل ٣١ و ٣٢) ، وآوانى اللبن ورمز معقد كان يعبر عن قدرة الالهة الكونية، وهيكل الميلاد والصرح ، وأخيرا العقد « منات » الذى كان يرمز كذلك للحياة • وكانت تتمثل ، فضلا عن هذا ، فى « منات » والمصلصلات وكانت هى التى تستقبل الكهنة وتقوم باعدادهم للبهجة الضرورية للدنو منها فى الأعمدة المصلصلة، فى بهو الأعمدة • وكانت تمثل فى قمتها رأس حاتحور عينها •

ومن الشعر المستعار الثقيل ، كانت تبرز آذنا بقرة ، ذكرى الشكل الحيوانى الذى كانت تضفيه عليها الأسطورة القديمة • وفوق الوجه المتألق كانت تستوى المصلصلة « سشات » (شكل ٣٢) التى كانت تبعد الحزن والألم بأقل حفيف • ومن هذه الآلة التى كان يمكن أن تكون الالهة عينها ، توجد نماذج قديمة جدا •



شكل ٣١ و ٣٢ ـ المصلصلة ـ سخم والمصلصلة سشات فى دندرة

ولكن بما أن آفروديت الاغريقية كان يمكن أن تكون أيضا الهة كونية ذات جاذبية شاملة والهة خالقة ، فان حاتحور حافظت من البقرة السماوية ، التى كانت فى البدايات الأولى ، على قدرتها الأزلية • لقد كانت خالقة ،

ليس فقط لأنها كانت تجعل النبات ينمو، بدلا عن ارمونس، آلهة الحصاد ، ولكن لأنهم جعلوا منها بسبب اسم « الام » (تمت) الشطر الانثوى المقابل لأتوم (تم) ، الخالق • ولأن جوفها يحوى مكان الحمل الأبدى لشمس الليل التى كانت تعود وتولد ، صغيرة وجديدة ، كل صباح • لقد كانت فريدة • وقامت بخلق كل الكائنات وعلى الأخص الآلهة والبشر ، ولهذا لا يدهش المرء عندما يجدها الهة — شمسية معادلة أنثوية لرع •

وهى تشبه ايزيس ، التى تسود معها فى دندرة ، حتى انها فى أكثر من نقش تستعير من ايزيس عبارة كان من العادة ان تجىء فى النصوص خاصة بزوجة اوزيريس : لقد جاءت للوجود فى « اتدى » فى نهار ليلة « الطفل فى مهده » وكان لها كايزيس عديد من الأسماء • وكذلك ، أعطيت لها فى الأعتاب العليا لبهو الأعمدة فى معبد ادفو ، السيادة على ثلاثمائة وستين بلدة فى مصر • ومنذ عهد الامبراطورية الحديثة ، أدمج الاعتقاد الشعبى بسبع الهات حاتحور سبع جنيات فاعلات خير ، كان يظن انها تحدد مصير الأطفال عند مولدهم • ولقد عينت لها مدائن فى مصر عرفت بالعبادة التى كانت تقدمها للآلهة ، ولكن فى داخل هياكل الميلاد ، حيث يجدها المرء مرارا عديدة ، لا تتطابق القوائم مما يدعو الى الظن بأنها آراء جاءت فى حقبة متأخرة • ويشهد انتشار هذه العبادة على ما كانت تستحوذ عليه « ذهب الآلهة » من تقدير • وعندما نجدها فى « القوصية » أو فى « هيراكليوبوليس » • فاننا لا نجد لاهوتها ، كما أن الخصائص المحلية التى تتصل بعبادتها تظل فى معظم الأحيان غير معروفة لنا •

لقد كون لها فى دندرة منذ القدم ثالوث مع حورس بوصفه زوجا و « احى » بوصفه ابنا • وكان لحورس معبد صغير بالقرب من معبد الهة المكان • وقد خصص «لاحى» بناء

ذو أبهاد أعظم فى أقصى الطرف الشرقى للمدينة القديمة . ولم يتبق منه الا باب خارجى هائل الحجم . وفى « خادث » وفى الجانب الآخر من النيل ، كان يعبد حورس ــ جامع شمل ــ القطر المزدوج ، جرسماتوى الذى كان يقوم ببهور عظيم فى دندرة والذى كانت تقوم حاتحور أحيانا . بزيارته .

* * *

واذا كنا قد تحدثنا الآن فى ايجاز حتى هرموبولس ، فليس مرجع هذا الى آن عبادات أو ديانات مقاطعات مصر العليا من المقاطعة السابعة الى المقاطعة الخامسة عشرة أقل تشويقا . بل ان السبب الوحيد لذلك هو فقر وثائقنا باستثناء الاله «مين» الذى صادفناه فى قفط ، و «أوزيريس» الذى نحتفظ به للدلتا .

وبالقرب من مدينة « هو » التى كان يطلق عليها قديما ديوسبولس بارفا ، كانت تعبد فى باطيو الالهة باط التى كان يرمز اليها في العصور البدائية برأس آدمي تبرز منه أذنا بقرة يعلوهما قرنان يلتوى طرفاهما للداخل (شكل ٣٣) . ولما كانت شخصية باط قد طغت عليها شخصية جارتها القوية حاتحور فقد حول هذا الرمز ، فى الدولة الوسطى ، الى المصلصلة سشات (شكل ٣٢) . ومن المؤكد أن الها باسم سبك كان يعبد أيضا فى نفس المكان . ولكن ليس من المعروف أنه كانت توجد أية رابطة بينه وبين الالهة .

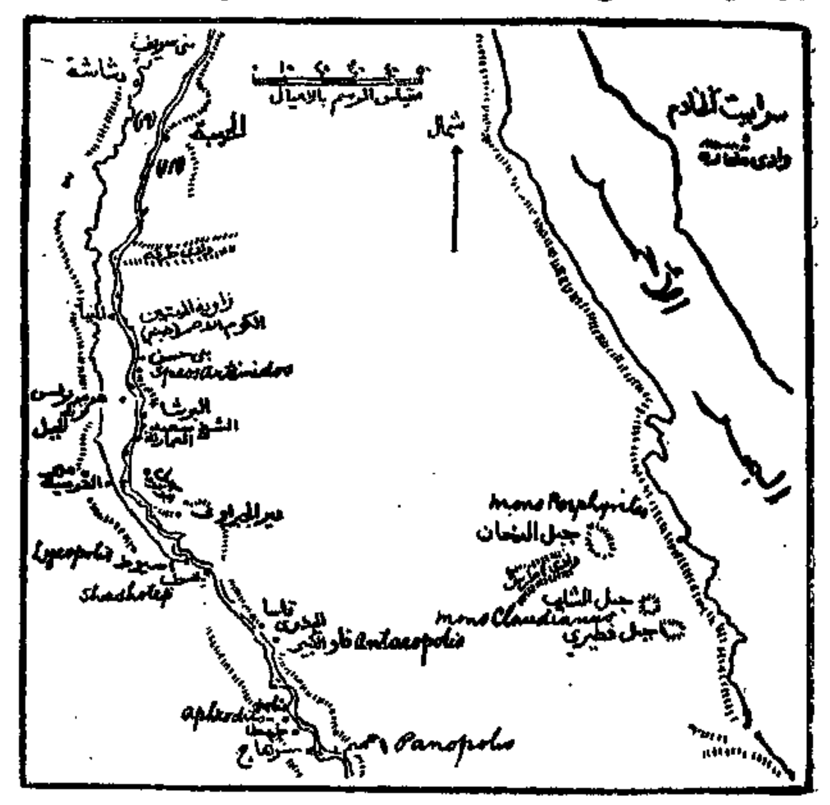


شكل ٣٣ ــ رمز الالهة باط

وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، اجتذبت مدينة ابيدوس اليها شيئا فشيئا كل انتباه . ومع هذا ، فان اهم دور كان يلعب في القدم هو الذى كانت تلعبه مدينة « ثيس » (طينة) التي أعطت اسمها الى اول أسرتين مصريتين . وكان الاله الذى يعبد فيها « أنورس » (شكل ٢٠) الذى يضع على رأسه ريشا ويحمل الرمح . وقد أتاح اسمه للمصريين الذى فسروه بأنه : « ذاك ـ الذى ـ يحضر ـ من تكون ـ بعيدة » بأن يلحقوه بأسطورة عين حورس ، التي انتزعت من صاحبها والتي دعت الحال الى البحث عنها . كما أنهم شبهوه تشبيها آخر ارتفع به الى مرتبة الآلهة التي اشتركت في البحث عن عين رع ، وهى الالهة القصية « حاتحور ـ تفنوت » . ولم يكن انورس حينذاك الا أحد أشكال « شـو » . ولكن هذه التطورات التي ترجع الى زمن متأخر ، على نحو ما ، لا يجب أن تلقى في مدرجة النسيان الاله القديم الذى كان له شأن عظيم في الدولتين القديمة والوسطى بما أن كثيرا من الناس كانوا يحملون اسمه ، لقد كان محاربا قام بحماية رع من دسائس التنين آبوفيس واتخذ جانب حورس في صراعه مع ست . وفى الأسرة الثامنة عشرة غدا الها كونيـا ، آزليـا وخالقا . واتخذ شريكة له الالهـة « محيت » التي نجـدها تتجسد في لبؤة مما دعا الى تمثيلها « بتفنوت » .

ولكن عندما حل أوزيريس (شـكل ٢١) محـل الاله « خنتي امنتيو » (ذاك الذى ـ يرأس ـ سكان الغرب) الذى يرجع الى زمن سحيق القدم ، كاله جنازى في آبيدوس فان شهرته طغت ، شيئا فشيئا على جميع معبودات المقاطعة ، الأخرى . لقـد كان لكل ملك من ملـوك الأسرتين الأوليين فيما يبدو ، ضريحان : واحد في سقارة والآخر في آبيدوس على سفح المرتفعات الليبية ، في مكان يطلق عليـه اليـوم « أم العقاب » . وكان من المعتقـد منـذ حفائر « اميلينو » Amélineau أن المصريين ظنوا أن قبر الههم أوزيريس يقـع

في ذلك المكان . ولكن يكاد يكون من المؤكد أن القبر ظل الى عهد متأخر جدا قائما فى معبد الاله على حافة الأرض المزروعة . ولقد دأبوا على احضار المومياوات فى رحلة حج الى المدينة المقدسة واقامة أضرحة فيها أو على الأقل أنصاب جنازية ، لوضعها تحت حماية اله كان ييسر المرور صوب العالم الآخر . ومنذ عهد الدولة الوسطى ، فى معبد أوزيريس العظيم كان يحتفل فى كل عام بشعائر الاله المحجوبة . وكان الكهنة يقومون بتنظيم تمثيل حياة وموت وبعث أوزيريس فى نوع من المسرحيات وكان أهم أشخاص الحاشية ، يؤدون ــ بتكليف من الملك ــ الأدوار التى تبلغ أعظم درجة من الأهمية وعلى الأخص دور حورس . ولقد عمد أكثر من فرعون مثل رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى الى تشييد معابد جنازية فى ذلك المكان :



(H. Kees : An. En.) مصر الوسطى والصحراء الشرقية (الشمالية)

بقى أعظمها جمالا ــ حتى اليوم فى حالة من الصون عجيبة، وهو معبد سيتى الأول الذى ألحق به معبد « الاوزيريون » Osirion (١) • وكان المعبد الكبير يشتمل على سبعة مقادس ، خصصت للملك نفسه ثم لبتاح (شكل ٢٣) وحوراختى (شكل ٦) وآمون (شكل ١) وأوزيرس وايزيس وحورس •

ولما كان الموطن الأصلى لأوزيريس وايزيس ، على وجه اليقين ، هو الدلتا ، فاننا سنعود اليهما فى المدينتين اللتين تمثلان موطنهما الأصلى •

وفى أخميم الحالية التى كان الاغريق يطلقون عليها « بانوبولس » (٢) ، كان الاله « مين » يسود منذ أبعد العصور القديمة • وانا لنجد هنا نفس الخصائص التى تميزه فى قفط • ولكن الاغريق جعلوه أيضا معادلا لالههم « برسى » Persée أولا لسبب تشابه لفظى بين اسمه ونعت « الساهر » (فورسيوس) الذى كان المصريون يصفونه به ، ثم دون شك بسبب المصدر الشرقى لأسطورة « برسى » ـــ واندروميد Andromède (٣) اللذين يمثلان، كما يبدو، بعل وعشتار • وكانت « عبرت ــ ازيس » Aperet-Isis قرينة لاله الخصب •

---

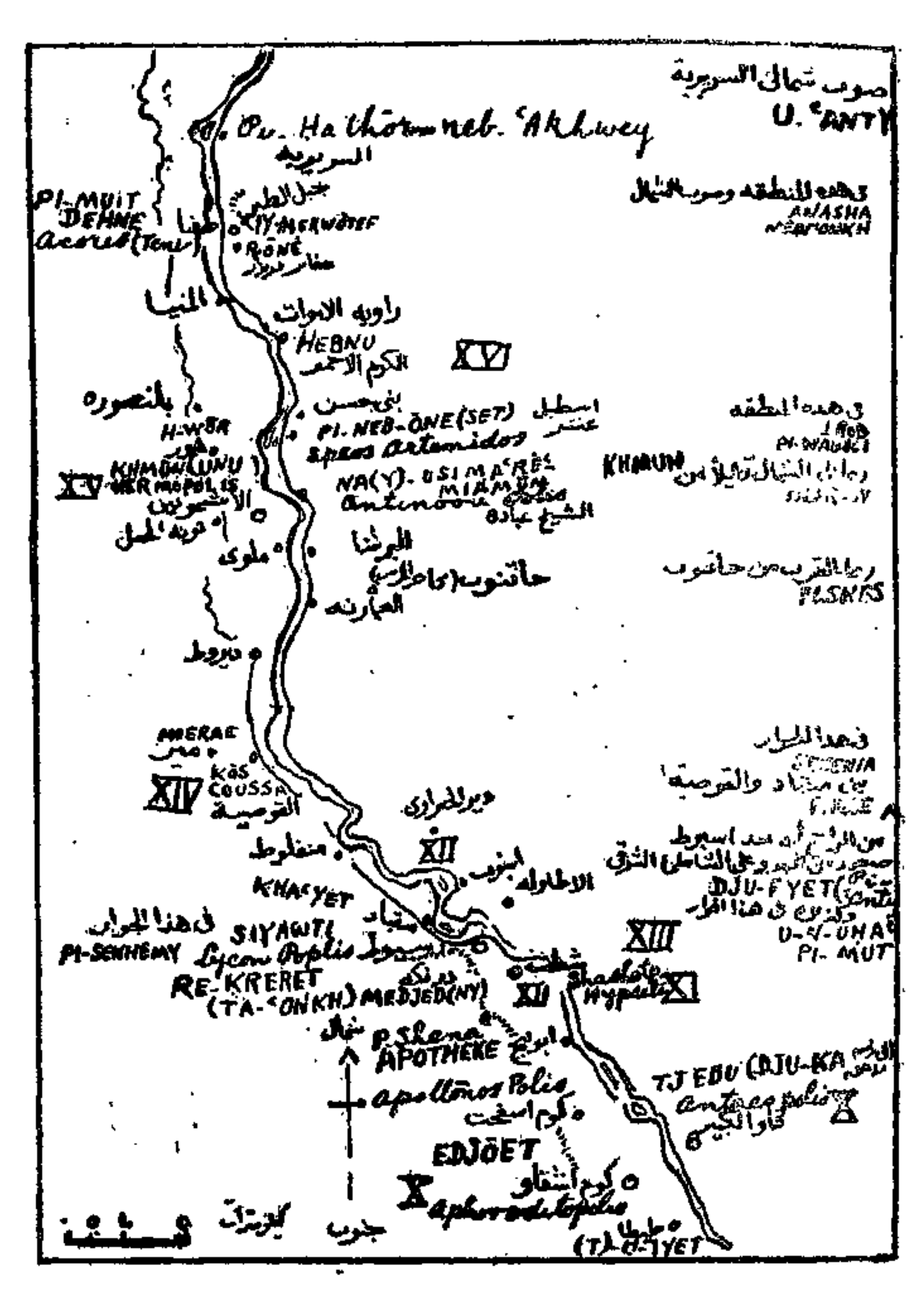
(١) يقع قبر اوزيرس (الأوزيريون) على بعد ثمانية أمتار الى الغرب من الحائط الخلفى للمعبد العظيم وعلى محوره على التقريب • وقد كشف عنه عام ١٩٠٣ •

وكان فى الواقع معبدا جنازيا رمزيا لسيتى الاول اقامة سيتى وانجزه مرنبتاح ونقشت فيه نصوص جنازية من كتاب الموتى • وكانت تؤدى فيه ـ فى مياه حوض تحت سطح الأرض ـ الشعائر الخفية التى تمثل مسيرة أوزيريس مع الشمس فى العالم السفلى ليلا •
(المترجم) •

(٢) أى مدينة الاله بان المعادل لمين •

(٣) اسطورة برسى واندروميد •

قيل فى الاساطير أن الآلهة ارسلت برسى Persée لقطع رأس الميدوزة Méduse شر الاخوات الثلاث جورجون Gorgone اللواتى خربن العقول والقين الرعب فى الناس • وجاء فى اسطورة أن قيامه بالمهمة كان اعترافا بجميل بوليدكت Polydecte ـ



مصورة جغرافية من طهطا الى السريرية ، مع بيان المقاطعات

وكان يطلق عليها ، على وجه عام، اسم طريفس Triphis (١) الذى يدل على تمثال سيدة ذات مكانة ، وكان لها أيضا معبد على الشاطىء الأيسر للنهر لا يبعد كثيرا عن الدير الأبيض ذائع الصيت ٠ وفي عصر الملوك المقدونيين ، الحق بهما الطفل ــ كولنيكس Kolanthès-l'enfant ليتألف من الثلاثة ثالوث ٠

وعلى الشاطىء الأيمن ، تمثل قرية « قاو الكبير » المدينة القديمة تبو (كبو) Tejébou (٢) التى سماها الاغريق انتيوبولس ٠ ولقد دعا تشابه بين اسم المعبودة واسم المارد انتية Antée ، فى الواقع ، الى تماثلهما ٠

= ملك جزيرة سريف Sériphe الذى اواه هو وامه داناى Danae بعد أن ألقى اكريز Acrise ملك ارجوس بهما فى اليم خشية من تحقق نبوءة مهبط الوحى من أن حفيده سيقضى عليه وعلى عرشه ٠ وكان عليه أن يذهب الى أقاصى العالم وتمكن بمعاونة الآلهة وبالحيلة من قطع رأس الميدوزة وقدمها لمينرفا ، التى تحمل صورتها منذ ذلك الحين على ترسها ٠ وبعد هذا النجاح الرائع وصل الى بلاد الشرق يلتمس فترة من الراحة فى مملكة اثيوبيا ٠ وقد أنقذ اندروميد Andromède ابنة ملك وملكة أثيوبيا الجميلة اذ ان نبتون اله البحر كان قد حكم برباطها بسلاسل من حديد فوق صخرة القيمت على امواج صاخبة لكى يذل كبرياءها ــ (المترجم) ٠

(١) كان يعبد فى بانوبولس [مدينة الاله بان (من) ــ اخميم] الالهة طريفس قرينة بان واسمها هو الصيغة الاغريقية للالهة عبرت ــ ازيس ٠ وقيل انه فيما يبدو كان اسمها البدائى عبرت ويجب عدم الخلط بينها وبين ايزيس لانهما ذكرا على حدة فى كثير من المواضع ٠ وغطاء الرأس الذى تتميز به هو قرص الشمس وقرنا بقرة وهو ما يجعل منها صيغة محلية لحاتحور (جوتيه) ٠

(٢) كتب اسمها باللغة المصرية وجاء فى اللغة القبطية TKWOY و TKOOY يقول جاردنر : فى بداية القرن التاسع عشر كانت تمثل قرية قاو الكبير الواقعة على ضفة النيل اليمنى التى تضم معبدا جميلا يرجع الى عهد البطالمة ٠ وقد حملت أحجار المعبد الى مدينة أسيوط لبناء قصر واجتاح النيل القرية وحل محلها على حافة الصحراء قرية العثمانية الحالية ٠ ويؤيد القول أن تيبو وقاو الكبير وانتيوبولس اسماء مترادفة أن الاله عنتوى الذى يقابل Antaeus وجد اسمه على كثير من الآثار التي عثر عليها فى الموقع ولقب فى بعضها بسيد تيبو ٠ وكان يظن أن عنتوى هو احدى صور ست ــ تيفون وفى لوح فى متحف شيكاغو جاءت عبارة ست المظفر سيد تيبو ٠ وعلى هذا تعرف الاغريق عنتوى فى الههم Antaeus الذى تصوروه ماردا ليبيا ذبحه هرقل لمجرد تشابه لفظى ولذا فان وصف عنتوى بست ــ تيفون يبين تشابها بين الاسطورتين : المصرية والاغريقية ــ (المترجم) ٠

وفى تلك المدينة ، كان المصريون يقدمون نوعا من العبادة الى طائرين من الكواسر هما عنتوى Antywey وكانا صغيرين يمثلان حورس وست وقد عقد الصلح بينهما • ولكن يلاحظ أن قرينة الاله الناجم عن هذا الامتزاج كانت نفتس • وعلى هذا فقد كان ست (شكل ٢٨) ، أساسا ، هو اله تبو (كبو) Tjebou الرهيب • ولذا ، لم يكن تشابه انتيه Antée المارد الليبى الذى هزمه هرقل مع ست تشابها لفظيا خالصا • وفى أمكنة ، لا ريب قريبة ، كان يقدم التكريم لسبك وحاتحور •

وكان ست كذلك هو الذى يسود فى « شاس ـ حتب » وهى هوبسلس عند الاغريق وشطب الحالية • ولكن يدور فى خلد المرء أن ذلك الشخص الممقوت كان دون انقطاع هدفا لمطاردات أتباع أوزيريس ، الذين كان يتزايد عددهم فى اطراد واتخذت العدة لوضعه فى الظل واحلال غيره من الآلهة تحت الأضواء وكانوا دون ريب أقل قدما • وهنا ، قدر لخنوم أن يبلغ الذروة شيئا فشيئا •

وفى المنطقة التى تقع جنوبى أسيوط ، كانت توجد حاتحور فى مجد medijed (١) وانتى nty ، أحد مدلولات ست فى بيانتى piânty • وكانت تصاحبه الهة ، لبؤة ، هى ماتت matyt •

ان مدينة أسيوط التى احتفظت بما كان لها من اسم وأهمية فى العصور العتيقة ، كان يطلق عليها الاغريق اسم لوكوبولس • وفى الواقع ، كانت قد اتخذت بدل الذئب ، ابن آوى أو هجينا بين ابن آوى والكلب المستأنس الذى كان يمثل الاله أوفويس (دب واوات) ، فاتح الطرق • ان صورته توجد على الدوام فوق اللافتات الحامية التى تسبق بصفة اجبارية الاله والملك • ولكن علم لاهوته يكاد يكون

(١) درنكة •

غير معروف لنا ، مع أن صورته توجد فى لوح الملك نعرمر ، ذائع الصيت •

وفى القوصية ، على بعد يقرب من خمسين كيلومترا فى اتجاه انحدار النهر كانت تعبد على الدوام كالحال فى دندرة ، الهة باسم حاتحور (شكل٨) ، وكانت معبودة الهية وخالقة • وأحيانا كان يعد زوجا لها الاله « أوخ » Oukh الذى يرجع الى زمن بعيد القدم ، والذى كان يظهر فى أسماء الأعلام التى توجد فى ذلك المكان • وكان رمزه (شكل ٣٤) يتألف من ساق عود من البردى ينهض منه صلان تظهر فوقهما ريشة نعامة ، مزدوجة •



(شكل ٣٤) رمز الاله اوخ

وبهذا نصل الى موطن تحوت ، مدينة الأشمونين عريضة الشهرة ، ومعنى اسمها جماعة الثمانية Ogdoade (١) اشارة الى جماعة الثمانية « آلهة الأوائل الذين تعاونوا مع تحوت فى خلق العالم • وكان الاغريق الذين رأوا فيه الههم هرمز يطلقون عليها اسم هرموبوليس • وقد أضيف اليه وصف «العظمى» ؛ لتمييزها عن المدينة التى تحمل نفس الاسم فى الدلتا • وبما أنها كانت تقع فى منطقة تكون فيها الأرض القابلة للزراعة أعظم اتساعا من أية رقعة أخرى فى الوادى ، فان المدينة كانت عظيمة الثراء والأهمية • ولقد أبرزت الحفائر عناصر معبد يرجع الى عصر الامبراطورية الحديثة •

(١) Ogdoade ترجمة لاسمها فى اللغة المصرية خمن ويقابل فى اللغة العربية ثمانية (٨ =) - (المترجم) •

وفى الجبانة ، بخلاف أطلال معبد آخر يقع في عرض الصحراء ، توجد الدهاليز المسيحه التي كانت تدفن فيها طيور ابي منجل المقدس وحي القبور التي كانت تهيأ للناس • كان يقوم هناك قبر « بت أوزيريس » الذى يمتاز بما يوجد فيه من محاولات للمزج بين الطراز المصرى والطراز الاغريقي ، وكذلك بما بقي فيه من نصوص ذات طابع روحي عميق •

ومع هذا ، فقد ذهب التصور الى ان تحوت (شكل ٣٠) كان فى البداية غريبا عن هرموبوليس ، التي كانت تعبد في القدم الها يدعى حجور Hedjour (١) وكان حيوانه المقدس قردا • ان هذا ليس الا مجرد افتراض • ولقد كانت تعرف الهة قديمة اتخذت أماكنها في الجهات المجاورة وليس بالحرى في هرموبوليس عينها : وعلى الأخص الهة ـ أرنبة او ثعبان هي « أونوت » • ومن الناحية التاريخية ، فقد ساد تحوت في الاشمونين منذ أقدم عهد في طاقتنا أن نرجعه اليه حتى لو أن موطنه الأصلى كان غربى الدلتا • وقد أوقفت عليه كثرة من الحيوانات مثل أبى منجل (ايبس) والقرد • وفى عصر الامبراطورية الحديثة ، كان يطيب للقوم أن يمثلوا الكتاب الملهمين بقرد وضع الى الخلف منهم ، فوق أكتافهم • وكان يبدو أنه على اتصال بالقمر منذ البداية ، وتقدمه احدى صفحات مغامراته الأسطورية وهو يقوم بالبحث عن عين القمر التي توارت ، وقد عثر عليها في مكان بعيد وأحضرها • وفى المظهر الكوني للمعركة التي وقعت بين حورس وست « يملأ » عين حورس التي جرحها اله الشر ويشفيها بلعابه • ان المناظر الفلكية المتأخرة تربطه بوجوه القمر • ولعله يدين بصفته كحاسب للمواقيت لارتباطه بذلك الكوكب فهو الذى يقوم بنقش

---

(١) اسمه حج ور وترجع مصادرنا عنه الى العهدين الصاوى والاغريقى وله شكل القرد ـ (المترجم) •

أعوام الملك ، خلال الأعياد الملكية المهيبة ، على ساق نخلة انتزعت غصونها • وأفضل من هذا ، أنه يكتب على فاكهة شجرة اللبخ (البرساء) (١) المقدسة اسم الملك الذى يجب أن يصبح وفقا لهذا يانع الخضرة الى الأبد • ولقد اخترع الكتابة كذلك • ويذهب الظن الى أنه كان يقرأ قصة حورس وست بما أنه كان الوحيد بين الآلهة الذى يعرف الكتابة • وكان المرء يجد للبحث عنه لقراءة رسالة أو لختم مرسوم للاله رع • انه « كاتب التاسوع الالهى ، ذو الأنامل الماهرة » •

ان تلك المعرفة بالكتابة تضفى عليه قدرات رهيبة • انه ساحر وكان يعتبر فى عهد متأخر أنه وضع صيغا تمنح أولئك الذين يتلونها بصوت مرتفع قدرات خارقة للعادة • ان قصة « ستون خامواس » بأجمعها تدور حول حيازة كتاب، كان تحوت هو الذى كتبه بيده :

« الصيغتان المكتوبتان فيه ، اذا تلوت الأولى ، فانك ستسحر السماء والأرض وعالم الليل والجبال والأمواه • انك ستفهم ما تقوله أطيار السماء والزواحف ، كلها كائنة ما كانت • واذا قرأت الصيغة الثانية ، لو أنك كنت فى القبر ، فانك تستعيد الشكل الذى كان لك على الأرض وكذلك سترى الشمس تطلع فى السماء مع لفيف آلهتها ، والقمر فى الشكل الذى كان له عندما ظهر » (ترجمة ماسبيرو) •

---

(١) اسمه العلمى Memusopa Schimperi H. لبخ ـ فرساء ـ برساء عن معجم الحيوان للدكتور أحمد عيسى •

« قال ابو حنيفة الدينورى : هى شجر عظام مثل الدلب وله ثمر أخضر يشبه التمر حلو جدا الا أنه كريه ، جيد لوجع الأضراس واذا قشر ارعف قاشره » • قال المقريزى عن مصر : وبها اللبخ وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر الا أنه انقطع قبل سنة ٧٠٠ هجرية • وقال Delile ان أبحاث De Sacy تقرر ان اللبخ الذى اطلق اسمه على جملة أشجار اخرى انما هو الهجليج والهالج فى بلاد النوبة وبلاد العرب •

وكذلك يرأس تحوت « بيت الحياة » المركز الذى نعرفه حتى المعرفة فى الامبراطورية الحديثة والذى كانت تصنف فيه وتدرس وتنسخ جميع الأعمال اللازمة للحفاظ على الحياة ومضاعفتها : وهى الطب بالنسبة للرجال ، والعبادة بالنسبة للآلهة ٠ ثم هى بالنسبة لهؤلاء وأولئك صنع التماثيل التى تكون بديلة عن جسومهم وفقا للنسب وللمناهج التى حددها تحوت نفسه ، فى جميع الحقب العتيقة ٠ وكان هو أيضا الذى خلق اللغات التى تعبر بها الشعوب الأخرى عن ذوات نفوسها وفن اجادة الوصف واجادة الكتابة وهو الفن الضرورى للاقناع ، ولهذا كان الكتاب يدعونه بهذه التعابير المؤثرة :

يا تحوت ، ضعنى فى هرموبوليس
مدينتك التى يحلو فيها العيش !

أعطنى ما يلزمنى من الخبز والجعة
واحفظ فمى من الألفاظ

هل يمكن أن يكون تحوت خلفى فى الصباح :
احضرى أيتها الكلمة الالهية
عندما أدخل أمام الاله سيدى
حتى أكون صادق القول (٠٠٠)
انت يا من تجلب الماء الى المكان القاصى ٠
أقدم وأنقذنى أنا الصامت

يا تحوت ، أيها النبع العذب للانسان الذى أصابه العطش فى الصحراء
انه مغلق لذاك الذى يجد ألفاظه
ولكنه مفتوح للصامت
عند حضور الصامت ، يجد النبع (٠٠٠٠)

ان هذا الدعاء الذى أعيد نسخه فى احد كتيبات البلاغة التى ترجع للأسرة التاسعة عشرة ، ينبىء سلفا عن روحانية بت آوزيريس السامية ·

وكان القمر ، البديل الليلى للشمس ، هو الذى حدا الى أن يعد تحوت ملحقا ، على وجه ما ، لرع · لقد رفع الى رتبة الخالق· واذا صدقنا القول، فانه كان فى هرموبوليس، منذ زمن مديد ، لفيف يتألف من ثمانية آلهة ــ ربما كانت مستقلة عن تحوت فى الأصل ــ قام فى مولد العالم بدور جوهرى · وبما آن تحوت لم يكن يظهر فيه الا قليلا ، فقد ظن آن هذه الآلهة كانت سابقة له · لقد كانت ، فضلا عن هذا ، شخصيات لاهوتية ولم تكن آلهة محلية بتاتا ، وكانت تجمعها ثنائيــة من ذكر وأنثى · وكان يطلق عليهما نون ونونت ، المحيط الأول ، وحح وححت، الفراغ الذى لا نهاية له ، وككو وككت ، الظلمات وآمون وامونت الذى لا يمكن تعريفه · ولقد كانت تصور برءوس ضفادع وثعابين تثير ذكرى الحياة الصاخبة ولم تفرق تماما عن المستنقعات حيث تبدأ الأرض فى الظهور · وقد آوجدت الشمس دون أصل ظاهر وآعدت لها التل الأزلى لتستوى عليه ، لقد نسبوا مولدها الى زهرة لوتس (١) بدائية كانت جماعة الثمانية قد آخصبتها ، ولكننا نجد أحيانا أنها قد خلقت بيضة خرجت ، منها الشمس · وان تراكب الأسطورتين هنا ملىء بالايحاء ويبين تماما كيف آن المفكرين ، فى نهاية تطور طويل ، وضعوا الحقيقة وراء الصور التى كانت تسمح ، دون سواها ، برؤيتها ·

ولما كانت هذهالنظريات عميقة الجذور فى هرموبوليس، فقد وجدت توضيحا لها فى آماكن اقليمهــا المقدسة ، حيث

(١) اسمه العلمى Nymphaea Caerules Savigny للنوع الازرق Nymphaea Lotus Hook. للنوع الابيض ـ ويطلق عليه ـ العروس ـ ـ اللوتس ـ البشنين ـ الجلجلان المصرى النوفر ·

يوجد « غدير السكين » و « جزيرة اللهب » و « التل الأزلي ». و « البيضة المقدسة » المدفونة بالقرب من « الغدير العظيم » الذى عمل على أن يعزل من جديد « بت أوزيريس » بعد الاضطرابات التي حدث في خلالها تدنيس ذلك المكان المقدس • وقد جعل علماء اللاهوت من تحوت ــ لكى يتاح له التدخل ــ جزءا لا يتجزأ من الآلهة العظام الخالقة ، التي لم يكن لفيف الآلهة الثمانية الا مظهرا لها •• من أجل ذلك ، اطلقوا عليه في العصر الروماني طائفة من الصور التي لا يمكن التوفيق بينها فقالوا انه : قلب رع ولسان تاتنن وحنجرة ذاك الذى اسمه سر خفى • وهذا يعنى أنه تصور العالم كما تصوره رع واستدعاه للوجود بالكلمة ، كما استدعاه بتاح ، وبالنظام المحدد، كآمون • وقد أخذ يتعاون ــ بوصفه الحاسب الدقيق ذا الكلمة النافذة والذكاء الدقيق ــ مع ماعت لجعل العالم يؤدى مهمته في دقة مع الحفاظ على العلاقات التي تقوم بين الأشياء • وعلى هذا ، فقد كانت تتوقف عليه القوانين والعدالة والملك والضرائب وكذلك سير العالم مكان الآلهة المحدد داخل الكون المنتظم ، ولقد قدم وزير لامنوفيس (امن حتب) الثالث في ذروة عهد الامبراطورية الدعاء له في هذه العبارات :

التحية لك ،
سيد الألفاظ الالهية ،
يا من ترأس الشعائر المحجوبة
وتستقر في السماء وعلى الأرض •
الاله العظيم منذ الأزل
ذو الأصالة ،
مخترع اللفظ والكتابة ،
يا من تعمل على تزايد الدور

وتؤسس المساكن ،
يا من تحيط الآلهة علما بدورها ،
وكل فن بقواعده
والأقطار بحدودها
وكذلك الحقول •

كان تحوت يوازى عند الاغريق الههم « هرمز » ، وقد ترجموا له وصفا مصريا يعنى « على الدوام عظيم جدا » وسموه تريسمجستر « ثلاث مرات عظيم جدا » • ولقد وصلت الينا باسمه مجموعة كاملة من البحوث الفلسفية يطلق عليها « الهرمزية » hermétiques (١) مكتوبة بالاغريقية ومصطبغة بصبغة من الافلاطونية الحديثه • وان تضمنت قدرا هاما من الآراء المصرية القديمة ، الى حد دفع البعض الى أن يروا فيها ترجمة خالصة وبسيطة لكتب فلسفية مصرية تحدث عنها كليمنت الاسكندرى ، خلال حديثه عن المعارف التى يجب أن يلم بها الكهنة • وكان لتحوت أيضا ، زوجة • ولما كانت تحمل اسما لاهوتيا هو « نحمت تاوى » حامية الأرضين (جاكيه) فقد عدوها ابداعا متأخرا ، ومع هذا فقد كانت تعبد فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فى المقاطعة ولكن بين معبودات أخرى الى جانب « نحب كاو » التى لا يقل اسمها زيفا عن اسمها هى والذى نقرؤه مكتوبا فى نصوص الأهرام • وقد كان من اللازم تشبيهها بحاتحور فقد كانوا يضعون لها غطاء رأس يطابق « صرح » المصلصلة — « سشات » الذى تبرز منه فى معظم الأحوال سيقان نبات البردى • ونجدها فى قبر جانينى فى طيبة أحيانا فى حضرة تحوت كمضيفة فى الأشمونين وأحيانا أخرى قريبة من شبس اله نفس المدينة • ولعلها كانت قد أصبحت رفيقة تحوت •

---

(١) منسوبة الى هرمز (تحوت) •

وكان يقدم التكريم لعدد وفير من الآلهة الآخرى في هرموبوليس الى جوار تحوت وحاشيته الالهية • وكان شپس الذى يحمل اسمه معنى « جليل » في اللغة المصرية ، يقطن بها • ولم يكن سيدها ولكن كان يقيم فيها • ويجده المرء مرسوما حتى نهاية أقاصي النوبة • ومع هذا فان النقوش عن موضوعه ضئيلة • وقد سمي برع مرة في وادى الملكات وكثيرا ما كان يصور بقرص فوق رأسه • فهل يجب أن نرى فيه الشمس التى خلقتها جماعة الآلهة الثمانية فى الأزمنة الآزلية ؟

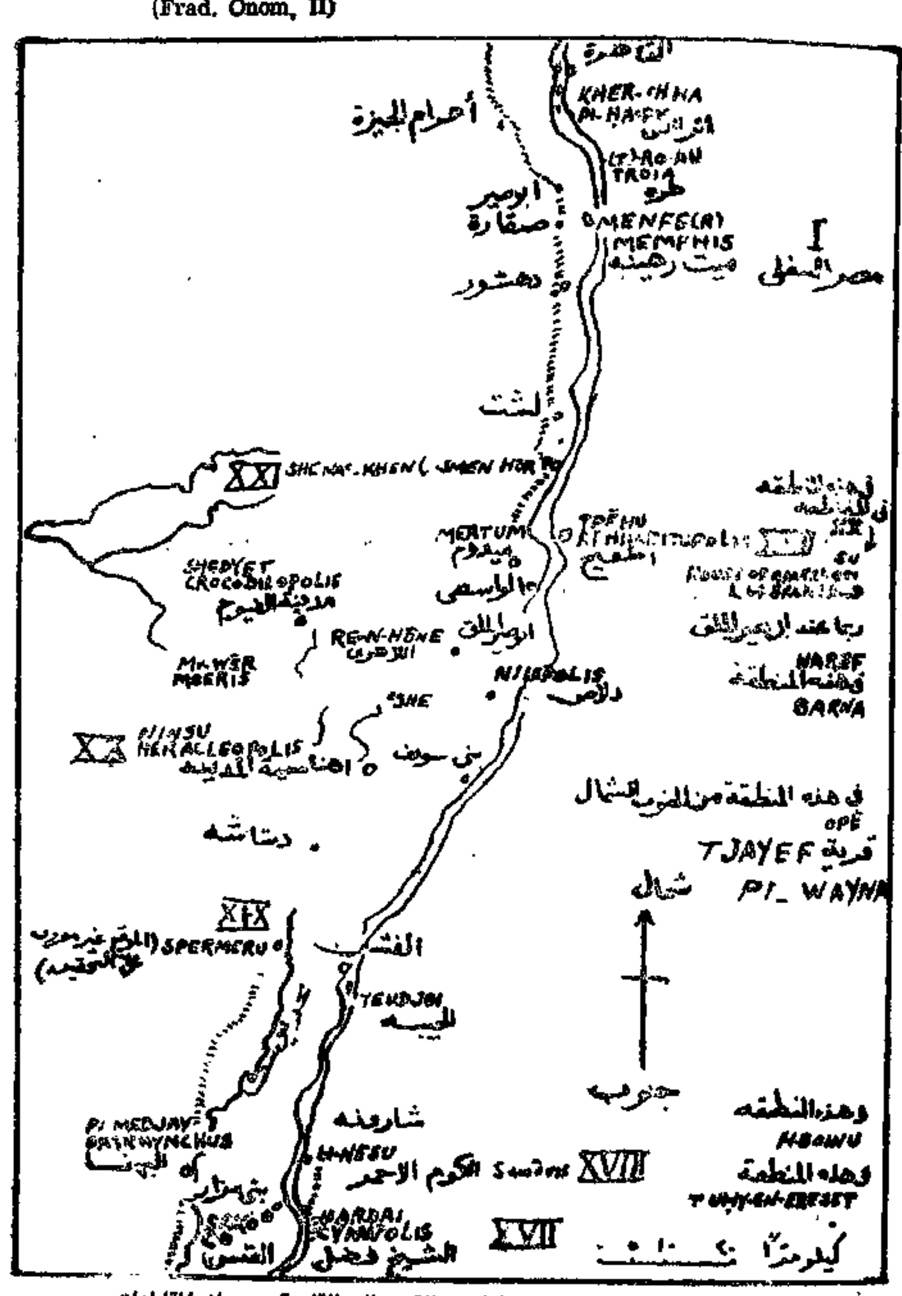
ثم عدد المعبودات التى تالقت في تلك الرقعة الفسيحة من الوادى ! لقد قدم لنا نحات كان يعيش في مستهل الاسرة التاسعة عشرة ، تعدادا لكل الهة الاشمونين التى كان يعرف اشكالها : « لقد جعلت مستقرى في « بيت الذهب » (المرسم الذى كان النحاتون يستطيعون فيه بعث الحياة في تماثيلهم عن طريق الشعائر) لاخلق اشكال كل الآلهه وصورها ولم يكن واحد منها مستخفيا عنى • ولقد كنت كاهنا للشعائر المحجوبة وكان في قدرتي رؤية رع في تحولاته وكذلك أتوم في تجسده • كان يوجد اوزيريس سيد ابيدوس على رأس آلهة القطر المقدس وكان يوجد تحوت سيد الأشمونين برأس « خرتى هنو » • لقد كان في استطاعتى رؤية « شبس » في سره الخفي و « أونوت » في تحولاتها • وكان يوجد « مين » وهو يزهو بجماله ، و « حورس » الذى يقيم في حسرت و « ونحمت تاوى » ابنة رع و « سخمت » محبوبة بتاح وجماعة الآلهة الثمانية التى توجد في مدينة ـ الثمانية في مسكن الشبكة • وفيها كان يوجد « خنوم » سيد حرور و « حكت » و « حاتحور » و « آمون ـ رع » الذى يقيم في انو و «حاتحور» فى القوصية ابنة رع الذى يحمى المتفوق • والتاسوع الذى يوجد فى عجنى(١) و «حرويرس» (حرور)

(١) موضع في مصر العليا كان يقع بين اسنا جنوبا واصفون شمالا ويطابق على قول دارسي المطاعنة الحالية والفروديتوبولس التى ذكرها استرابون ـ (المترجم) •

فى أصفون و « حمن » سيد حفات • وكان يوجد « مونتو » الذى يقيم فى الطود ، و « أنوبيس » سيد بلاد الغجر • وكان يوجد « حورس » على رأس حبنو ، و « باخت » سيدة سرو ، وتحوت الثور فى مدخل الوادى ، و « عنتى » فى صقع عنتى ، و « آمــــون » الذى ينتمى الى « ذاك ــ الـــذى ــ يعلن ــ الانتصارات » والثور سيد ــ اكا (القيس) وحكت ، سيدة قوص والالهتان الراضيتان (ايزيس ونفتيس) • ولا شك فى أن نحاتنا يتحرج بعد « خنوم » من مدينة ــ جماعة الثمانية كما أنه يتحرج بعد حاتحور القوصية ، من مقاطعة الأرنبــة البرية لكنه من الشيق أن نراه يعدد جميع تلك الآلهة التى تعرفنا عليها والتى لها كلها ملابس ، وأغطية رأس واشارات تميز كلا منها عن الآخر تماما فى العصور التى توضع لها • وكان الفنان المسن يزهو بأنه يعرفها تمام المعرفة •

ودون الرجوع الى كل آلهة المقاطعة الخامسة عشرة أو الهة حاضرتها ، يجب أن نحيط علما اثناء مرورنا بأن خنوم اله انطينوى ، التى كانت تسمى فى القدم حرور هو ذاك الذى ينحت الملك الشاب وزوجه « الكا » فى الشعيرة المحجوبة عن المولد الالهى وأن قرينته حكت التى نعرفها برأس الضفدعة ، تقدم له رمزا لنسمة الحياة • وكان لحاتحــور عبــادة فى نفــروسى التى يجب أن تكــون جد قريبــة • وتظل باخت بالنسبة لنا أعظم هذه المعبودات غموضا • لقد كانت آلهــة برأس لبؤة ولم تكن سيدة آية مدينة ولكن فقط سيدة مكان قفر فى الجبل من بنى حسن عــلى الشاطىء الأيمن • ولقــد قام أوفياؤها بحفر معبــد فى الصــخر ، ســماه الاغــريق «الاسبيوس ارتميدس» وقد سمى «سرو» فى اللغة المصرية ، وكان لها من الأهمية ما جعل الملكة حاتشبسوت تزين معبــد « الاسبيوس » وتضع فيه نقشا ؛ أشــارت فيه الى اعادة فتح القطر والى طرد الهكسوس • ولقد قام سيتى الأول باعادة بناء هذا المعبد الذى لم ينج من قوات تحوتمس الثالث التى

(Frad. Onom, II)



مصورة جغرافية ـ مصر العليا من القيس الى القاهرة مع بيان المقاطعات

وكل اليها أن تهشم اسم الملكة على الأخص ولا من محطمى الصور فى عهد اخناتون المكلفين بازالة اسم آمون واسماء جماعة الالهة • على أن هذا لا يلقى الا بقليل من الضوء ، اذا شئنا ، على هذه الالهة العجيبة المحلية التى تذكرنا ببعض مزارات « العذراء » التى تحظى بالتكريم فى فترة معينة ، فى جوف الوديان التى يعسر الوصول اليها ومع ذلك ، فان هذه الالهة تدخل فى تركيب اكثر من اسم من أسماء الأعلام ويبدو أنها كانت شخصية هامة •

وكانت حاضرة المقاطعة السادسة عشرة حبنو ولعلها هى المدينة التى سماها الاغريق الابسترون ، ولا شك فى أنها الكوم الأحمر الحالية تتوجه بالعبادة الى اله باسم حورس نجد عناء فى تعريفه فى شىء من الدقة ، رغم ما سجله نصب ليدن من انه كان يعرف بشكله الخاص • ويجب وضع تحوت الثور فى مدخل ــ الوادى فى نفس المنطقة وكان امون هو الذى يسود خاصة ، فى طهنا الجبل (١) التى كانت تدعى بيموى فى العصور القديمة ، والتى تبعد قليلا عن حبنو ناحية الشمال ، ولكنه كان يحل فى جوار سبك أو سبك ــ رع الذى كان أيضا رب مدينة أناشا المجاورة • وفى اتجاه انحدار النهر ، على نفس الشاطىء ، على مسافة قريبة جدا من بنى خالد ، مازال يرى معبد محفور فى الصخر • وكان يطلق عليه « الموقدين » كانت تعبد الهة باسم حاتحور التى تقدم بردية يوملهك Jumilhoc لنا عنها معلومات أسطورية بالغة الغرابة : حاتحور التى توجد فى تلك الجهة ، هى ايزيس عندما تنجز تحولها العظيم الى أمها سخمت لتلتهم بلهبها «ست» وحلفاءه ، فى كل مرة كان هؤلاء يجتازون النهر، وهم

---

(١) طهنا الجبل ــ معنى اسمها فى اللغة المصرية الجبهة وهو بالكامل t ; thn wr nht ــ الجبهة عظيمة القوة وتقع جنوبى جبل الطور على الشاطىء الايمن للنيل وعلى بعد قرابة عشرة كيلو مترات الى الشمال الشرقى من المنيا • واسم TE « الجبهة » حملته عدة مواضع اخرى كانت على غرار طهنا ــ اكورس Acoris تقع على قمة هضبة صخرية مثل الجبهة الواقعة جنوب شرقى الفشن •

قادمون من مقاطعة آوكسيرنخوس Oxyrhynque (١) ليتوجهوا صـــوب الجبل الشرقي (ترجمة فاندية Vandies) وفي حردى Hardai ، الشيخ فضل الحاليــة (٢) كان أنوبيس يفرض نفسه لتمجيد خلصائه : ومع هذا فقد كان يظن أن اول اله لها كان حورس • وفي الجانب المواجه في القيس كان أيضـا انوبيس هـــو الذى يعبـد • ولـكن القصص الأسطورية توحي بانه حل، دون شك ، محل اله يدعى بأتاء وهو الذى اعتبر في العصر المتأخر بأنه ست عينه •

وفي الواقع ، اننا ما نكاد نحـل بتلك المنطقـة وهي لا تزال ، الى عهد قريب ، احدى المناطق التي ليس لنا بهـا الا اليسير من العلم ، حتى تقود خطانا بردية يوملهك التى تلقي ضـوءا سـاطعا عـلى حشـد من العبادات والقصص الخرافية ، يعسر أن نتعرف وسطه بدقة على كل الأمكنة التى يصادفها المرء فيها • وقد كان لاله المقاطعة الثامنة عشرة ، فيما سبق ، صورة صقر بجناحين منشورين ، على وجه عام• وكان يطلق عليه ، دون ريب ، اسم عنتي ، ولكن شخصيته لم تكن قوية الى حد مناسب وقد استبدل به ، شيئا فشيئا ، الاله دون عنوى • وهذا الاسم ومعناه مازال غامضا ، ظهر فى عصر الآهرام وآل به الأمر الى أن يتوارى أمام دون عنوى : « ذاك ــ الذى ــ يمد ذراعيه » علامة الحماية • وآخيرا فى العصر المتأخر ، كان أنوبيس (شكل ٣) هـو الذى فرض نفسه كذلك وهو يهبط بمحاذاة النهر • ويرى هنا كيف أن الشخصيات الالهية ، شخصيات يصعب تحديدها وأنهـا تغيرت خلال التاريخ • وفضلا عن ذلك ، كان أنوبيس هذا،

(١) البهنسا •

(٢) حردى هى التى أطلق عليها الاغريق اسم Kuvwy nonis والرومان اسم Canum وتقع على الشاطىء الايمن للنيل عند الشيخ فضل أو بالقرب منها • وهى على بعد ١٤ كيلو مترا من البهنسا وتواجه بنى مزار وتقع القيس الى الجنوب الغربى منها • وكان الهها انوبيس الذى كان اله القيس فى عهد اكثر تاخرا ، ولهذا كانت لها الاسبقية فى اسم cynopolis الذى اطلقه عليها الاغريق •

الذي يجاور المقاطعة التاسعة عشرة التابعة للاله ست ، فقد قدم المعاونة الجدية لحورس للدفاع عن بقايا أوزيريس التي كانت محفوظة في تلك المقاطعة ، حتى أنهم أدمجوهما تحت اسم حورس ـ أنوبيس • ولقد كشف وجود « جبانة كلاب » ، عن أن ذلك الحيوان المقدس كان يعبد فيها في عهد متأخر •

ان الوثيقة ذاتها تقدم شروحا شيقة عن طائفة من الأمكنة المقدسة المجاورة التي يصعب أحيانا تحديد موضعها في دقة فوق الخريطة المصورة • ومن بين هذه الأمكنة ، مدينة ـ البقرة وقد أطلقت عليها هذه التسمية ، لأن تحوت وجد فيها البقرة التي أمدته برأسها لتكون عوضا عن رأس ايزيس التي قطعها حورس ، وقد استبد به الغضب لأن أمه قد ترفقت بالاله ست • ومع هذا ، فان المؤلف يلتزم التحفظ الكثير فلا يقص تلك الواقعة وهو يلمح بها عوضا عن عرضها • وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، كان للاله خنوم مقدس في « بيت ـ خنوم » • انه حليف حورس يقوم بمراقبة مشروعات «ست» وأعوانه • وكان هو أيضا الذي يقدم له التمجيد في «أونم ف تا» ومعنى اسمها : يأكل الخبز • ان هذا الاسم يحمل ذكرى أسطورية : ان سبك ، وقد باغته أنصار «ست» الذين أفادوا من ظلمة الليل واجتازوا النيل، تحول الى تمساح والتهم كل المتآمرين مع الاله الملعون • ولكنه احتفظ بالرءوس على ظهره ـ وفي هذا الوضع كان يمثله تمثال ـ ليقدمها الى حورس • ويعمل حورس ، وربما لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان ، على أن يقدم له خبز ومن هذا جاء اسم المدينة •

واذا أضاف المرء أن المدونة الثمينة التي كتبت لكي تكون دليلا للطامحين الى وظائف الكهنوت في المنطقة ، وكذلك لكي تكون مرشدا للنحاتين والمصورين ؛ وتشرح أصل « الجلد الشافي » Nébride المزين على أنوبيس ، وتقص كيف أن

«ست» سرق صناديق حورس وعثر على أنوبيس وتضيف اليها تعليقات عن فصيلة كلاب (Canidés) (١) الاله المقدســة وتزييفاتها . فعند ذاك يكون لديه فكرة عن غزارة التقاليد الدينية التى انضــمت الى المعلــومات الــوفيرة التى تتعلق بالأســطورة الأوزيرية وعــلى الأخص البحث عن أشـــلاء أوزيريس الذى مزق جســده ، وســنعود الى موضــوع هذه الأشلاء ، ولكن يجدر أن نقول كلمة عن « الجلد الشــافى » nébride (٢) (شكل ٣٥) . وقد كان ذلك الشيء يتألف من جلد يتعلق بساق نبات مثبت فى دعامة ، وكان رع قد قضى بسلخ جلد عنتى بعد ارتكابه جريمة قطع رأس حاتحور الهة اطفيح ـ وهى معــادلة لأسطورة ايزيس ـ وقد أحضر أنوبيس الجلد الى أمه ، البقرة المقدسة حسات (٣) ، التى



شكل ٣٥ ـ الجلد الشافى (معبد سيتى الأول) فى ابيدوس

---

(١) Canidés ـ Canidae فصيلة من اللواحم اى آكلات اللحوم للواحد منها اربعة براثن فى كل من رجليه واربعة او خمسة فى كل من يديه وهى تشمل الكلاب الاهلية والذئاب وبنات اوى والثعالب « عن معجم الحيوان ـ للمعلوف » ـ (المترجم) .

(٢) يرجع لفظ nébrde للأصل الاغريقى nebris رمز جلد ايل fallow = Faun) down) صــغير لونه رمادى يميل الى الصفرة كان يرتديه باخوس (ديونوسيوس) واشياعه ـ (المترجم) .

(٣) يرجع اسمها الى اللغة العربية ـ الحسيلة البقرة وجمعها حسائل وجاء فى المعجم الوسيط الحسيل أولاد البقر الأهلى ويطلق على الواحد (الدميرى) يقال اشترى بقرة بحسيلها ـ (المترجم) .

أعادت اليه الحياة بلبنها بعد أن جعلت هذا اللبن ينساب في هاون يمثل الدعامة ، وجعلت منه بلسما يجلب العافية ·

لا يمكننا ترك آنوبيس (شكل ٣) ، دون أن نضيف بعض القسمات التي تحدد محياه · فهذا الاله الذى يعلو جسمه الانساني راس كلب ذئبي (canis lupaster) ، كان يعد ابنا لايزيس واوزيريس في العصر المتاخر وكذلك لسخمت ـ ايزيس · وهذه البنوة تفهم على وجه أفضل عندما يعلم انه كان يمثل بحورس في مقاطعته · ولكن بلوتارخ يقص أن اوزيريس انجبه من نفتيس ، التي كان قد اتخذها أختا له ، وكانوا يعدون ـ عامة ـ البقرة السماوية حسات أما له · وربما كان يدين لهذه البقرة باللقب الذى يطلق عليه « سيد الأبقار مدرة اللبن » وبالاشتراك ، الى جانب ايزيس في شعائر سكب اللبن ، على موائد القرابين المروية(١) · هل قام هذا الجلد الشافي الذى رأينا أن له قيمة علاجية بدور يجعله يوازن اموئس (امحتب) ، اسكلبيوس المصرى ، في كتاب التحولات في العهد المتأخر ؟ من المؤكد ، على أية حال ، أنه يعد منذ أقدم العصور سيد الجبانة ويتسوم بدور في التحنيط وفي منح الحياة التي تضفى على المومياء التي كان يطيب لهم أن يرسموه بالقرب منها · ومنذ عصر الأهرام كان يشترك في محاكمة للموتى وتظهر صورته ـ في الرسوم الزخرفية التي تصاحب الفصل المائة وخمسة وعشرين من « كتاب الموتى » الاعتراف السلبي (٢) وهو يتحقق من مؤشر الميزان ، وكذلك كان يسمى عادة في « كتاب ليت اسمى يينع » « حارس باب

(١) نسبة الى مروى القديمة بالسودان وهى البجراوية ·

(٢) يذكر هنرى برستد فى كتابه « تطور الفكر والدين فى مصر القديمة » ، Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.
أن « الاعتراف السلبى » تسمية خاطئة لان اعلان البرء عكس الاعتراف (صفحة ٤٠٤ من النسخة العربية التى قمت بوضعها) ـ (المترجم) ·

الجحيم» • وفى هذا الدور مثله الاغريق بالههم هرمز وجعلوا منه هرمانوبس الهجين Hermanubis الذى يراه الانسان على نقود المقاطعات فى القرن الثانى • بل لقد وجد مصورا مرة فوق ناووس من العهد المتأخر ، فى برلين وهو ممسك بمفتاح يبدو تماما أنه استعاره من اياك L'Eoque (١) الاغريقى ، وذلك لأنه اجتاز مع آلهة الجماعة الأوزيرية ، حدود مصر الضيقة ، وعرف فى أرجاء العالم الهلينستى والرومانى حيث أثار الأخيلة قناع الكلب المتوحش ، أو ابن آوى ، الذى اتخذه • ولقد ورد فى أشعار فرجيل الذى أمدت قصيدته Latratur Anubis (٢) الشاعر مالارميه Mallarmé بقوافيه :

وهناك المعبود أنوبيس

الخطم بأكمله ملتهب كعواء متوحش

وفضلا عن هذا ، فقد وصل الى الجنوب منذ أمد بعيد ، لأنه فى ابى سنبل كان « سيد النوبة » •

ما السبب الذى دعا الى ربطه بالقمر ؟ ان هذا بالنسبة لنا سر خاف • وكان يظهر فى جميع الرسوم التى تصور المولد الالهى الذى كان يحتفل به منذ الدولة القديمة لأجل الملك ، وقد صور فى مولد حتشبسوت وهو يدير بدر التمام يتمنى للطفل أن يتجدد تجدد الكواكب • ولذا فلن يعجب المرء كثيرا عندما يصادفه فى « كتاب الكهوف » وهو يضىء الموتى بقرصه العظيم أو كذلك عندما يجده حاملا القمر فوق رأسه ، ملفوفا فى كفن من عهد متأخر جدا فى متحف الفنون الجميلة بموسكو •

---

(١) ابن يوبتر ملك اجين Egine وقد اشتهر بعدالته ، فانه صار بعد موته أحد القضاة الثلاثة فى الجحيم كما جاء فى الأساطير •

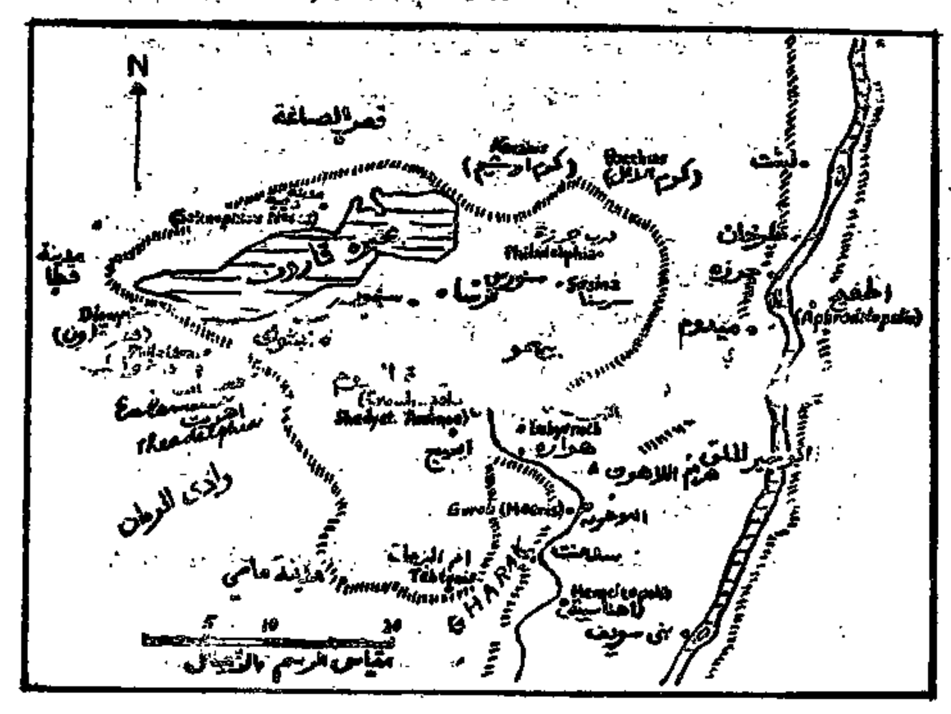
(٢) العاوى أنوبيس ــ (المترجم) •

ولقد كان له دور عظيم في الشعائر المحجوبة الأوزيرية، والبحث عن أشلاء أوزيريس الممزق واعادة تكوين الجثمان واعادة الحياة اليه ٠ ولكن الأمر العجب أنه كان يقرع الطبول أمام الاله وهو يردد قائلا : « انى اقرع الطبلة امام صورتك منذ أن ينبلج الصباح حتى المساء » ٠ على أن تطورات علم لاهوت أنوبس لا ترجع بأجمعها الى العهد المتاخر ، كما أمكن التأكد من ذلك ، ولكنها اتخذت أهمية بالغة العظم دون ريب مع تزايد أهمية الدين الأوزيرى التى عرفت عنه فى العهد المتاخر ٠

وفى المقاطعة التاسعة عشرة ، كانت تقدم العبادة الى الاله « ست » ، الملعون ٠ وعندما ازداد عدد الاوفياء لأوزيريس ، اله الخلاص ، زيادة بالغة الى الحد الذى أضحت فيه أغلبية مصر ، العظمى ، أوزيرية ، يصبح «ست» القاتل موضوع اللوم العام ٠ هل تدمر مدينته ومعابده ؟ على اية حال ، لم يصل المرء بعد الى تحديد مكانهما بين أوكسيرنخوس (البهنسا) فى الجنوب وهيراكليوبولس فى الشمال ٠ ثم ان نص ادفو الجغرافى وجيز وفيه تأنيب ٠ ولكنه يشير الى أنه كان يحتفظ فيها بأشلاء مقدسة هى ساقا أوزيريس وخصية ست ٠ وفى الحاضرة سبرمرو ، كان لاله الصحراء معبد ، كما كان لنفتيس ، زوجته معبد خاص بها ٠

وعندما نصل الى اهناسيا المدينة ، التى كان الاغريق يطلقون عليها هيراكليوبولس ، وتدعى قديما ننى نسو ، نجد حاضرة قصيرة العمر لمصر ، وبعد الثورة التى غرقت فيها الدولة القديمة أعاد أمراء ننى نسو ، وحدة شطر من أسفل الوادى والدلتا لحسابهم وقامت أسرتاهما ، التاسعة والعاشرة ، بالحكم فى المدينة موطنهم ٠ ولقد عبدوا فيها الاله حرسافس الذى كان له وجه كبش ويستاثر « بالهيبة » كما كان يقول المصريون بالتورية اللفظية باسمه ، الذى

يبدو انه كان يعنى فى البداية « ذاك ــ الذى ــ يقوم فوق ــ بحيرته » • وقد شبه ذلك الاله الذى تظل شخصيته غامضة . بأوزيريس منذ زمن بعيد • ولقد نص كتاب الموتى فى الفصل ١٧٥ كيف ان اوزيريس ، بعد أن ورث من رع وظيفة الملك التى كانت له ، طلب منه الهيبة حتى يمكن ان يخشاه ست والآلهة غيره • وكان من الواجب على ست ان يحضر أمام أوزيريس ، فى تواضع ويقدم له التكريم • ولكن دماء سقطت من أنفه • وأخذ رع الدم ودفنه فى الأرض • ولهذا فمنذ ذاك الحين ، كانت الأرض تضرب بالمعول فى هيراكليوبولس • ان هذه الشعيرة ، التى ترتبط بالحياة الريفية والتى تؤدى فى كل مكان بمصر ، كانت لها ، كما نرى ، صلة خاصة بالاله حرسافس ــ أوزيريس ، وكان أوزيريس يبدو كرع فى الاله حرسافس ، وهذا هو الذى جعل منه الها شمسيا • وربما كانت هذه وسيلة لتعرف



القيوم وهيراكليوبولس (اهناسية) (H. Kees : An, Eg)

خليقته كاله خالق ومعبود آزلى · هل لهذا السبب كان يبدو مرتبطا بالعدالة ؟ انها حقيقة واقعة ان الملوك الذين عبدوه يظلون الناهضين بنظام اجتماعى أفضل واشاعة أكبر قدر من العدالة الاجتماعية · ويؤيد التصديق بذلك، ما وصل الينا من مؤلفاتهم ومنها « تعاليم لمرى كارع » ذائعه الصيت وقصة رجل الواحة التى ترجع الى نفس العهد ·

وعلى قرابه خمسه عشر كيلومترا الى الشمال من هيراكليوبولس ، تتوغل قناة بحر يوسف العظيمة ، التى تتفرع من النيل عند أسيوط ، فى الصحراء الغربية وتروى واحة الفيوم (١) وتعود لتصب فى بركة قارون وهى بحيرة ماؤها ملحى لا يصلح اليوم للزراعة · ويبدو ان الفيوم كانت فى الدولة القديمة ، منتجعا يستغل فى قنص الحيوانات وصيد الأسماك اذ لابد أنها كانت تحوى الكثير من المستنقعات والأحراش التى لا يمكن اجتيازها · ولم تكن كثافة السكان فيها ، دون ريب ، كبيرة · وفى عهد امنمحات الثالث ، فى الدولة الوسطى ولدت فكرة للافادة من الفيوم كخزان لمياه الفيضان · وكذلك أصبحت المنطقة فى رخاء وتضاعفت المدن فيها كثيرا · ولكن العهد الذى حدث فيه أعظم توسع كان عهد الملوك الاغريق · ولما عمد الهلينيون ــ الذين عرفوا كيف يطبقون مناهجهم على هذه التربة القديمة المصرية ــ استغلت مساحات من الأرض فى الزراعة تقع على مستوى لا يصعد اليه الماء فى آيامنا · ان مدنا بأكملها مثل ديونسياس Dionysias (٢) وكرانس Karanis (٣) وسوكنوبيونيز Soknépéonese (٤) عادت اليوم جزءا من الصحراء بعد أن كانت قد اقتطعت منها من قبل ·

---

(١) ترجع التسمية الى مصر القديمة فقد كتبت (يم) ومع اداة التعريف با يم واليم كما فى اللغة العربية البحر ــ (المترجم) ·

(٢) قصر قارون مركز اطسا ·

(٣) كوم أوشيم ·

(٤) أصلها ايو ويا ايو ــ الجزيرة ــ ديمية الحالية ·

ان مجمـــوعة كاملة من أدراج البردى الجغرافيـة ، بالخط الهيروغليفى أو الهيراطيقى تكشف عن أسماء الأماكن والآلهة التى كانت تعبد فيها فى العهد المتأخر • لقد جلبت حفـــائر تبتوس (١) Tebtunis ، عشية الحـرب العـالمية الثانية ، وثائق هامة لم تنشر حتى الآن بأكملها • ولقـــد هيأت أدراج البردى الاغريقية الوفيرة ، فى تلك المنطقـة ، العلم بالأماكن والآلهـة ، وتضمنت حشـدا من المعلـومات الجغرافية التى لم تستغل حتى الآن والتى تتيح العودة حتى عصر الدولة الحديثة ، كما أن بها بعض الاشـارات المنعزلة التى تحملنا أحيانا الى عهد أسبق • وتقع تبتونس الشهيرة بما عثر فيها من أدراج البردى الاغريقية جنوبى المنخفض ويرجع اسمها الى أصل مصرى «رأس ـ الأرض ـ المستديرة» • وكان يعبد فيها تمساح ، « سيد تبتونس » ، كما حدث مرارا عديدة فى الفيوم • ولقد بقى لنا من الدولة الوسطى مقدس مدينة ماضى ، عـلى مقربة الى الغـرب • وكان مخصصـا لارموثيس ، الهة الحصاد • وقد يتساءل المرء : ألم يخلق تلك العبادة ، بكامل أجزائها ، الناهضون بالأعمال الزراعية فى الفيوم ؟ وهل الالهة كانت فى الحق معبودة محلية ؟ • لقد كان يصـحبها سبك اله شـديت حاضرة الاقليـم ، وكذلك حورس • فهل كانت تؤلف ثالوثا معه أم كانت ثلاثة معبودات مستقلة ؟ لا نستطيع أن نجزم بقول • لقـد كانت تصـور أحيانا على هيئة صل ـ وكانت تربى بالتوكيد ، على الأقل فى العصر المتأخر ، صلال مقدسة فى أفنية المعابد ـ كمـا كانت تصور أحيانا أخرى كامرأة برأس صل • وفى الجنوب الشرقى من البحيرة ، فى ثيادلفى Théadelphie (٢) ، كان اله

---

(١) أصلها تانتو وتبتنو وجيتنو ، أم البرجات الحالية ـ (المترجم) •
(٢) اعريت •

ـ تمساح يطلع على أوفيائه « بوجهه ـ الجميل » • وهو الاسم الذى يحمله بالمصرية : بنيفرس Pnepheros • وكان كهنته يحملون فى موكب على محفة جثمانه المتمدد وهو ملتف بقطعة من النسيج كان يخرج منها فقط خطمه يعلوه تاج بـ أنف •

وفى قصر قارون ، التى سماها الاغريق ديونوسياس Dionysias والواقعة على مسافة ابعد الى الغرب والى الجنوب من بركة قارون الحالية • يقوم معبد عظيم يرجع الى عصر البطالمة ويرى من بعد • وان كان قليل الزخارف ومتهدما حتى ان المرء لا يجد فيه الا نقشا قليل البروز للاله سبك • وهو شيء ضئيل ولا يتيح لنا ان ننسب المعبد الى ذلك الاله • وفى الجانب الغربى من البحيرة ، فى سوكنوبيونيز Soknopéonèse (١) ، كان يعبد الاله سوكنوبيوس Soknopaios وهذا انتساخ بالاغريقية للاسم المصرى : سبك ، سيد الجزيرة ، ولتلك الالهة ايزيس ـ نفرسس، Isis-Nephersès . ويشمخ فى قلب الصحراء ، الى الشمال الغربى من البحيرة معبد قصر الصاغة الجميل الذى يكاد يكون سليما والذى يرجع تاريخه فيما يرجح الى الدولة القديمة • ويكشف تل من الركام الى جوارها أن مساكن اقيمت فيما مضى من الزمان فى هذا المكان الموحش • ومن سوء الطالع آن هذا البناء الرصين ، لا يضم آى نقش ، حتى اننا نجهل الى أى اله كان مخصصا • ولابد آن رب المعبد كان يشغل الغرفة الوسطى وهى أكثر اتساعا عن الغرف الأخرى ، كما فى مدينة ماضى ولكن هنا ، توجد ثلاث كرات على كل من الجانبين ، مما يدعو الى الظن آن حاشية الاله الأول ، كانت تتألف من ستة معبودات آخرى تظل كذلك غير معروفة لنا •

---

(١) ديميه •

وفضلا عن هذا ، يحدث أننا لا نزداد علما عندما نعرف اسم الاله • وهذه هي الحال فيما يتعلق بمعبد الاله كرانس الذي يوجد على النصب الذي يسير من قصر الصاغه صوب الوادي • وكان ربها هو بنيسوخس Petesouchos ، ذاك ــ الذي ــ يعطي ــ سبك ، كما في ارسنوى وفي كركيوزيرس Kerkeosiris ، بالقرب من تبتونس • ان اسم العلم هذا ، الذي يأخذ طابع اسم الاله ينتمي الى اسم انسان أكثر من انتمائه الى اسم اله • وقد وضعوا لتفسيره نظريات فيها مهارة عظيمة وليس لواحدة منها مكان من الحقيقة • وفي باكخياس Bacchias (١) وتقع على مسافة قصيرة بعيدا الى الشرق ، يبدو أن اسم الاله الاغريقي سوكانو بكونيس Sokanobkoneus ينطوي تحته لفظ مصري أصلي : سبك ــ سيد ــ جنوت ، وهو موضع تأيد اسمه منذ الأسرة التاسعة عشرة • ان هذه هي التسمية القديمة لباكخياس التي كان الهها نوعا من الرب والحاكم معا في الفيوم •

وكان لقرى أخرى في داخل المنخفض عينه ، الهها الخاص • ومع هذا ، ففي معظم الأوقات ، يكون من العسير الوصول الى موقعها جغرافيا ، مثل جر ، حيث كان يعبد أنوبيس اله حردى الذي أصبحت لنا معرفة به • ولكن كل هذه الآلهة لم تكن الا مجرد أتباع أمام رب الواحة بأجمعها ، وهو سبك (شكل ٢٥) ، سيد شديت ، كروكوديلوبولس Crocodilopolis عند الاغريق ومدينة الفيوم في أيامنا(٢) • وكانت البحيرة بأحراشها ومستنقعاتها على مدار الزمن مكانا ساحرا لأحلام القنص وصيد الأسماك • وكان موضوع بعض الأعمال الأدبية في الدولة الوسطى المباهج التي تجلبها أنواع الرياضة هذه ، في الفيوم • وليس مما يدعو

---

(١) أم الأثل

(٢) في عهد البطالمة سميت ارسنوى Arsinoë ، وكيمان فارس موقع المدينة الأثرية الى الشمال من الفيوم •

الى دهشة بالغة أن اله المنطقة يتخذ شكل ساكن مستنقعات رهيب وهو التمساح • وقد اتخذ سبك صفات أوزيرية على شاكلة حرسافس في هيراكليوبولس ، الذى يبدو أن الفيوم كانت تقع تحت نفوذه ، لقد كان اله الزرع وتطور الحياة ، تماما كاوزيريس ، وعلى غرار النيل، كان يحمل الى الاراضي الرطوبة اللازمة لامدادها بالخصب وهو ما كان قد غدا يمثله في كوم امبو وفي سومنو (١) • وقد افادته هنا ظروف فريدة في دوره كاله خالق • ذلك أن بحيرة قارون وهي تظهر في قراره منخفض في الصحراء الليبية ، كانت تبدو ، في أعين المصريين، انبثاقا للمحيط البدائي الذى كان قد برز منه • وعلى هذا فقد تجلى الاله ــ التمساح وسط هده الأمواه الراكدة في البداية كما ظهر التل البداتى ، كما انه ولد هنا على مثال رع الذى اتخذ شخصيته كذلك ــ من البقرة مثير ليقوم بخلق العالم وايقاع الهزيمة دون انقطاع بالفوضى التى ، تهدد الكون من جديد في كل لحظة ، ولقد كان يعد مثل « نون » محيط البدايات ذاك الذى جاء منه كل شيء ، وقد أضفى عليه هذا مزيدا من قدرة الهية وأبعد الى الوراء ، اذا جسرنا على القول ، حدود أبديته • ومرة أخرى ، يقدم علم لاهوته نفس الموضوعات كغيره من الآلهة المحلية ، منذ أن يصل كهنتها الى شيء من الأهمية ويرفعونها الى علو المعبود الأوحد والأزلي • وليست هذه التطورات بأجمعها متأخرة ، بأية حال ، وان كانت وفرة الوثائق من العصر المتأخر تسمح لنا بأن ندرسها على وجه أفضل •

* * *

عندما يعود المرء من الفيوم صوب الوادى ويصعد صوب منف ، يجد أنه أمكن اكتشاف وجود عدد عظيم من العبادات عبر معطيات وفيرة وردت في آدراج البردى الافريقية وعلى الأخص محفوظات زينون Zenon • وحينما تكشف صدف

---

(١) المسافات بين أرمنت والجبلين كما تقدم ـ (المترجم) •

سعيده عن أسماء جغرافية عتيقة ، فانها تتيح لنا بان نرجع أحيانا اشواطا بعيدة فى تاريخ قرى هذه المنطقة وعباداتها ·
وفى سفح النتوء الليبى الذى يقوم عليه هرم ميدوم « الكاذب » وعلى بعد ثلاثة كيلومترات صوب الشمال، اخذت قرية صفط ميدوم الحالية اسم موضع اسسه ، دون ريب ، فى الدولة الوسطى ملك « محبوب ــ من ــ اتوم » هو موبثومس Moithymis · وقد عبد بها آمون فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، كما أقيم بها فى العهد المتأخر معبد لباستت، الالهة برأس قطة ، كان بعض الكهنة يقومون بتربية قطط مقدسة داخل فنائه · وغير بعيد فى موضع مجاور ، صحت Sahte ، كان يوجد « بيت صقارس » اله ممفيس الجنازى و « بيت ــ القارب حنو » وهو سفينة فريدة الشكل ، كانت مخصصة له · وكان يقدم التكريم فيها كذلك لاله غامض كل الغموض بالنسبة لنا هو امنحى Imenhy قد يكون من الواجب أن نرى فيه آمون (١) · وكان يقع معبد عظيم لايزيس فى هذه المنطقة ولكن لم يبق منه أى أثر ·

ومما يدعو الى العجب أن هذا الاقليم كان يستحوذ أيضا على « بوتو » الخاصة به ، على غرار الدلتا · وكانت تنهض بالرياسة فيه الالهة أوتو (واجت) ، التى تتخذ شكل صل لها نسيج ذو لون أخضر (ويتحد اسمها فى نطقه مع لفظ أخضر) وكانت تستوى على غرار موت فى الكرنك ، على عرش فى مقدس تحيط به من ثلاث جهات رقعة من الماء كان يطلق عليها « آشيرو » ويبدو أنه كانت لها ، على شاكلة الالهات

---

(١) لا علاقة لهذا الاله بآمون · انه مشتق من لفظ يذبح · وترجع مصادره لعهد الامبراطورية الحديثة والعهد الاغريقى وكان يلقب به الملك عند تقديم الذبيحة (معجم برلين الجزء الأول) ·

واطلق لفظ امنحى للدلالة على الآلهة (الشياطين)
« Schlachtre » — als Bez, Von Göth
(Damonen) — Tafb. N.R.
انى أقابله بلفظ لحب
يقال لحب الشىء ، اثر فيه بالضرب أو القطع أو القشر (الوسيط) ويقال لحب الجزار ما على ظهر الجزور اذا أخذه · ولحب اللحم عن العظم (الأساسى) :

ذوات المخلب ، طبيعة مزدوجة مخيفة ورائعة ، ففي دنس اليوس ، ان كل هذه القرى بعيدة عن النهر وتقع في ذلك السهل الخصيب الذى كان يجب أن يغمره الفيضان وهى تجاور قناة تروى سفح الجبل الليبي ، وعند مساورة الهيبو - نيه ، يجد المرء معبدا للاله « مين » في منطقة البرقة الحالية على مسافة ابعد ، في الدرك (١) التى كانت تستخدم كمرفأ نهرى للسلع الواردة بالقوافل من شمال الفيوم ، كان يعبد سبك اله سمنو - حر ، ويبدو تماما أن تلك المحلة ترجع الى الدولة الوسطى .

وفي حاضرة المقاطعة العشرين ، شن آخن Chenâkhen العتيقة التى كان يطلق عليها في زمن الاغريق كانثونبولس Canthonpolis ؛ لانها كانت تضم غيضات من أشجار السنط المقدسة والتى تسمى حاليا كفر عمار ، كان يعبد اوزيريس بشعائر تطابق تماما عبادة بيجة ، في الشلال الاول . ولقد حفظت بعض أشلاء الاله ، وهى ساقه (أو ساقاه) فى غور عميق يقع دون ريب داخل غابة لا يمكن أن يصل اليها غير المؤمنين . وبالقرب منها كانت توجد جرة مثقوبة ، تضمن مجيء الفيضان جالب الخير ، الذى كان ينبع من الاله لاخصاب مصر الشمالية ، وكان يقوم ثلاثمائة وستون كاهنا على ملء ثلاثمائة وستين يوما يحملون بها طهورا من ماء النيل . ولقد رأى ديودور Diodore في ذلك أسطورة دن الدنابيد(٢)

---

(١) يذكر امليتو E. Amélineau في كتابه « جغرافية مصر في العهد القبطى » ان هذه المدينة ترد على الدوام على انها مرفأ يقع على النيل وقيل مرة انها كانت تقع فى مقاطعة منف . ويضيف انه على الرغم من هذا فانه من المستحيل العثور على اسمها بين مدائن مصر وقراها ، فى القرن الرابع عشر أو فى العهد الحالى - (المترجم) .

(٢) دنابيد Denaides .

كان دانوس Danaus . أميرا مصريا حاول اغتصاب التاج من اخيه اجبتوس Eguptus فاجبر على الهرب من مصر ، ولجأ الى بيلوبونيز وطرد من ارجوس الملك استنيلس Sthénélus أبن برسى Persée واندروميد Andromède واستولى على ملكه . وكان لدانوس خمسون ابنة . ولاخيه اجبتوس خمسون ابنا وقد اراد أن يزوج ابناءه من بنات اخيه خشية أن يزوجهن من امراء اغريق ويعقد العديد من التحالف معهم ويبلغ مزيدا من التعاظم . وقد أرسلهم الى أرجوس على رأس جيش لمظاهرة الطلب . =

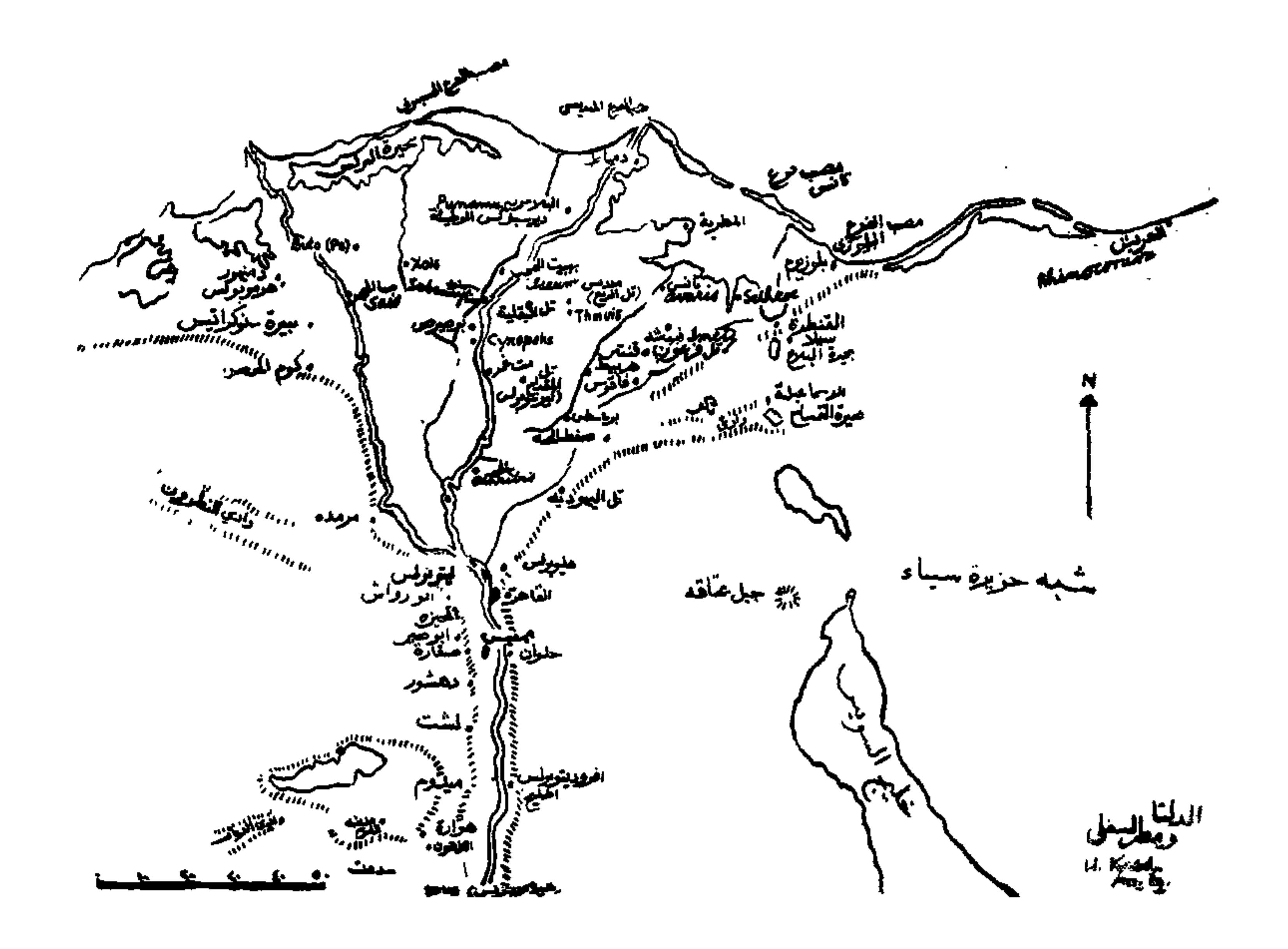
Danaides ، ويضيف كذلك ان أسطورة أفنوس Ocnos كانت تقلد اثناء احتمال خاشع • اننا لا نعرف الى اى عهد ترجع هذه الشعائر ، ولكن قديما كان الاله هو خنوم ، وقد مثل بصورتين . اذ جعل منه ايضا اوزيريس . وكان الاله ــ الكبش الذى يرأس حالات الميلاد يضع انموذج شكل الكائنات على دولابه ، وكان يعرف أيضا بعث الموتى • وبهذه الصفة كان يطلق عليه فى فيلة : « ذاك الذى يضع النموذج على دولابه ، صانع انموذج جسم اوزيريس الالهى فى مسكن الذهب الحى » • وكذلك كان يطيب للناس أن يجعلوا مومياوات تلك المنطقة تمر بذلك المكان المتميز ، بطريقة تمكن اصحابها من الوصول ، فى احوال طيبة ، الى العالم الآخر •

وفى ذلك الجوار ، وفى المناطق المجاور ، كان يعبد فى سمنو ــ حر الاله سبك الذى امتدت عبادته حتى وصلت الى كرك القديمة •

كانت آخر مقاطعة فى مصر العليا تقع بأكملها على شاطىء النهر ، الايمن • وفى الحاضرة وهى أطفيح الحالية ، التى كان يطلق عليها الاغريق افروديتوبولس **Aphroditopolis** كانت السيادة معقودة لإلهة تسمى حاتحور ، كما فى الجبلين والقوصية ودندرة ، ولكن هذه لم تكن الا بعض المراكز العظيمة • وليس فى استطاعتنا الاشارة اليها كلها ، عندما يرى أنه فى موكب من الالهات التى تذهب لحماية وتكريم شعيرة المولد الالهى المحجوبة ، فى هيكل الميلاد الرومانى فى دندرة ، يمكن احصاء تسع وعشرين الهة حاتحور ، ربات أماكن مختلفة •

= ووافق دانوس لعجزه عن المقاومة ولكن عمل على أن تتسلح بناته بخناجر يخفينها تحت ثيابهن ليذبحن أزواجهن فى الليلة الأولى من زواجهن • وتم هذا وعفت واحدة منهن عن زوجها •

وأصدر جوبتر العقاب على أولئك البنات القاسيات وهو أن يملأن الى الأبد دنا مثقوبا • ويذكر استرابون أن هذا القصاص لم يكن الا قصة رمزية تاريخية • ان الأميرات اللواتى جئن من مصر الى أرجوس حملن معهن استخدام القنوات لمرور مياه الأنهار والينابيع ، المعروف جيدا فى مواطنهن ــ (المترجم) •



الدلتا
ومصر السفلى
شبه جزيرة سيناء
جبل عتاقه
N
دمياط
المطرية
Buto (Pe)
Xois
Sais
Thmuis
القنطرة
تل اليهودية
هليوبوليس
مرمده
القاهرة
حلوان
صقارة
دهشور
لشت
ميدوم
هوارة
كوم الحصن

الفصل الرابع

● آلهة الدلتا ، المحلية

اذا كنا نسرع الخطى فى اجتياز مصر السفلى ، فليس مرجع ذلك انها أقل اكتظاظا بالمعبودات عن الجنوب ، ولكن لأن الوثائق التى توجد فى شذرات أو تكثر فيها الفجوات لا تسمح باستجلاء كامل لعلم لاهوتها . وكذلك فان الرحلة أقل يسرا عنها فى مصر العليا ، حيث يكفى ترك القارب ينساب فى تيار الماء . ثم انه لا يوجد فى السهل الفيضى المسيح اى تقسيم جغرافى واضح كل الوضوح ، لهداية السير . وأسهل وسيلة هى بلوغ البحر من جهة الغرب وبعد ذلك زيارة الشمال والوسط ثم العودة الى عين شمس من جهة الشرق .

كانت الدلتا تبدأ عند المصريين فى منف . ويعلم المرء أن المدينة كان يطلق عليها « ميزان ــ القطر ــ المزدوج » . لقد كانت معلما يبين موضع التوازن بين شطرى الوادى . ولم تكن الآلهة تنقصها ، وكان أقدمها عهدا يدعى تاتنن وهو الاسم الذى كان يفسره المصريون « الأرض التى برزت » . وليس من غير المستحيل أن يكون هذا هو المعنى البدائى لاسمه ، لقد كان الها أرضيا يصور متربعا فى جلسته وعلى رأسه تاج مكون من ريشتى نعام تستقران على قرنين أفقيين ويمسك سوطا بيده . انه يستحوذ ويجعل المعادن تنبت فى الجبال ، ويجىء النبات والمياه من لدنه . وقد تصوروه الها آزليا وخالقا . ولكنه يصعب معرفة السبب فى أنه رب الاحتفالات الملكية التى تجرى كل ثلاثين

عاما ويطلق عليها « حب سد » • وفي غالب الاحيان تكـون وجوه نشاطه هي كذلك تلك بعينها التي يقوم بها بتاح الذى اتخذ هويته منذ أزمنة بعيدة باسم بتاح ـ تاثنن •

ولما رفع مينا المدينة الى مكانة التكريم كحاضرة باسم « الجدار الابيض » عبدت منف (١) ـ كما عرفت فيما بعد ـ لاول وهلة الاله بتاح (شكل ٢١) ، الذى يتمثل وعليه كل عـلامات اله محلي • ان شكله يتميز به الى حـد بالغ : انه يتدثر بنسيج يلتصق بجسمه ولا يترك بارزا منه غير يديه الممسكتين بصولجان يتالف من ـ عمـود جـد و « رأس » مجتمعين • وتغطى راسه قلنسوة تلتصق بجمجمته • ولابد أنه كان رب القرية الصغيرة التى اختارها الملك ليقيم فيها مقره ، في انسب موقع يشرف منـه عـلى الشـمال وعـلى الجنوب • ويبدو أنه كان يرتبط ، منذ البداية ، بالصـناع الذين يؤدون مهام حرفهم وعلى الاخص الصناع والنحـاتين الذين سيظل على الدوام راعيهم • ان الذين كانوا يصنعون الحلى فى الدولة القديمة ، كانوا فى غالب الأحيان أقزاما ، وتعرضهم « المصاطب » وهم منهمكون فى صهر الذهب أو فى انجاز صقل القطع الجميلة صقلا نهائيا • لقد كانوا فى حماية بتاح وكان لهم معبودات أوصياء ، أقزام ينسبونهم الى بتاح Patieque (٢) وكانوا يعدون أبناء بتاح • ولذا ، فان هيرودوت يعقد موازنة بينهم وبين الكابير Cabires (٣)

---

(١) تقع مدينة « منف » مكان قرية « ميت رهينة » الحالية بمركز البدرشين وقد سميت « من نفر » ثم أسماها الافريق ممفيس وحرفها العرب الى منف ـ (المراجع) •

(٢) يذكر ارمان فى كتابه « ديانة المصريين » الفصل العاشر اننا نجدها بوفرة بعد الامبراطورية الحديثة ولكننا لسنا على ثقة من أنها كانت قد ظهرت خلالها وكانت تعتبر كبتاح أو أبناء بتاح ويبدو أن هذا يدل على مصدر اسمها الذى نقله هيرودوت Patièque .

(٣) الكابيرى وتصور الكابير البلاسجية الاعتقاد بان النار فى أشكالها الثلاثة السماوية والبحرية والارضية هي أصل الأشياء • وكانت معبودات عظيمة فى زمن بدائى توارى فى طلبات تعهود بالهيلية ولكن بين الأساطير الشعرية وفى العادة العامة هوت مكانتهم الى مرتبة الشياطين Daemones وتجعل منهم بعض التقاليد كهنة فى العصور الاولى ـ (المترجم) •

بما أن الاله بتاح عنده هو هفايسطوس Héphaistos (١) . ويبدو أنه كان يحتفل بشعائر محجوبة فى المعبد الذى كانوا يملكونه فى منف .

كان بتاح يتمتع بشخصية الاله الخالق بوصفه صانعا، وربما كذلك بوصفه تاتنن ، الذى امتزج به فى سرعة وسوف نتحدث عن شخصيته كخالق فيما بعد . وقد تكونت له شيئا فشيئا اسرة . وكانت زوجته « سخمت » (شكل ٦٢) ، الالهة الرهيبة التى كان لها وجه لبوة ، وكانت تستقر على عرشها فى عهد الامبراطورية الحديثة فى طيبة فى معبد محاط بالمياه من ثلاث جهات « اشيرو » . هل كان موطنها الاصلى منف ؟ هل جاءت من ليونتوبولس ؟ اننا لا ندرى شيئا عن هذا . ولكن غرائزها المشهورة بالدماء كانت تجعل منها « سيدة الحرب » . وكان فى مقدرتها أن تتحول الى باستت الوادعة . التى كانت تمثل مظهرها الهادىء . ولقد كان لدى كهنة أدعية شهيرة لتهدئة «سخمت» وفضلا عن هذا . كان يجب أن توجد فى كثير من المقادس الاخرى لانه كان يتحتم ، دون انقطاع ، ادخال السكينة عليها ، أولم تصنع مذبحة عندما وكل اليها أن توقع القصاص بالناس الذين ثاروا ضد رع ، الى حد أن استدعت الحال اسكارها لايقافها ؟ ولقد كانت أيضا تصحبها حاشية مروعة من الكوارث والأمراض ، حتى ان أفرادا معينين من

---

(١) هفايسطوس Héphaistos (Vulcain) :

يرسم اشعث الشعر وله لحية ، ورداؤه يصل الى ما فوق الركبة وينحسر عن الكتف والذراع اليمنى . ويضع على رأسه قلنسوة مستديرة محدبة . وفى يده اليمنى مطرقة وبيده اليسرى حديدة ذات كلبتين .

كان ابن جوبيتر Jupiter وجونو Juno (= زيوس Zeus وهيرا Héra) ، ولد قويا ونشيطا ولكنه كان بشع المنظر فالقيا به من السماء الى الأرض ، فوقع على جزيرة لنوس Lemnus واصابه العرج من جراء كسر ساقه . وعنيت به نساء الجزيرة وسفينه . وكان ماهرا كادحا واتخذ صناعة الحدادة وتخصص فى صناعة الحلى والدروع والمناجل .

وفى اسطوره أخرى انه ولد من يونو بمساعدة الريح . وقد ألقت به فى البحر لبشاعة شكله حتى يظل دائما فى الأعماق . وظل تسع سنوات محاطا برعاية تيتس .

كهنتها كانوا اخصائيين فى مهمة شفاء الأمراض : لأنهم كانوا يحيطون علما بالوسائل التى تسحر ربتهم المخيفة ·

ولقد كان يوجد اله قديم جدا ، فى نفس المنطقه وكان يدعى نفرتوم (شكل ١٦) · وكان يرمز اليه بزهرة اللوتس تعلوها ريشتان · وفى غضون عصر الامبراطوريه الحديثة ، اصبح ابنا لبتاح وسخمت ويؤلف الثالوث الذى يصادفه المرء فى مثل تلك الوفرة فى اواخر قرون الدين المصرى ·

وفى جهة الصحراء ، فى منطقة الجبانه التى نطلق عليها الآن سقارة ، كان يوجد مقر لاله جنازى ، منذ ازمنة بعيدة · وكان يدعى صوكارس (١) (شكل ١٦) ، وتبينه صوره فى غالب الاحيان براس صقر · وكان له قارب ذو شكل استثنائى : فى الامام ، كانت المقدمة المزودة بمجاذيف عديدة جد متقاربه ، تنحنى صوب الداخل مزدانة براس مهاة بقرنيها الطويلين · وفى الوسط كان يوجد جوسق جزؤه الاعلى مستدير ويقوم بالحفاظ عليه نفر من الملائكة الحراس ويحتوى على صورة الاله محنطة · وسرعان ما استغرقت شخصية بتاح شخصيته · وعندما فرض أوزيريس نفسه كاله للموتى لما يقرب من مجموع القطر ، أصبح يدعى « بتاح ـ صقر ـ أوزيريس » ·

وفى مدينة منف الغاصة بالسكان ، كانت تزدحم أعظم العبادات تباينا · ولم يكن يوجد فقط ستة أو سبعة آلهة بتاح مختلفة بل كذلك آمون اله طيبة أو رع ، وفى حى برنوفى Périnoufé الذى كان يقطن به كنعانيون ، كانت توجد آلهة بعل وآلهات عشتار · ولا شىء يقدم فكرة عن هذا الحشد من الآلهة أفضل من فاتحة خطاب أنموذجى تكتب فيه

---

(١) هذه هى الصيغة الاغريقية للفظ skr المصرى الذى يقابل صقر فى اللغة العربية وقد أبدلت الكاف بالقاف ـ (المترجم) ·

مغنية لحاتحور الى احدى رفيقاتها فى طيبة لتفخر ببدائع منف . وهى تبدأ بدعاء لآلهة مدينتها موجه من آجل مراسلتها :

« ها هو ذا ما أقوله لبتاح ، العظيم ، « الذى يستقر — الى — الجنوب — من حائطه » سيد عنخ تاوى (= ممفيس) ، ولسخمت العظيمة ، المحبوبة من بتاح ، ولسخمت (...) ، ولنب حتبت التى تنتمى الى الباب — العالى ، ولبتاح الباب القديم ، ولبتاح الذى يصغى الى الدعوات ، والى الآلهة التى توجد فى داخل « بيت — بتاح » ، ولآمون — رع «سيد عروش — القطر — المزدوج » وكيش برنوفو **Perinoufér** العظيم ، ولآمون الذى ينتمى الى « مقر — الآلهة » ، وللتاسوع الذى يوجد فى « منزل — بتاح » ، ولبعلات ولقادش ولعيت ، ولبعل — زفون ، ولسبد ، ولسمات سيدة عنخ تاوى ، ولرع (...) ، ولبتاح « الجد » الجليل ، ولشمت ، سيدة عنخ تاوى، ولبتاح على رأس تاننت، ولبتاح تحت شجرة البان(١) التى له ، ولنى ماعت رع الذى يتحد مع بتاح ، ولحاتحور ، سيدة — جميزة — الجنوب ، باسمها مثير ، ولسبك اله مرى رع ، ولتويرس (تاورت) شجرة الكاكا (٢) ، ولسخمت رأس — الوادى ، ولآمون نبات الخس ، ولبتاح سيد اقامة العدالة ، ولبتاح سيد حمو ، وآبيس ، فى منزل — بتاح ، ولأنوبس ، القائم بالتحنيط الذى يوجد داخل الخيمة —

---

(١) Moringa — اسمها العلمى Moringa aptera Gaerin اليسار (فيجرى) — البان ثماره منشورية تحتوى على بذور تشبه البندق الصغير وتسمى عند العامة الحبة الغالية ولها زيت ثابت جيد — عن الدكتور احمد عيسى — (المترجم) .

(٢) اسم شجرة الكاكا العلمى Fam. Ebenaceae D. Kaki L. FIL واسمها بالفرنسية Plaquemínier Zaki Coing de chine ، وبالانجليزية Kaki، chinese date عن الدكتور احمد عيسى — (المترجم) .

ويرجع اصلها للمناطق الحارة . وقد عرف من هذه الشجرة أو الشجيرة ما يقرب من مائة وخمسين نوعا — (المترجم) .

الالهية .. سيد الجبانة ، ولأوزيرس ، سيد راستاو (١) ، (. . .) وللتاسوع في الغرب ، وللملوك مصر العليا ومصر السفلى الذين يوجدون في الغرب واولئك الذين يوجدون الى الغرب من حث بتاح (سنف) (٢) ، ولكل اله وكل الهة تكون في جوار ممفيس : « أرجو لك موفور العافية » .

اننا لا نتبع في كل مقدس الكاهنة التقية العالمة . ولكن هذه الرسالة ذات مغزى : فعندما نستحوذ على اصغر وثيقة دقيقة ؟ فان ما يشبه عشيرا من الآلهــة يحتلى مدائن مصر وقراها ، كما يتكاثر بين ظهرانينا القديسون والقديسات .

وتوجد شواهد ترجع الى اقدم عهود على وجود ثور الهى في منف ، ولكن يبدو أنه لم يعقد الصلة بينه وبين بتاح الا في عهد متاخر الى حد ما . انه بداية بدء ، كما جاء في بردية هاريس Harris الطويلة ، با (روح) بتاح الجليلة ، أي انه يمثل جزءا هاما من شخصية الاله . وبعد ذلك يطلق عليه « رسول بتاح » ولكن ماذا يدل عليه هذا التعبير حقا ؟ اننا سنلقى عناء في تصنيفه . انه دون ريب مهبط وحي ابيس الذى يعلن ارادة الاله وكذلك يتخذ العناية في امتداد مذابحه بوفرة . وبهذه الصفة ، فانه يرسم في غالب الاحيان مع مينيفس (هاريس) Menevis ثور هليوبولس الذى كان يؤدى نفس الدور في حضرة رع ، أمام موائد القرابين التى تهيأ لحورس في ادفو أو حاتحور في دندرة . ولقــد جرت العادة ، منذ عصر الامبراطورية الحديثة على دفن عجول آبيس في دهاليز مقابر سفلية تقع في داخل الهضبة الليبية تجاه منف . وفي الفنــاء الذى كان يحيط سطح المنطقــة

---

(١) راستاو ـ أصل هذا اللفظ في اللغة المصرية ومعناه فتحة او باب الممر وهو اسم شائع يدل على طريق أو ممر في مثوى تحت الارض . وقد توسعوا في مدلوله فصار يطلق على مقدس سوكاريس في ممفيس وجبانة الجيزة والجبانة على وجه عام في الأسلوب الشعرى ـ (المترجم) .

(٢) الاسم الدينى لمنف وقيل ان لفظ Aegyptus اشتق منه ـ (المترجم) .

المقدسة ، أقيم في عهد رمسيس الثاني مقدس لتقديم العبادة الجنازية للثيران الموتى ، أطلق عليه « بيت — أوزيريس — أبيس » وهو الذى نسخه الاغريق فى لغتهم بلفظ بوسرابيس Poserapis • وفى زمن بطليموس الأول ، أضيف اليه مقدس للاله سرابيس الذى كانت عبادته تعمل على توحيد الاغريق والمصريين • ولقد كان هذا سرابيوم منف ذائع الصيتالذى عثر عليه ماريت عام ١٨٥١ ، مع الطريق dromos اليه والبناء نصف المستدير hémicycle الذى كان يحوى تماثيل الشعراء والفلاسفة الاغريق • ان مجموعة أدراج البردى الديموطيقية والاغريقية التى قدمها السرابيوم للمنقبين خفية ، فى بداية القرن التاسع عشر ، تسمح بتكوين فكرة عن تصميمه أفضل كثيرا مما يمكن أن يهيئه الموقع نفسه في يومنا ، بعد أن أصابه الدمار ، وقد عبدت الى جانب الآلهة التى صادفناها ، ايزيس وحورس وعشتار السامية التى مثلت بحاتحور — افروديت ، وسخمت وتحوت وآمون ، واموثس (امحتب) — اسكلبيوس • وكان الموظفون المحليون من مواطنين واغريق يشملون فى زمن حكام بيت لاجوس الأوائل ، من كان يطلق عليهم كاتوخوى Katokhoi ، ذائعى الصيت ، وكانوا وهم يعتزلون تطوعا يقومون بخدمة الاله ، دون تجاوز حدود النطاق المقدس •

* * *

وعلى بعد ثمانية أو تسعة كيلو مترات الى الشمال الغربى من القاهرة ، قرب حافة الصحراء ، تغطى قرية أوسيم المتواضعة بقايا خم Khem ، ليتوبوليس Léthopolis عند الاغريق • وقد كانت حاضرة المقاطعة الثانية فى مصر السفلى • وكانت تمجد الها له مظهر مزدوج واسم مزدوج • فأحيانا كانت له عينان ويدعى مخنتى — ارتى ، وأحيانا أخرى يكون قد فقد عينيه الاثنتين وعند ذاك يدعى مخنتى — ان — ارتى • ويتضح فى جلاء المنهج الرمزى لهذه الثنائية فى الشكل :

ان صورته المقدسة هى شكل اله الأفق
«خنتى ــ ان آرتى» فى شكله كمومياء فى منطقة الجفاف
« خنتى ــ ارتى » عندما تكـون الشـمس والقمر فى محياه :

عيناه اليمنى واليسرى هما قرص النهار وقرص الليل
عيناه الالهيتان تنشران الضوء صباحا ومساء •

وبعبارات آخرى ، يكون لاله الشمس ، هذا الصـقر المحنط ، كما يرسم فى غالب الأحوال ، عيناه عنـدما يبرز القمر والشمس • وهو يحرم منهما عندما يتوارى الاثنان• ولـكن من الـراجح انه أقل قدما فى لتوبوليس عن الاله الكبش خرتى ، وطبيعته خافية تماما عنـا • ولقـد مثـل « مخنتى ــ ارتى » بحورس فى شكل حرويرس (حر ور) • وكان يشترك فى الفاجعة الأوزيرية ، مما أهله لأن يظهر فى مكان هام فى الفقرة التى جاءت فى نصوص الأهرام التى يوجه فيها السباب المهين لجماعة الآلهة الأوزيرية • وكانت الالهة التى قدمت اليه كشريكة تبدو للاغريق معادلة لالهتهم ليتو Leto (١) ومن هنا جاء الاسم الذى أطلقوه على مدينـة « خم » التى كانت أهميتها الدينية كبيرة •

وبين الجيزة وأوسيم فى قرية يطلق عليها « اكمتا ــ سبد » كان يوجد مقدس لاله شرقى الدلتا هذا ، ومن حول لتوبوليس فى « خاس » وفى قرية «است» كانت تقدم عبادة لسخمت • وبالتزام حافة الدلتا ، ولكن على مسافة أبعد الى الشـمال ، فى اتجـاه قرية طرانة الحالية ، كانت المدينـة

---

(١) Leto — Latone :
ترسم وهى تحمل طفلها على ذراعيها ، هاربة أمام الثعبان بايثون Python الذى يطاردها • استبدت الغيرة بيونو (Junen : Héra) لحب زيوس لها • وقد ضربت فى الآفاق بحثا عن ملجأ وهى على وشك الوضع • وترفق بها بنتون (بوسيدون) وبضربة برمحه ابرز من البحر جزيرة ديلوس وفيها اخرجت ابولو وديانا ـ (المترجم) •

« ساخبو » تعبد حراختي (شكل ٦) وكان يرسم كانسان له رأس صقر يعلوها قرص الشمس • ووفقا لما جاء في بردية وستكار Westcar ، قدر أن يكون هذا الاله أبا الملوك الأسرة الخامسة ، وعلى هذا كان له شأن في العصر القديم • وكان يقدم التكريم أيضا الى حربوقراط (شكل ١٠) في تلك المدينة التى هوت شيئا فشيئا في مدرجة النسيان •

وعن كثب من طرانه ، يستوى كوم أبى بلو الذى يغطى طرينوثس القديمة • ان اسمها مشتق من الالهة ارموثس التى سبق أن صادفناها في الفيوم • ولقد كانت تعبد في تلك المدينة الريفية • ولكن ربة المكان كانت حاتحور سيدة الفيروز ، تلك التى تقيم في عرض صحراء سيناء في معبد سرابيط الخادم ، حيث تتخذ على التوكيد مكان « بعلات » سامية • ولا تزال بعض أجزاء من حيطان معبدها تقوم فوق ربوة الركام ، كما تعرض كتل أحجار من الأسوار المهدمة الآن في متحف بوسطن •

وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، يغطى كوم الحصن القريب جدا من الصحراء والواقع في موازاة مدينة طنطا الحالية ، موقع اماو القديمة • لقد اشتق اسمها من أشجار المكان المقدسة (ربما أشجار النبق) (١) ، التى كانت حاتحور سيدتها • وهناك ، كما في أمكنة أخرى ، كانت تتخذ شخصية بقرة سماوية ، وعلى الأخص سقات حر « تلك التى تغذى حورس » • وكان يطلق على أحد الكهنة « المشرف على حرم ذوات الكمال (أو الجميلات) » • لقد كن كاهنات حاتحور اللواتى يقمن بدور في شعائرها المحجوبة ، الليلية ، التى لدينا علم بها في مدامود وفي دندرة وفي طرة • وكان المعبد الكبير يأوى أيضا « خنتي ختي » اله اتريب وحرسافس اله هيراكليوبوليس •

---

(١) Jubier اسمها العلمي Zizyphus Spina Christi Wills وهي nbs بالمصرية وتقابل (نبق) العربية - (المترجم) •

وعندما نواصل السير صوب الشمال ، ملازمين على الدوام الجهة الغربية من فرع رشيد ، نبلغ نوكراتيس، التى كان اسمها المصرى بامرى • وبخلاف المدينة التى تنازل عنها آمازيس للاغريق والتى كانت معابدها مخصصة لآلهة هلينية ، كانت توجد قرية مصرية أقيم فيها معبد للاله « مين » • وثمة حاتحور كانت تقيم فيها أيضا • ولو ان الاغريق كانوا قد تعرفوا بعض الآلهة المصرية على أنها آلهتهم هم ، فانه يكون من الشيق أن نلحظ أنهم لم يقيموا معبدا لحاتحور ـ افروديت التى كانت مشتركة بينهم وبين الوطنيين •

وعلى قرب من دمنهور الحالية كانت تقع هرموبوليس بارفا ، ولا يبدو فى الواقع لزوم الخلط بينهما • فليس مما يمكن تصوره أن مدينة هرمز توارت لصالح حورس ، الذى كان أقل شهرة لدى الاغريق • وقد اهتم أفلاطون عند مروره على هرموبوليس ، التى كانت على مسافة قصيرة من نوكراتيس ، بالاله تحوت الذى جعل منه بعد ذلك بزمن ، الشخصية الأولى فى الأسطورة التى بلغت حد الجمال والتى أدمجها فى محاورته المسماة « فيدرا » ، ولم يكن يلزم أن يختلف علم لاهوت اله الحكمة والعلم فى خطوطه العراض ، الا قليلا عن ذاك الذى كان ينادى به كهنة هرموبوليس ماجنا • فى عهد نقطانبو (نخت نبف) الثانى ، وكان يتخذ زوجة له « نحمت تاوى » وربما ابنا له « حر نفى » حورس ـ الكامل • وكان لأوزيريس مقدس قريب من مقدسه • أما عن دمنهور واسمها هو انتساخ بالعربية للأصل المصرى فانها « مدينة حورس » •

وعندما نواصل السير ملتزمين الفرع الكانوبى ، تجاه الغرب ، تصبح الوثائق نادرة ، رغم أن المنطقة كانت تغص بالسكان فى العصور القديمة • ويجب الوصول الى قرية

راكوتس (١) حتى نجد مقدسا للثور أبيس • وعندما قام الاسكندر بتاسيس الاسـكندرية فى ذلك الموضـع ، حجبت روعة المدينة الملكية العظيمة ، ذكريات الماضى ولقـد حلت عبادة سيرابيس محل عبادة أبيس أو امتزجت بها • ولم يبق من سرابيوم الاسكندرية ذائع الصيت ومن مكتبتهـا ، الا موضعهما وتمثـالان لابى الهول لا يكشـفان لغـز تنظيمها القديم • وكانت تقدم لايزيس وأوزيريس عبادة ، يؤديها الاغريق عن طواعية لالهى خلاص انسانيين وقريبين منـا • وفضلا عن هذا، فان الاسكندرية لم تكن على الاطلاق مصرية تماما • وكان يطلق عليها فى العالم الاغريقى ـ الرومانى الاسكندرية الملحقة بمصر Alexandria ad Aegyptum ، مما يدل على أنهم تصوروها اضافة هامشية لمصر لا عـلى أنهـا تؤلف جزءا من صميمها • وعندما حدث فى عهد بطليموس الثالث «آدرجت»(٢) ، أن نوعا من مجالس الكهنة تشكل ، بناء على رغبـة البـلاط فيما يرجـح كثيرا ، لم يجتمع المجلس فى الاسكندرية ولكن فى كانوب ، فى معبد أوزيرى • وعندما أتيح للكهنة المصريين أن يسيروا وفقا لوحى ذواتهم ، منـذ عهد الملك التالى ، كانت المجامع المقدسة تجتمع فى منف •

وعلى أية حال ، كان يجب الافادة من المكان كمرفأ منـذ زمن بعيد ، ولقد أمكن تحديد تنظيمات ، يبدو أنها كانت أقدم عهدا من تلك التى وضعها المقدونيون واننا نعرف أنه فى عهد أسرات هيراكليوبوليس ، أخضع ملوكها شـطرا من الدلتا حتى البحر ؛ ليتمكنوا من الحصول على أشـجار لبنان الصنوبرية التى كانت من مستلزمات العـادات الجنـازية وعبادة الآلهة • ويكون مغريا أن نحدد رحيل السفن المصرية من المـرفأ الوحيـد الذى كان عـلى شىء من الصـلاحية : راكوتيس • خاصة وأن كشفا حديثا قد أثبت وجود معبد ،

(١) الاسم الاغريقى pa Kwlis يرجـع الى الاسم المصرى رع قدت وهى : قودة ـ (المترجم) •

(٢) Evergète ـ صانع الخير •

على بعد ٢٠ كيلومترا الى الغرب من مرسى مطروح وعلى بعد ٣٠٠ كيلو متر ونيف من الاسكندرية ، وكان معبدا مخصصا لآلهة طيبة ، داخل حصن يرجع الى زمن رمسيس الثانى • ولقد هيأ المصريون لانفسهم مقاما فى هاتيك الجهات مع عباداتهم وتركوا فيها آثارا عديدة حينما اضطروا فى مناسبات عديدة الى ترك المجال أمام الغزاة الليبيين ، غير أن التطور البالغ الذى حدث فى منطقة الاسكندرية فى زمن الاغريق قد محا هذه الآثار تماما •

وكان يوجد فى كانوب ، التى تقع الى الغرب من آبى قير الحالية ، معبد ذائع الصيت ، لأوزيريس فى العهد المتأخر • وكانت تجرى فيه صنوف رائعة من الاستشفاء ، استرعت انتباه الامبراطور هدريان ، حتى انه ود لو أنها تحدث فى قصره الصغير تيفولى Tivoli الذى يملكه ، وقد كان يحتفل بأوزيريس بحمله فى نزهة فى قاربه فى وقت أعياد الاله السنوية ، من معبده حتى معبد امون الذى لابد انه لم يكن يبعد عنه كثيرا • واذا كان اسم كانوب المصرى لا تقوم شواهد عليه قبل الاغريق، فان شهادة غريبة جديرة بالانتباه أوردها اليوس ارستيد Aelieus Aristide وهى أن كاهنا مصريا أكد له فى نفس المكان أن اسم كانوب لم يشتق من اسم ربان منلاوس ménélas ، ولكنه كان سابقا له كثيرا ومعناه فى اللغة المصرية « أرض الذهب » • ان آثارا تذكارية مختلفة ، وكلها لا يرجع مصدرها الى مدن أخرى فى الدلتا ، يبدو أنها تؤيد هذه الاقوال : تماثيل ، وتمثال لأبى الهول لأمنمحات الرابع ولرمسيس الثانى • ومنذ عهد قريب استخرج تمثال لأبى الهول من الكوارتز ولرمسيس الثانى من جبانة قديمة ، قريبة من قبو تحت الأرض مملوء بمومياوات أبى منجل : مما يسمح بالظن بأن معبدا لتحوت يوجد فى الأمكنة المجاورة • وعلى هذا النحو ، تتكشف عبادات أقدم عهدا • ان اسما قام الاغريق بتفسيره وفق منهاجهم ، كما فعلوا

باسمى فرسيه Persée وأنتيه Antée يدعو هنا الى المجازفة بأن نجدد شباب الموقع ، لو أنا آخذناه بمعناه الحرفى •

لنترك كانوب ، ولنتجه صوب جنوبى بحيرة البرلس ، لزيارة شاطىء فرع رشيد الأيسر • ففى أحراش الغاب ، عظيمة الكثافة التى كانت تغطى ، فى الأزمنة البدائية ، هذه المنطقة غير المحددة التى توارت شيئا فشيئا فى البحر ، كانت آلهة ــ صل تستوى فوق ساق بردى ، تقــوم بالحراســة • وكانت تسمى اوتو (واجت) ، (شــكل ٢٢) كمــا كانت مدينتها بيت اوتو ، تســمى بوتو • وتســتخدم النصــوص المصرية ، فى غالب الاحيان اسمين للدلالة عليها : بى ودب • وفى الواقــع ، فان مما يثير الدهشة فى تل الفراعين وهــو الاسم الحديث لمكانها ، رؤية مخلفات قريتين متجاورتين غير مختلطتين ومعبد معظم أجزائه التى مازالت باقية ، مزدوجة • وكانت اقصى الشمال ، منذ بدايات الملكيــة ، هى الحاميــة للملك • وعندما توحدت مع الهة الجنوب « نخبت » غــدت تستقر فوق التاج وتفنى اعداءه بحرقهم • وبالاضــافة الى هذا فانه لما كان يدل عليهــا ، اسم اللون الأخضر الذى كان يرمز للنمو والتفتح ، كانت آوتــو (واجت) فى المعتــاد ، مصدر غــوث ومرح • وقد تمثلت فى البــداية بعين رع ، بفضل الدور الذى كانت تؤديه فوق التاج ، وأخذت هوية ايزيس التى قدمت لها العون حقــا عنــدما أخفت حورس الصغير فى الغدران المجاورة لخمس ، لتنحيه عن حيل قاتل آبيه • ولقد جعل منها الاغريق معــادلات لالهتهم ليتو Leyto وفى زمن هيرودوت كان المعبد يشتهر بأنه مهبط وحيها •

وعلى بعد ٢٤ كيلومترا ، الى الجنوب الشرقى ، كانت توجد المدينة التى سماها الاغريق اكســويس Xois وهى خاســوو (١) بالمصرية والتى ترجع اليهــا الأسرة الرابعــة

(١) سخا ويرجع اللفظ الى اسمها المصرى ــ (المترجم) •

عشرة الوطنية ، على ما ذكره مانيثون • وكان ربها القديم «رع» الذى أصبح فى الدولة الوسطى آمون ــ رع ــ وكان يصحبه فيها تفنوت وشو • ثم تألف الثالوث فى عهد البطالمة مرة من آمون ــ رع وموت وخنسو ــ حر ــ اختى ــ الصغير • ولعل بعض هذه الآلهة كان يأخذ شخصية البعض الآخر • وكانت تعبد فيها أيضا حاتحور •

وصوب الجنوب الغربى ، وغير بعيد من فرع رشيد كانت لمدينة صا الحجر (سايس) ، فى جميع الأزمنة ، اهمية دينية عظيمة • وعندما حاول تفناخت اميرها ، حوالى عام ٧٣٠ ، اعادة وحدة القطر ، ثم على الأخص فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ، عندما أصبحت الحاضرة ، عرفت سايس شهرة بعيدة المدى • وقد ضاعف من آهميتها وجود مجمع من الكهنة الذين كانوا بلا شك علماء كثيرى النشاط • وفى عهد اسرة ملوك فارس نجح « اوجاحورستى » فى اعادة بناء « بيت الحياة » فى سايس وعلى الأخص مدرستها الطبية • ولقد اقام فيها افلاطون حينا من الزمن ومن الراجح جدا أنه هو الذى وجه اليه أحد الكهنة الكلمة ذائعة الصيت والتى قيل انها قيلت لصولون : « أيها الاغريق ، انكم على الدوام أطفال ! والاغريقى الذى يكون مسنا ، لا وجود له ! » • ولقد أتيح لشامبليون آن يشاهد فناء معبد مقام باللبن • ولقد بدا له أنه « خندق حصار جبابرة » • واليوم ، من المعبد ومن بحيرته المقدسة ومن قبر أوزيرس Osireion ومن قبور الفراعنة الصاويين ، لم يعد شىء باقيا • وتسمح بركة من الماء وسط حفرة منخفضة بظهور بعض كتل من الأحجار المتناثرة وتعكس السماء ، التى يبدد هدوءها البط والأوز •

ومع هذا ، فقد كانت آلهتها نايت (شكل ١٧) احدى معبودات مصر العظيمة • وتذكر نصوص الأهرام وكذلك نصوص النواويس ، أنها كانت تقوم بحماية آوزيرس والملك المتوفى ، مع أيزيس وسلكس (سرقت) ونفتيس • وقد

كانت بالغة القـدم • وكان رمزها سـهمين متقاطعين ربما فوق ترس (١) • وكان معبدها البدائى ، عظيم البساطة ، يتألف من جوسق من الغاب بسقف منحن ، يحيط به فناء يضم أشجارا مقدسة • ومنـذ الدولة القديمـة يبين دعاء موجه اليها ، علماء اللاهوت وهم يتدبرون النظر فى الصلات التى تجمعها بانه لا يذكر اسمه : « انها هى التى خرجت منـه ، التى خرجت منك » • انها ام وفى الوقت عينه ابنة الاله ، فى نوع من التناسل المتبـادل • ولـكن دورها كمحـاربة بالسهام كان يتيح لها ان ترد أعداء رع ، الشمس ، وكذلك أعداء اوزيريس واعداء الملك • ولن تفقد أبدا هذه الصفة • وقد كانت لها صفة اخرى اكثر غرابة وتخصصا ، فقد كانت تخدر بسهامها الاطياف والكائنات الشريرة ، التى تسـعى فى جنح الليل • ولهذا درجوا على نقش صورتها على الوسائد التى كانت تسـتخدم عنـد النـوم • وكانت تقوم فى علم اللاهوت المتاخـر — باصـدار الأمر الى تيثويس والارواح الشريرة وكانت قادرة على السيطرة عليها •

وكانت تصور فى العصر المتأخر وهى تقوم بارضـاع تمساحين • ذلك أنه كان معروفا منذ أمد طويل أنها كانت أما للاله سبك وكذلك لشو ولتفنوت • وقد كان هذا الرأى رائعا • لقد جعل من نايت آلهة للبدايات الأولى بما أن شـو وتفنوت كانا أول مخلوقين جاءا الى العالم • وكانت أيضـا أما لأوزيريس • وان الدلائل التى قدمها لنا الكتاب الاغريق عن موضوعها لتنطوى على علم لاهوت دقيق تكشف العناصر المصرية المعروفة عن بعض جوانبه ، دون أن تتيح لنا تحديده على وجه التحقيق • ولكن نقوش اسنا التى نشرت وترجمت منذ عهد قريب ، تلقى ضـوءا باهرا عـلى ربة سـايس • وتوضح محتوياتها أن كهنة لاتوبولس (اسنا) أفادوا من وثائق اصلية يرجع مصدرها الى الدلتا وتشهد رسـوم أو

(١) يقول ارمان فى كتابه (ديانة المصريين) انه قوس — (المترجم) •

اشارات أدبية أكثر قدما على أن المبادىء وأن وضعت لتناسب الذوق السائد في العصر الروماني ، فانها ترجع أساسا الى حقبة سابقة له كثيرا ٠

وقد أمكننا أولا أن نحزر بعض قسمات من علم أساطيرها : في البدايات الاولى تحولت الى بقرة ثم الى سمكة لاطس (قشر بياض) lates(١) ولما كانت قد شبهت بالابقار السماوية البدائية ؛ فقد قامت بنجدة الشمس التي كانت قد خلقتها عندما كانت غارقة في العنصر الرطب ٠

لقد وضعتها على رأسها وهي في مظهر البقرة «احت» ثم سبحت وهي تحملها بوصفها « مثير » ٠

وفي معبد بوهن الذي يكاد يواجه وادى حلفا ، ترى البقرة « احت » منذ زمن حاتشبسوت وهي تحمل رع الطفل بين قرنيها ٠ انها ليست أم سبك وشو وتفنوت وحسب ولكنها أيضا أم رع وأوزيرس اللذين ترضعهما كذلك في شكل تمساحين ٠

لقد أضفيت عليها مجموعة من الأوصاف الالهية ، ولنترك مظهرها المحارب ، فقد كان يتيح لها حماية بطريقة نافذة المفعول، خاصة وأنه كان يلبس التاج الأحمر تماما كما تفعل هي ٠ ان هذه الناحية من علم لاهوتها التي يبدو فيها الشكل الآدمي الى حد بالغ ، لا يجب ، أن يخفى ، أنهـا كونية كمـا سبق أن رأى هـذا بروجش وبيريه Pierrets عـلى الـوجه الصائب :

انك القبة السماوية ٠٠

تلك التي أنجبت النجوم ، كلها ، مهما كان مقدارها ٠

---

(١) لاطس Lates niloticus ، سمك في النيل من فصيلة القشور serranidae تعرف له في مصر أسماء كثيرة منها القشر والفرخ وحمار البحر (معجم الحيوان ، أمين المعلوف) ـ (المترجم) ٠

ومن الجلى أنها كانت ترمز الى المكان الذى تكون فيه رع • ولقد كانت كذلك سيدة الصحراء والأقطار الأجنبية وخالقة كل ما يوجد فى باطن الأرض من معادن وأحجار كريمة • لقد كانت هذا « الكل » العظيم • ولما كانت أقدم من جميع الآلهة ، فى باطن المياه الأولى ، فقد جاءت للوجود من تلقاء ذاتها • وهذا هو نعت آتوم أو رع الخاص بهما على قدر ما هما أبديان ولكنه فى صيغة التأنيث • لقد كانت تستحوذ على الأبدية الفضائية والزمنية التى عبر عنها هذه المرة بصور لا تستعير شيئا من جماعة الآلهة الشمسية •

اليك التمجيد ،

عاليا كالسماء ،

والتبجيل ،

عريضا عرض الأرض ،

والتهليل ،

فى كل لحظات الزمن !

ان تبجيل شخصك

يمتد حتى الأخضر العظيم (١)

انها سيدة الحياة الكونية

انها سيدة الصحة

والحياة رهن أوامرها •

---

(١) الأخضر العظيم هو البحر ، وفى اللغة العربية الأخضر البحر (المسلسل ص : ١٥٨ مجموعة « تراثنا ») ـ (المترجم) •

ربما كان لهذا السبب انها كانت تقوم على حماية أوانى كانوب (١) الموتى وتمثلها صورة من أكثر صورها التى تملكها اغراء ، وهى تقوم مع ثلاثة من صواحبها ، بحراسة اوانى كانوب توت عنخ آمون • انها كانت تملك « كل القدرة » • والتى كانت تتجلى ، على الاخص ، فى «ازدواج» وقد كانت مذكرا ومؤنثة فى آن واحد ، وهو ما عرفناه من حرابولون Horapollon • وتشرح هذه الامكانية انها كانت تستطيع ان تكون قدرة خالقة كالاله بتاح ، دون اية معونة خارجية • وذلك ، دون ريب هو السبب الذى من اجله لا نعرف لها اى قرين •

وكانوا يستخدمون التورية فى نطق اسمها القريب من النيض ويقولون انها المحيط الازلى وانها كانت سابقة للاله تاتنن والاله نون ، الذى يصبح ابنها وكذلك فانها هى الخالقة الوحيدة •

ان كل ما هو كائن خرج من نسلها

ولا يوجد كائن ولد خارج ما قامت بصنعه

(ترجمة سونيرون) •

تجمع النصوص أحيانا على انها خلقت الزمن وكل عناصره • كما تستخدم الأسطورة أحيانا • وكان من المسلم به أن اله الشمس رع هو الذى قام بعملية الخلق فى البدء • ثم ان نايت بعد أن نسلت الآلهة الأزلية ، دون أسماء ودون تحديد كامل لها قد أخبرتها سلفا بكل ما ستصنعه الشمس ، وقد كانت كلماتها خالقة • ولقد « لفظت » ايضا اسم « الشمس » وكان هذا معادلا لجعلها تظهر للوجود • واذا كان رع بعد ذلك قد خلق تحوت ، فانه كان من خلق نايت فى المرتبة الثانية • فهى فى النهاية منشئة جميع

---

(١) الأوانى التى كانت تحفظ فيها امعاء الميت بعد انتزاعها منه ـ (المراجع) •

مواضع الخلق المعروفة فى مصر وكذلك الآلهة التى صورت الخلق • لقـد صنعت مصر ، مركز العالم ، بأكملها وكذلك بوتو وعلى الأخص « دب » وسايس واسنا وهذا دون حاجة لقول • والاله رع فى مظهره المزدوج كآمون القديم وكخنوم وجماعة الهة هرموبوليس الثمانية التى لا غنى عنها وأتوم ، وهى أم لأوزيريس ، النبات المتكاثر •

ما أبعـدنا عن الارشـادات الهزيلة التى كان علينا ان نقتنع بها ! • حين نرى تمثال الفـاتيكان حامل النـاووس naophore : يسميها أم رع التى أسـهمت فى ميـلاد جميع الآلهة • حقا ان التمثال الشافى المحفوظ فى اللوفر يحـدد أنها كانت أما لحورس ، وهو ما يؤدى الى تشبيهها بايزيس • كما أن ترانيم الصلوات فى اسنا تشبهها بسوثس (الشعرى) وبسشـات وبمنحيت وبنبوت وبمـوت وبنخبت وبسـخمت وبنوبت وبوررت وبحاتحور وبباستت • وهذا يجعل منهـا المعبودة الواحدة ، التى ذابت فى شخصيتها الآلهة والالهات ، لهذا نفهم تماما لماذا استطاع يمبلك أن يذكر فى « الشعائر المحجوبة المصرية » ذات التقليد المذكور فى المقادس والمكتوب بالهيروغليفية فى مدينة سايس المصرية : والذى يقـول ان اسم الاله معناه ذاك الذى ذاع فى العالم كله •

واذا رحلنا عن سايس ويممنا وجهنا صـوب الشرق ، على نفس خط العرض مجتازين المزارع اليانعة والقنوات ، فاننا نصل الى سمنود الحالية ، على حافة فرع دمياط • لقد كانت فى القدم سبنوتس Sebennytes ، العجل الالهى ، مهد ملوك آخر اسرة وطنية • والتى غدا أنورس ــ شو ، ابن رع ربها وسـيدها وحتى لو سـلمنا بأن العجل الالهى ، الأكثر قدما ، كان يمثل حورس ، فقد كانت قرينتـه تفنوت التى مثلت بمحيت أو بباستت • غير أن أوزيريس وايزيس كان يقيمان بها أيضا •

وليس فى الواقعة ما يستغرب عنـدما يعلم أن هـذه البلدة تقع فى منتصف الطـريق بين مدينتين متقـاربتين ، بهبيت الحجر الى الشمال واسمها القـديم اسـيوم Iseum مقر ايزيس ، وآبو صير (بوصيرص) الى الجنوب « جدو » وطن آوزيريس ، ومن هذه المدينة الأخيرة لم يعثر الا عـلى تل من التراب تقبع فوقه قرية حديثـة • ومن اســيوم ، لا تزال توجد كومة من كتـل الجرانيت تزخرفهـا رسـوم دينية • وهذا هو كل ما تخلف عن معبد عظيم يرجع تاريخه الى الملوك المقدونيين الأوائل وان كان الها المدينتين بالغى القدم • ولقد أشرك أوزيريس (شكل ٢١) فى (أبو صير) باله يدعى عنجتى ، لم يغمره النسيان تماما ولـكن شـخصيته محتها ، الى حد عظيم ، شخصية رفيقه • عـلى أن الاسطورة الأوزيرية هى واحدة من أعظم الأساطير التى خلفتها مصر القديمة ، اثارة للمشاعر • ان معالمها الجوهرية توجد منـذ عهد الأهرام ، ولكن لم تصل الينا قصة متصلة لأحداثهـا فى المصادر الوطنيـة • ويجب أن تحللها وفقـا للعجـالة التى صنفها بلوتارخ عن ايزيس وأوزيريس •

ولقد ولد أوزيريس وحورويرس وست ايزيس ونفتيس على هذا الترتيب، من نوت الهة السماء فى خلال أيام النسيء الخمسة، ولقد تزوج أوزيريس من ايزيس وست من نفتيس• وعندما أصبح أوزيريس ملكا ، علم الناس الزراعة وتربية الماشية والفنون وعلى وجه الاجمال الحضارة • ولما لم تكن لست قدرة على الخلق ، فقد أتاه النجـاح ، بمعونة شركائه المتواطئين معه ، على أن يورد أوزيريس موارد الهلاك وذلك بأن حبسه ، بطريق الحيلة ، فى صندوق ألقى به فى اليم • وعمدت ايزيس وقد ألمت بها الفجيعة الى البحث عن الجثمان وفى خاتمة المطاف وجدته فى ببلوس التى رسا فيها • ولقد نمت شجرة خلنج (١) حول التابوت ووقته بخشبها• وانتهت

(١) Erica, arborea ـ خلنج ، اريقى
E. Aegypiacus ـ زبل الفار ـ ريحان فاسد ، عن معجم النبات الدكتور احمد عيسى ـ (المترجم) •

الحال بالآلهة ، بعد أن حازت على عطف ملكة المنطقة ، بأن تستعيد جثمان زوجها الذى حملته الى مصر • وفى أثناء ذهابها لبوتو ، لرؤية حورس الصغير ، وجد ست الجثمان ، الذى كانت ايزيس قد أخفته ، وجزأه الى أربع عشرة قطعة القى بها فى النهر • ولقد أخذت ايزيس على عاتقها البحث عن الأجزاء المختلفة واقامت قبرا فى كل مدينة عثرت فيها على جزء منها • ولكن بلوتارخ ، حتى لا يفشى أسرار الشعائر المحجوبة يمسك تماما عن الافصاح بأن ايزيس نجحت فى اعادة الروح الى بقايا الاله وأحيت زوجها الذى كان عليه ، منذ ذلك الحين ، أن يحكم الأموات • ومع هذا ، فانه يضيف بأنه أصبح لها من أوزيريس ، بعد موته ، « حربقراط » الصغير ، مما يفهم منه أن أوزيريس عاش من جديد ، ولقد قامت بين حورس وست سلسلة من المعارك والمناظرات انتهت بالانتصار النهائى لحورس المنتقم لأبيه •

ونستطيع ــ من الناحية الشكلية الخالصة ــ أن نجد ــ بفضل متنوع الصيغ البديلة التى أوردها بلوتارخ أو جمعت من التلميحات المصرية ، أن علماء اللاهوت عانوا مشقة فى ادماج حورس فى جماعة الآلهة الأوزيرية • لقد كان حورس (راجع الأشكال ٦ ، ٩ ، ١٠) الها للسماء سحيق القدم ، وراعى الملكية منذ عصر ما قبل التاريخ • وكان له شكل الصقر وكان يرتبط بمواضع محددة تمام التحديد ، مثل مدينة ادفو ، ومثل مدينة بحدتى أى تل البلامون فى الشمال • منذ البدايات الأولى ، هو حورس • وقد كان ، بوصفه اله الملكية ، المنظم الذى يدفع الفوضى والصحراء لأنه سيد القطر الاسود أى وادى النيل الخصيب ، « كيمى » • وكان له ، طوال الزمن عدو هو ست (شكل٢٨) ، العقيم ، اله القطر الوردى اللون « دشرت » • وكانت المعارك التى قامت بينهما مروعة وعلى الرغم من انتصار حورس ، فان ست لم يهزم هزيمة ساحقة على الاطلاق ، وكان الصراع يعود بينهما من جديد • وكان يبدو انه آثر

على الملكية ، عينها ، في نهاية الاسرة الثانية ، حيث أعلن ملك انه ست وليس الاله حورس • كيف أمكن النجاح فى ادخال حورس القديم فى الجماعة الأوزيرية ، التى كانت لاحقة له ؟ ان علماء اللاهوت لا تعوزهم الشروح بتاتا • لقد ذهب تصورهم الى أن ايزيس وأوزيريس قامت بينهما علاقات وهما فى بطن أمهما نوت ، وأنه على هذا النحو ، كان حورس القديم ابنا لهما •

ومهما كان الأمر ، فان عبادة أوزيرس ترجع الى عهد بعيد القدم في شرقى الدلتا وربما كانت تقوم صلة بينهما وبين عبادات آسيا القريبة ، في عهد ما قبل التاريخ • انه اله الزرع بينما ست ، وقد توطد كذلك منذ عهد بعيد فى نفس المنطقة ، هو اله الحرب والصحراء المجدبة • لقد تشكلت أسطورتهما ، دون ريب ، شيئا فشيئا ، قريبا من نهاية عصر ما قبل التاريخ • ثم حدث ابان ازدهار الدولة القديمة ان امتزجت بأسطورة حورس وست وتوحدت التقاليد وامتد سلطان أوزيريس من الدلتا الى مصر العليا حيث أقام في ابيدوس • ومن الجلى أن طابع الأسطورة الانسانى العميق قد قام بدور جوهرى فى نشر العبادة • ان وفاء ايزيس لزوجها وحب الأمومة التى يتملكها وصراع حورس للانتقام لأبيه والاستيلاء على ارثه كانت خصالا من شأنها أن تلمس قلوب الأوفياء وتوسع دائرة المؤمنين • وكما أن أوزيريس قد أصبح الها للموتى ، فقد استطاعت ايزيس العثور على « دواء الخلود » ووفقا لما جاء في ديودر ، كانت « المخترعة لكل حياة » كما قال التقى ازيدوروس Isidoros • لقد صنعت من أوزيرس بسحرها نموذج الموتى الذين استدعتهم لحياة سعيدة • وبفضلها كان أولئك الذين يتخذون هوية أوزيريس ، الذين يصيرون أوزيريس بالاشتراك في شعائره المحجوبة ، يجدون الحياة ويوطدون من جديد ليعيشوا الى الأبد • ولقد أصبح الدين الأوزيرى دين الخلاص • وبهذه الصفة ، برزت كل الأسطورة الأوزيرية في نصوص الأهرام ،

للحصول على الخلود للملك • وفى الدولة الوسطى يرى المرء كل عامة الشعب يتمنون « التأزر » ، اذا جسرنا على المجازفة باستخدام هذا التعبير •

على انه لم يكن كافيا ـ لكى يتحول المرء الى اوزيريس ـ أن يتلقن الشعائر المحجوبة ويمارس الفرائض وانما كان من الواجب ان يسير وفق المثل الاعلى الخلقى عند الاله الذى قدم للناس الحضارة • لقد كان أوزيريس اله الخير • وعلى هـذا كان واجبا على الانسان الذى يريد التمثل به ، ان يتمرس بالخير • وقد كان على اوزيريس ان يحاسبه قبل أن يدخله حياة النعيم ، وفى عهد الامبراطورية الحديثة ، يقدم كتـاب الموتى فى استفاضـة ، قائمـة الذنوب التى كان يجب أن يكون المرء مبرأ منها حتى يمكنه أن يجتاز مظفرا المحكمـة المروعة •

وبعض هذه الخصال على أرفع مستوى خلقى : « لم اكن سببا فى بكاء احد ، لم أصب أحدا بألم ، لم أبعد اللبن عن فم صغار الأطفـال ••• لم أجـدف عـلى الاله ، لم أمتلىء صلفا » • وهكذا وسع دين اله (أبو صـير) ، دون انقطاع ، دائرة اشباعه • والملوك الذين درجـوا فى الأسرة الثامنـة عشرة على وضع أوزيريس، يمثله الزرع النامى، فى قبورهم لم يتخلوا عن ذلك لصالح الشعب وحده •

وفى عهد الامبراطورية الحديثة خلع دين آمون عـلى نفسه خصيصة خلقية جلية كل الجلاء • كان اله الامبراطورية يحتم على الانسان احترام العدالة وأن يتقرب بهـا اليـه ، وكثيرا ما كانوا يعرفون آوزيريس ـ مستخدمين التـورية باسمه « الخفى » ـ بانه « ذاك الذى يستخفى اسمه » وذلك أن مقتضياتها الخلقية كانت متقاربة •

وإذا كان عدم جمع الوثائق كلها حتى اليوم قد جعل من العسير علينا أن نتقصى تاريخ غزو أوزيريس للسماء المصرية ، فان المرء يطالع منذ العهد الأثيوبى توسعا بالغا فى عبادة هذا الاله • ففي الكرنك ، يحيط معبد أمون بهياكل من كل نوع وينتهى بأن يستحوذ فيه على معبد مولده • ان أربع عشرة أو ست عشرة مدينة تحتفل ، فى ورع شديد ، بأعياد البعث فى شهر كيهك وقد أقامت ايزيس فى كل منها ضريحا بعد عثورها على جزء من الجثمان المقدس •

ولقد ذكر تعدادها فى عناية ، فى الورد المحضور فى أحد القبور الأوزيرية فى دندرة ، وقد كانت ايزيس تحتل الى جوار زوجها ، مكانا هاما • ان الام التى تستدر الشفقة وهى ترضع الطفل فوق ركبتيها بعد اغتيال الاله ، كانت صورة تثير المشاعر الى حد بالغ جعلها تأخذ مكانها فى القلوب • وفي عهد أسرة لاجوس اجتاز الثالوث الاوزيرى حدود موطنه الضيقة •

ولما لم يكن للاغريق ما يعادلها فقد تبنوها فى يسر • وقد كانت لها معابد فى ديلوس فى القرن الثانى ق•م ، وفى بومباى ، توجد معابد وبيوت وأثاث قد نقشت عليها مراحل تطور دين ايزيس فى ايطاليا •

ولقد جاء عرض لها فى قصة ابيليه دى مادور Apulée de Madaure • ووصلت الى بلاد الغال وشطوط الراين ، شمال ـ شرقى الامبراطورية ولم تخل مكانها الا للمسيحية •

وفى مصر نفسها ، يمكن تقصى المنعطفات التى ارتفع بها أوزيريس وايزيس ـ اللذان لم يكن لهما الا دور ثانوى ، على غرار كثير من الأرباب المحليين غيرهم ـ الى مرتبة الهة الكون • ان مغزى الأسطورة ، فى الواقع ، واضح كل الوضوح • ان أوزيريس ، اله الزرع يموت أثناء فصل

الجفـاف . ويغطى الفيضـان الأراضى الصـالحة للزراعة. ولا يبرز من المياه غير القرى أو الصحراء الصهباء وحينئـذ يكون هو المظفر .

ولكن ايزيس تعيد للحياة زوجها ، ومن جديد ، تعمل الارض على ان يخرج النبات فيحيا وياتى بالثمار ، على شريطة أن يســود القطــر النظــام . وكذلك يرمز اوزيريس الى الحضارة . انه هــو « الذى يرسى ماعت فى ارجاء الشــط المزدوج (مصر) والذى يضع الابن على كرسى أبيه ، الذى لا يكف عن تقديم الحمد لابيه جب والذى لا يكف عن حب امه نوت » . انه يتقاسم مع رع حق توطيد ماعت وربما كان له هذا الحق منذ القدم . وفضلا عن هذا ، فانه يعـد الهـا ازليا منذ الدولة الوسطى . وحكمه كونى ويمتد فوق الماء والهواء وحياة الزرع والتربة والســماء . لقـد مثل برع نفسه واصبح الها خالقا دون ريب فى اثر الاله الشمسى .

وكذلك أضفيت عليه نعوت آموت : انه « ملك الآلهة » او بالمعنى الحرفى « الملك الجنوبى والشمالى للآلهة » . هو فى كلابشة فى النوبة « ملك مصر العليـا ومصر الســفلى ، الوصى ... حاكم جميع الآلهة ، الذى خـرج من الـرحم واليورايس عـلى محيـاه وقد خلق قرص الشمس فى رحم امه » . ومنذ عهد الامبراطورية الحديثة ، كذلك ، تصوره فى شكل ينتمي الى مذهب وحدة الوجود (١) ، الذى كان قد تاكد فى الدولة الوسطى :

ان تربة الأرض فوق ذراعيك ،

وأركانها تستقر فوقك ،

حتى عمد السماء الأربعة .

---

(١) Panthéisme – مذهب وحدة الوجود . مذهب من يجعلون الله والعالم شيئا واحدا وله صورة مختلفة باختلاف الفلاسفة – (المترجم) .

واذا تحركت ، فان الأرض ترتعد ٠٠٠

ان كل ما يوجد فوق الأرض

يظل فوق ظهرك

وكل شيء يستقر فوق عمودك الفقارى ٠

انك أب الناس وأمهم

انهم يعيشون بأنفاسك

انهم يطعمون لحم جسمك ،

والاله الأزلى ، هذا هو اسمك ٠

ومنذ الدولة الوسطى ، كان له أسماء متعددة ٠ وفى عهد البطالمة ، يشير كتاب دعاء وردت فيه أسماء جميع الآلهة ، فى جلاء ، الى أنها اسماء اوزيريس ، المعبود الأصلى ٠

ولم تكن ايزيس ، من جانبها ، مدينة بشيء لزوجها ٠ من الجائز أنها كانت فى البدايات الأولى الهة سماء ٠ وعلى أية حال ، فانها منذ زمن مبكر جدا ، اتخذت شخصية الهات أخريات وفى العهد المتأخر أصبحت عند المصريين ، قبل أن تصبح فى العالم الاغريقى ــ الرومانى ، معبودة كونية ، وفى طيبة ، يعلم الكهنة أن « أفق السماء الغربى بين ذراعى ايزيس ، والشرقى بين فخذيها » وفى دندرة « أنها جاءت للوجود فى البدء » مما كان يجعل منها الهة أزلية ٠ وهناك يقوم خلف معبد حاتحور المقدس الذى ولدت فيه ، « فى ذلك النهار الجميل لليلة الطفل فى مهده ، ذلك العيد العظيم الذى يعم نطاق القطر بأجمعه ٠ وقد ولدت ايزيس فى دندرة أنجبتها « ابت » المبجلة (وهذا اسم لنوت) فى هيئة امرأة سوداء ووردية ، ممتلئة حياة ، عذبة الحب ،

وقد قالت لها أمها (نوت) عندما رأتها : «كونى خفيفة (از) لدى أمك!» وهذا هو السبب فى أن اسمها كان ازيس»(١).

ان هذا الاشتقاق ليس افضل مما يجرى عليه المحدثون ولكن له ميزة ان به ، على الاقل ، رشاقة ورقة ، وهنا أيضا تذكر النقوش الدور الذى أدته الالهة في الخلق . لقد غدت ما كانت ستؤول اليه ايزيس ابيليه Isis d'Apulée انها فريدة. تماما على شاكلة ايزيس مدينة ماضى أو ايزيس بردية أوكسورنخوس Oxyhinque (البهنسا) :

« انها « ننحبت » في الكاب و « تاننت » في هرمونش (أرمنت) و « ايونيت » في دندرة و « ايزيس » في أبيدوس و « سشات » في أونت ، و « حكت » في انطينوى ... و « نايت » فى سايس ... وسيدة فى كل مقاطعة ، انها هى التى توجد فى كل مدينة ، فى كل مقاطعة مع ابنها حورس» .

انها لا تختلف عن نايت أو عن غيرها من المعبودات المصرية المحلية ، بما لها من ادعاءات ، غير أن من المؤلم أن نرى هذه الادعاءات لدى آلهة نازعت مثرا ونازعت المسيح على السيادة الدينية فى عالم البحر المتوسط .

* * *

في استطاعتنا أن نجتاز في سرعة شرقي الدلتا ، الآن ، ونهبط الى هليوبوليس . ذلك أننا لن نجد مصادر تتيح لنا ان نعيد تكوين علوم لاهوت مماثلة ، واذا سرنا الى الشمال ، والى الشرق من فرع دمياط ، نجد تل البلامون الحالى يحتل موضع سام ــ يحدث ، موطن حورس ادفو . وهو ، اله مصر السفلى ، الذى ناضل ست ، اله أومبس ، وكان قصارى أمره أن تغلب عليه في كل مكان ، أو استبعده . وكان يرسم فى

---

(١) وقد عبد صنم فى الجاهلية باسم أسيه ــ (المترجم) .

شكل قرص بجناحين منشورين · ومع هذا ، فقد كان عليه أن يرجع القهقرى أمام جار مقلق له ، هو آمون الذى كان يقيم على مقربة منه مع موت وخنسو · وعندما نعبر النهر صوب الجنوب · فاننا نصل الى طما ـ الأمديد ، منديس القديمة حيث كان يعبد كبش يدعى « الكبش ـ سيد ـ منديس » · على أنه يحتمل ـ فى الواقع ـ أن يكون الكبش قد أخذ مكان تيس قديم له قرنان أفقيان انقرضت سلالته فى الدولة الوسطى ، فقد كان هو وحده الذى يستحوذ على مثل هذه القرون · لقد كان اله الخصب والتناسل · وكانت قرينته الالهة حاتمحيت التى ترسم وفوق راسها سمكة ·

وصوب الشرق ، وعلى بعد قرابة ثلاثين كيلومترا ، فى خط مستقيم يغطى موقع صان الحجر ، فسيح الارجاء ، مدينة تانيس القديمة ، التى شيد بها ملوك الأسرات التاسعة عشرة والعشرين والواحدة والعشرين ، معابد بالغة الاهمية · وكانت معبوداتها آمون ورع وبتاح وست وآتوم وأوتو (واجيت) · وكان يتقبل العبادة فيها ايضا ، حورون وعنات، وهما من أصل سامى · وكانت عنات تستحوذ فيها كذلك على معبد شخصى · غير ان هذه الآلهة لم تكن لها ـ كما نرى ـ خصائص الآلهة المحلية · ويبدو أنها تجمعت بارادة حكام كانوا يرغبون فى تطور تلك المدينة فى الدلتا، نظرا للصعاب التى يمكن أن تقوم فى الشرق · وكان لست الذى تعرف الهكسوس شخصيته فى معبودهم الأصلى الذى لا شك فى أنه بعل ، مقر هو الآخر فى هاتيك المناطق وعلى الأخص فى مدينة آفاريس الممقوتة ، التى كانت أسراتهم تحكم منها مصر « دون رع » · وعلى مسافة أبعد الى الشرق ، فى ثارو ، التى يرجح أنها القنطرة الحالية ، على حافة قناة السويس ، كان يعبد حورس فى رفقة أوزيريس وايزيس ·

وفى العودة صوب الدلتا ، كانت شدنو القديمة ، فاربيثوس pharbaithos وهربيط الحالية ، مركزا لعبادة حر

مرتى « حورس ذى العينين » • وكانت هاتان العينان وهما ، الشمس والقمر ، قد انتزعهما ست منه فى خلال معركة ثم أعادهما اليه تحوت • انه يشن قتالا مع المارد أبوفيس الذى تعرفوا هويته فى العهد المتأخر فى ست ، بينما كان ست قد حارب فيما سبق عدو الشمس •

ويبدو أن حاتحور ــ ايوساس وأوزيريس كانا الهين شريكين • وعلى مسافة أخرى الى الغرب ، كان يوجد فى ليونتوبولس ، تل المقدام الحالية ، معبد « الأسد ــ ذى ــ النظرة ــ المتوحشة » ميوسس • ويبدو أن الاله لم يكن بالغ القدم • انه محارب يصارع مع رع ضد أبوفيس • وهو يقدم أحيانا على أنه اله شمسى وتنسب اليه نصوص اغريقية خصال اله ريح وعواصف •

وكان يربى فى معبده « أسد ــ حى » ، وكان يدفن فى ضريح قريب ، وكان ميوسس يعتبر ابنا لباستت التى كانت جارة له • وكانت باستت تسود دون منافسة فى بوباسطة ، حيث كان لها معبد عظيم ، توارى اليوم •

لقد كانت معبودة ترجع الى عهد بعيد القدم ولكن من العسير تعريف شخصيتها لأنها أحيانا تكون قطة وأحيانا أخرى لبؤة وكانت منذ نصوص الأهرام ، تمثل بالهات أخريات • ومع هذا فان ، ما كان يبدو أنه يغلب عليها هو الوداعة • وكذلك كان يقال عن حاتحور ، « انها سخمت فى الغضب وباستت عندما تكون فرحة » وكانت تقام من أجلها أعياد تطابق عيد النشوة الحاتحورى ، وقد وصف هيرودوت مظهرها فى القرن الخامس وذكر : « انه يتناول أثناء هذا العيد مقدارا من نبيذ العنب أكثر مما يتناول بقية العام » • وكان المعبد يضم قططا مقدسة •

وقد عثر على مومياوات لها وكذلك على عدد لا يحصى من التماثيل الصغيرة البرونزية التى تمثلها • وفى النهاية ،

ألف الكهنة ثالوثا كان آتوم يقوم فيه بدور الزوج وموسيس وحد ـ حنكو بدور الابن ٠

ومن بين معبودات وادى الطوميلات ، يجب على الأقل أن تكون لنا معرفة بالمعبود الأعظم أصالة ٠ « سبدو » رب صفط الحنة باسبدو القديمة ٠ ويحمل هذا الاله ـ الذى يمت الى اصل اسيوى يرجع الى عهد ما قبل التاريخ ـ لحية سامية كاملة كثيفة وليست لحية الآلهة المصرية النابتة عند الذقن وحدها ويعلو راسه تاج وريشتان محدبتان لهما مظهر اجنبى يلاحظ كذلك فى منزره الذى يشده حزام ، ولذا كان سيد البلاد ـ الاجنبية وسيد الصحراء الشرقية ٠ وقد امتد نفوذه ليس الى آسيا الدانية والى شبه جزيرة سيناء وحسب ، ولكن كذلك الى ساحل البحر الاحمر حتى القصير ٠ وقد اعاروه رأس صقر حورس ليبدو فى مظهر اكثر مصرية وشيئا فشيئا ربطته عوامل التمثيل بحراختى وشو وموسيس ٠

وعندما نعود صوب منف (ممفيس) ، فاننا نصل الى ليونتوبولس أخرى ، تدعى تل اليهودية ، تكريما لذكرى المعبد المنافس لمعبد أورشليم (بيت المقدس) الذى قام بتشييده أونياس والذى أغلقه فسبازيان Vespasian وكانت تقدم العبادة فيه لشو وتفنوت ، ولكن من العسير القول ان عبادتهما المحلية كانت قديمة ، بينما كان هذان الالهان ـ كما يبدو ـ شخصيتين لاهوتيتين على وجه الخصوص ٠

ونصل فى خاتمة المطاف ، الى هليوبوليس « مهد كل اله » ، كما جرى عليه القول ، فى الدولة الوسطى ٠ ولا شيء أعظم مدعاة للأسى من أن معبد تلك المدينة توارى تماما ولم تبق الا مسلة سنوسرت الأول ، التى تشير الى مكان المعبد ، مع أن عمائرها الدينية كانت تنافس عمائر طيبة ومنف ٠ لقد شاهدها هيرودوت فى تمام بهائها وقدم اليها أفلاطون

ليناقش كهنتها · وكان يوجد بها بخلاف معبد رع ، الذى كان طول احد جوانب فنائه يزيد على ألف متر ، معبدا أتوم وحورس · وكان يطلق على المدينة اسم « آون » يضاف اليه « رع » أو « الشمال » للتفريق بينها وبين هرمونتس (ارمنت) او دندرة · وفى البداية كان آتوم سيدا لها : انه اله للعالم السفلى وكان حيوانه المقدس النمس ، ودون ريب ، ثعبان الماء (١) وقد كانت هذه السمكة ، على اية حال ، هى التى تصور على الصناديق الصغيرة المصنوعه من البرونز فى العصر المتاخر والمرتبطة بعبادتها · لقد كان اتوم ازليا وخالقا · لقد تجمع مكتملا ــ كما كان يقال بالتورية باسمه ــ فى باطن المحيط الاول · ثم ظهر تل الرمال الذى استطاع الوقوف فوقه لخلق اول زوج · ولقد تعرفوا هوية ذلك التل فى الحجر « بنبن » ، الذى ظهرت فوقه الشمس ·

ولكن ما يميز مدرسة هليوبوليس هو طابع تفكيرها النظرى وقد تبنت فى البداية ــ ولا تدرى كيف حدث ذلك ــ الى جانب الاله اتوم ، الاله رع الذى يحمل اسم الشمس ، عينه ، فى اللغة المصرية · ولهذا فان هويته جلية تمام الجلاء · وقد كان أيضا الها خالقا ، démiurge على شاكلة اتوم الذى يحتمل أنه استعار منه اكثر من قسمة مميزة · ولكنه أضفى عليه طبيعته الشمسية فكيف أمكن تنظيم وجود هذين الالهين معا ؟ لقد ذهب تصور الكهنة الى أن آتوم كان شمس المساء ، قريبا من (اتمام) نفسه على الأرض بينما رع كان شمس الظهيرة ، فى السمت · وكان يكفى خلق شكل من شمس الصباح ، فكان الاله خبرى « ذاك ــ الذى يجىء ــ للوجود » يمثله جعل يكتب اسمه بنفس الحروف الأصلية · وكذلك ، يقرأ الانسان فى ورد يرجع

(١) anguille اسمه العلمى Anguilla vulgaris, Eel انقليس وانكليس (يونانى معرب) سمك فى المياه العذبة والبحر الملح يعرف فى الشام بالجنكليس وفى مصر بثعبان الماء · معجم الحيوان ــ امين المعلوف ــ (المترجم) ·

الى عصر الامبراطورية الحديثة وان كان مضمونه يرجع الى عهد أبعد قدما :

التحية لك يا أتوم ! التحية لك يا خبرى !

لقد جئت للوجود فوق التل الأزلى ،

لقد ظهرت فوق الهريم فى مصر العنقاء فى هليوبوليس.

واخرجت من فمك شو وتفنوت .

وفضلا عن هذا ، كان رع يرتبط بحراختى العتيق ، حورس الافق . كما كانا ـ في غالب الاحيان ـ يمتزجان باسم رع حراختى الذى كان يرسم كانسان له راس صقر يحمل قرص الشمس فوق راسه . ولم تكن هذه المعبودات الثلاثة تشكل في الماضي غير معبود واحد ، في نظر علماء اللاهوت . ويمكننا أن نحدس تاريخ تطور رع ، بفضل هذه الأسباب التي تربطه بالملكية . وقد نجح في عهد الاسرة الرابعة في فرض نفسه الى جوار اله الامبراطورية ، بتاح ، وأضاف الملوك الى قائمة اسمائهم اللقب الجديد « ابن رع » . وتعرض اسطورة كيف أن الملوك الثلاثة الأوائل في الأسرة الخامسة كانوا أطفاله بأجسادهم ، وتعبر الأسطورة عن ذلك بمصطلحات يتبين فيها المرء تكييفا لموضوع يتصل بالصلاة يطلق عليه فيما بعد « المولد الالهى » . ونحن نعرف صيغة منه ذات طابع عتيق جدا ، من عصر حاتشبسوت وكانت ما تزال تقدم في صورة تتضمن تعديلا طفيفا خلال الأيام التي كان أنطونيو وكليوباترة يريان في ذاتهما تجسيدا لآلهة الاغريق .

كيف حاول علم لاهوت هليوبولس تنظيم جماعة الآلهة وتوحيد هذا العالم الالهى ، الذى لا نهاية له ، اننا سنرى هذا على التو . يجب أن نضيف فقط أن ثورا ، يشبه العجل أبيس وهو منيوس (مرور) ، كان يكرم فى هليوبوليس

ويطلق عليه كذلك فى زمن متأخر « رسول رع » • وكانت له مهام تشبه تماما مهام ابيس ، دون ان يعرف مثل تلك الشهرة الواسعة • واخيرا فان البلشون الرمادى ، الطائر بوينى (بنو) الذى نسخ بالاغريقية Phoinix (وهو العنقاء) عرف شهرة واسعة ، وعلى الاخص منذ ان قص هيرودوت مغامراته الاسطورية •

* * *

هكذا ينتهى حجنا للمعابد المصرية • وقد كان فى قدرتنا ان تضاعف وقفاتنا الى مالا نهاية ، فما توجد قرية فى الوادى ، لم تستحوذ على معبد لها ، مهما كان شأنه متواضعا ! ولقد تلبثنا فى بعض الامكنة التى كانت موضوع بحوث حديثة ، غير مستهدفين سوى توضيح كثافة التقاليد الدينية ، عندما تسمح الوثائق بأن نعيد تكوينها • وقد يحدث احيانا أن تكون الكتابات الأدبية فى احدى المدن وفيرة ، تتيح لنا أن ننفذ الى أعماق خصائص أحد الآلهة ، كما يحدث نقيض ذلك فى احيان أخرى • حيث توجد عبادات لابد انها كانت على درجة عظيمة من الأهمية ، لا يمكن أن نعرف الا النزر اليسير عنها لنقص المعلومات • ان العلم بان قديسا يكرم فى احدى كنائسنا لا يسمح الا قليلا ، بمعرفة عبادته وشخصيته ، فى حين أن الشىء الذى يجب الوصول الى التثبت منه هو قدمه وأصله • أى قديس من بينهم ، يحتفظ فى كنيسته بأحجار يرجع تاريخها الى عصر سابق للمسيحية ويملك أحيانا مزايا ما تزال قادرة على التأثير ، ففى احد وديان جبال البرانس يوجد هيكل منعزل ، شيد فى القرن الحادى عشر آدمج فى بابه مذبح نذور عتيق مقام للاله المحلى • وقد أقيمت كنيسة للعذراء « نوتردام » معلقة فى سطح آحد جبال الجنوب العصية فوق سقيفة حجرية (دولمن) (١) من عصر ما قبل التاريخ • كما

(١) Dolmen — اثر يتألف من حجر عظيم مستو فوق احجار منحوتة ، قائمة تتكون غرفة دفن ، فى عهود ما قبل التاريخ — (المترجم) •

أن كاتدرائية سوراكيوز Syracuse بنيت داخل معبد للآلهة أثينا ، وتسمح دراسات تجرى في عناية بأن نرى ما اذا كانت الاعياد التي يحتفل بها لهؤلاء القديسين او القديسات والقدرة التي تنسب اليهم لا ترجع الى زمن بعيد في عهد ما قبل التاريخ او فى العهد التاريخي • لقد امكن وضع كتاب عن القديسين ، خلفاء الآلهة ••• ولقد لاحظنا اننا مهما رجعنا الى اعماق تاريخ احدى العبادات و العقائد في مصر ، فاننا لا نصل بتاتا الى حالة سابقة للمصرية ، ولكن ، على الأكثر فى استطاعتنا احيانا أن نستشعرها سلفًا • وكذلك فليس في قدرتنا أبدا أن نلمس تغايرا جذريا بين مراس ديني ما ، وبين علم اللاهوت الشامل ، وما أندر أن يحدث أن نجد بعض القسمات الخاصة التي نجد أسبابا لنسبتها الى مدرسة محلية ! • على أننا لا يمكن أن نكون على يقين تام من أننا أصبنا الحقيقة ، وعلى أية حال، فاننا لا نصل الا الى آراء دينية مزجت وأعيد مزجها واختلطت بكل علوم اللاهوت الأخرى وتأثرت بالكثير من جانب شعب قديم جدا ، ولم تبذل المحاولات لتوحيدها وحسب بل ولاعطائها شكلا واحدا ، وقد أعيدت صياغتها الى الحد الذى يصبح معه من العبث الاعتقاد بامكان الرجوع الى المصادر الأولى • فهذه المصادر تقع قبل اختراع الكتابة وتخفى علينا كل الخفاء • ومنذ الأسرة الثالثة ، كان المصريون الذين دونوا كتابة النصوص الدينية أو صنفوها ، قوما على درجة بالغة من التحضر والتهذيب فسروا على أسلوبهم وعرضوا على نهجهم ، الأساطير والشعائر وعلم اللاهوت • ولن يتاح لنا الخروج من الكساء الذى نسجوه لمعتقداتهم ، ويبدو لنا أنه سيكون وهما تاما أن نعتقد امكان الوصول بالتحليل الى اكتشاف عناصر غير قابلة للايجاز •

الفصل الخامس

● التحديد اللاهوتى

من بين القوى الالهية التى كانت تعبدها مدن مصر وقراها ، قوى كانت تعبد فى كل مكان مع انه لم يكن لها معبد فى اية جهة . وهى المعبودات الجغرافية او الزراعية او الآلهة المألوفة • كانت تقدم للنيل قرابين فى جبل السلسلة وفى الفنتين وفى شمال ممفيس عند منبع نيل مصر السفلى • وفى زمن هذه الأعياد ، فى الوقت الذى كان يصل فيه الفيضان ، كانت تغنى الأناشيد التى تؤكد مصدره الأسطورى : لقد كان ينبع من المحيط الأزلى • وكان هو نفسه ذلك المحيط الذى جاء ليخصب مصر • ولكنه ظل خافيا : « ان المكان الذى يقيم فيه ليس معروفا • ولا يجد المرء كهوفه بفضل نجدة الكتب » ولم يستطع المصريون وفقا لما جروا عليه ، أن يحجموا عن جعله الها ازليا لقربهم الكبير من المصادر الأولى : انك الأوحد الذى يخلق نفسه ، أنت ، يا من لا يعرف جوهره (ترجمة برجيه Berguet) • ومنذ نصوص الأهرام ، كان الكتبة يرددون الأغنيات للماء الذى يجلب الخصب والذى يحمل الحياة للقطر •

أما معبودات المراعى والحقول ، فهى أكثر غموضا ولم تكن تحمل الا أسماء مشتركة تدل على أشكال جغرافية محددة • وكانت تتناوب ـ فى الأجزاء السفلى من جدران المعابد ـ مع آلهة النيل البدينة المكتنزة فى حمل القرابين • ولقد التحق بها اله النسيج وآلهة أخرى ، غيره • ولكن

تبرى اله الحنطة وأمه ارموثس الهة الحصاد التي سيؤول الأمر بها ، عند هذا الشعب من الزراع ، الى ان تصبح الهة القدر والمصير ، انضما بعد ذلك بزمن وجيز • وكانت ارموثس ترتبط بثعبان منذ ابعد العصور القديمة • ولقد كان هذا الزاحف هو الذى يحدد اسمها في الدولة الوسطى ، وقد صورت براس ثعبان في قبر خامحات (خع ام حات) في طيبة • تتخذ ـ في أغالب الأحيان ـ شخصية احدى الالهات التي تشرف على عمليات الوضع في هياكل الميلاد وتظل ، أساسا ، سيدة الصوامع والمخازن ، التى عهد اليها بالسهر على وفرة الغذاء • ان هذه المعبودة تذكرنا بالآلهة المساعدة عند الاغريق « ديمون » (١) وبآلهة الزراعة عند الرومان• ان هذه المعبودات تقف في منتصف الطريق بين القوى السماوية وبين البشر •

لم تكن هذه الآلهة وحدها ، ففى المنازل وكذلك هياكل الميلاد حيث كان يحتفل بالمولد الالهى ، كانت توجد معبودات مألوفة ، حاميات الميلاد والنساء اللاتى يضعن ، والاطفال • كانت « تويرس » (تاورت) الالهة التى لها شكل فرس النهر «ومسخنت» التى كانت تمثل فى شخصها مقعد القرميد الذى كانت « تستريح » عليه السيدة للوضع ، و « بس » القزم المشوه الذى كانت حاتحور قد جلبته من منطقة « بوجم » الجنوبية ، والذى كانت حركاته تثير ضحك الفال الحسن • وكانت تماثيل هذه المعبودات تنحت فوق الكراسى ذات المساند التي كانت تعد للجلوس عليها ، أو على آخشاب الأسرة • وكانت هناك تعويذات وفيرة العدد تسمح كذلك بحملها ، وعلى الأخص فى العصر المتأخر •

---

(١) في نطاق ديانة الاغريق كانت توجد الهة دون مستوى الآلهة العظام ومن بينها الديمون وهى التى تؤدى وظائف معينة لان قدرتها ونشاطها تنحصر فى وظائف محدودة وقد اخترع لها اسم Sondergotter اى الهة اخصائية ومن امثلتها « بطل ..كة الجراث » راونسطس Eunosius « بطل الحصاد الجيد » و « بطل الفول » الذى يعنى بالفول و « بطل الطاحون » الذى يشرف على طحن الغلال ـ (المترجم) •

والملك نفسه ، ألم يكن الها ؟ انه يدعى الاله الكامل ، فيما جرت العادة عليه ، وكان يسمى حورس وابن رع وكانت الشخصية الالهية التى كان يمتلكها ميتافيزيقية وقانونية فى نفس الوقت · كان هدفها تدعيم السلطة الملكية قانونا· ولم تكن هذه الشخصية الالهية تنتزع شيئا من صفة الملك الانسانية · كان على هذا الملك أن يقدم الحساب للاله رع ولم يكن فى استطاعته أن ينتهك ، دون عقاب ، حرمة ماعت رمز النظام العام التى يجب تكريمها باقامة العدل والأمانة والصدق والاستقامة · وقد صار بعض الملوك آلهة سماويين . كان امنوفيس الأول من عدادهم ويبدو أن رمسيس الثانى كان كذلك حتى فى أثناء حياته · ولكننا نجهل السبب الذى دعا الى هذه الترقية فى نظام وظائف الكائنات · على ان الملوك لم يستأثروا وحدهم بامتياز التاله . فقد اله كذلك رجال كانوا على الأخص وزراء مثل ازى أدفو وامنوثيس بن حابو وزير امنحتب الثالث ، وعلى الأخص اموتس (امحتب) ذائع الصيت ، مهندس عمارة الملك زوسر ، الحكيم الذى مثله الاغريق بالههم اسكلبيوس· وبينما كان للملوك الذين ألهوا عبادة محلية ، محدودة جدا ، فى معظم الأحيان ، فان امحتب قد اكتسب شهرة أعظم ذيوعا ، وصلت فى عهد متأخر حتى الى فيلة ، حيث يمتلك معبدا بمحاذاة طريق الدخول dromos · وقد أله رجلان وكانت تقدم لهما العبادة فى دندرة ، فى النوبة · ولكن الأسباب الحقيقية التى من أجلها كانت تقدم لهما أنواع التكريم الالهى ، تظل غامضة · كيف تأتى ، على سبيل المثال ، أن الغرق فى النيل كان يمكن أن يكون مبررا كافيا للتاليه ؟ ·

الواقع أنه لم يكن يوجد بين الناس والآلهة ـ بمقدار ما يمكننا أن نحزر ـ اختلاف فى الطبيعة · كان يبدو أن الاله يستحوذ فى استكمال ودوام ، ان لم يكن دون نهاية فعلى الأقل لأمد طويل ، على ما كان يستحوذ عليه الانسان

جزئيا وفي وقت عابر ، ولهذا فان هذا العنصر الجوهرى للشخصية وهو « الكا » المعادل للاسم ، والذى يصاحب الانسان دون انقطاع ، كقرين ، كان الآلهة يستحوذون عليه أيضا ، ولكنهم يستحوذون على عدد منه : فكان لرع أربعة عشر « كا » • وكان « البا » ، وهو الجزء السماوى الذى يرتبط بالضوء وبالشمس ، يملك قدرات اعظم لديهم • وفي غضون الحياة الانسانية ، كانت هذه العناصر كانها محتجزة في الجسم • وكان في استطاعة الآلهة اطلاق سراحها وكان واحد منها يملك العمل في استقلال تام • وهذا هو ما توحي لنا به طائفة من النصوص المتأخرة التى تعرض كيف حضرت الآلهة الى معابدها :

« عندما يفد جلالته من السماء في زمنه المحدد وبعد أن يكون قد تامل هذا الأثر التذكارى الجميل الذى صنع لكاه ، فانه يحوم في شكل انثى صقر بلون الفيروز ، تحيط به حاشيته عن كل جانب من جوانبه • ويستقر فوق جسمه في قناته المقدس • وتتحد « باه » مع تمثاله — « بس » • ويسر قلبه عندما يكون قد نظر شكله • يتهلل وجهه أمام صورته الالهية » •

كان على أحد الكهنة في عيد السنة الجديدة ، أن يجذب أولا « الكا » الى التمثال وهو يعانقه ، أى ، وهو يقوم بالحركة التى تصور كلمة « كا » في الكتابة المصرية • ثم يعرضه لأشعة الشمس بينما يعمل الكهنة على احضار « البا » الذى كان يتحد على هذا النحو ، « بالكا » ويمضى كل شيء وكأن العناصر الالهية كانت تشترك في موكب سماوى ، لا علم لى به ، يجتذبها اليه جمال الآثار التذكارية التى أعدت لها • ولكن بينما يكون « البا » في ضوء الشمس أو في حضرة اله الشمس ، يكون « الكا » في مكان آخر في السماء ، بما أنهما يكونان في حاجة الى الالتقاء معا • وكذلك كان للآلهة — على شاكلة الناس — « بطن » و « قلب » بمعنى « الغريزة »

و « الذكاء » اللذين تصوروهما شبيهين بعض الشيء باعضاء الجسم البشرى ٠

وكذلك ، افليس مما يبعث على الدهشة ان الناس سعوا الى ان يصبحوا آلهة ليظفروا بالخلود ؟ واكثر من ذلك فقد كان عليهم ان يصيروا على شبه بالآلهة الارلية العظام ٠ لأن غيرهم « ليسوا خالدين وليسوا غير قابلين للفساد » ٠ لقد تحطم أوزيريس تحت وقع ضربات ست ٠ وفضلا عن هذا فما يوجد معبد ، له شيء من الأهمية ، ليس له في الجبل المجاور قبره المعد للموتي من الآلهة ٠ كان لادفو قبرها وقد اشارت اليه النقوش مرارا عديدة ٠ وهنا أيضا يقدم بلوتارخ شرحا وافيا « بأن جسومها ترقد بيننا ، مدفونة ويقدم لها التكريم ، بينما ارواحها تستقر في السماء ، نجوما لوامع» ٠ لقد تقاسمت المصير الذى كان الناس يرغبون الوصول اليه ٠ وبالاجمال ، لم يكن يوجد الا اختلاف فى الدرجة بين النوعين من الكائنات التى كان يتألف منها الناس والآلهة ٠

* * *

ومع هذا ، فقد كانت توجد آلهة تختلف تمام الاختلاف عن الآلهه المحلية والجغرافية أو المألوفة ٠ انها كانت التجسيد الخالص لأفكار عامة أو لعمليات ذهنية ٠ وكان الطراز لها، الالهة ماعت ٠ انها تمثل التوازن الذى لا يغرق العالم بفضله ٠ وبفضلها يؤدى الآلهة والناس وظائفهم ، انها المعيار الذى يجب أن يسير بمقتضاه هؤلاء وأولئك ٠ وفى عهد الامبراطورية الحديثه ، كان قربان ماعت يتالق فى مركز العبادة اليومية التى كانت تقدم لآمون ، عينه ، وعندما كانت تقدم للاله هذه الهبة الأساسية ، كان الكاهن يتلو أنشودة تسمح بتحديد صورتها ٠ لقد كانت ابنة رع منذ مصر الأهرام ٠ ولم تكن تترك الاله وكل قربان يقدم له يتخذ هوية الالهة ٠ وكانت اشارة من الاشارات الواقية التى

كان يملكها هي الالهة نفسها · وعلى شاكلة الهـة أفلاطون في محاورته المسماة « فيدرا » عاش آمون على ماعت وتغذى بها لدرجة أن الالهة جعلتها تصل اليه · وآخيرا فانها ضمان وجود امون « انك على قيد الوجود لان ماعت على قيد الوجود والأمر متبادل » · وكان هـــذا ارتباطا بما لا فكاك له بين الوجود الالهي وبين اعظم المقتضـيات الخلقية عمقـا في الطبيعة البشرية وجعل كل واحد منهما يتوقف على الآخر · ولمرة واحدة ، يوجد لدينا في اللغة المصرية عينها ، التعبير المزدوج عن حقيقة ميتافيزيقية : فهناك من ناحية ، العرض المجرد للفكرة التي قرأناها ومن ناحية أخرى ، الصور التي يكون الهدف منها تادية نفس الفكرة : فماعت تمـد بوجه عام ، ابنة رع ، ومع هذا فانها احيانا تقدم أيضا على انهـا أمه ويجيء هذا في نفس مجال النص · ومن الجلي أنه لم يكن يوجد في فكر محرر النص غير الرغبة في التعبير عن تبادل الرابطة التي كانت تجمع بين الاله والقيم الخلقيـة الأساسية للكون وللفعل الانساني ·

ولم يمنع هذا الوضع الميتافيزيقي المحكم الالهة من أن يكون لها شكل خاص : انها سيدة جالسة ، بوجه عام ، وهي تحمل على رأسها ريشة تستخدم لكتابة اسمها · ويقدم الملك هذا الرمز لمعبودة أحد المعابد في مكان التكريم ، في أقصى نهاية قدس الأقداس ، على جانبي المحور : وهذا مما يعبر تماما على أنه القربان الأساسي · ولما كان المصريون أوفياء لنهجهم الفكري فقد جعلوها اثنتين : ولهذا توجد الهتـان ماعت ، في « قاعة الحق المزدوجة » التي يحاكم فيها أوزيريس كل المتوفين · وكان المؤمنون يعرفون أن آمون رع وماعت لم يكونا الا شيئا واحدا · وهذا هو ما كان يتلوه في قبره ، نفر حتب ، كاتب آمون ، العظيم : « يا رع يا من ترضى عن ماعت ، لجبهتـك انضمت ماعت · يارع يا من تطلع في ماعت ، ان ماعت تعانق كمالك · يارع يا من اكتملت في ماعت ، لقد ثبتت ماعت في قاربه الالهي · يارع الغني في

ماعت ، انك تعيش عليهـا كل يـوم • يارع يا من تنجب ماعت ، اليك تقـدم ماعت • لا تكف عن وضـع ماعت فى اتجاه قلبى حتى ارفعها صوب «كاك» لانى أعرف انك تعيش بها • انك انت الذى خلقت جسمها • انى عادل وبرىء من الجور ، وما ارتكبت جريرة • أيها الآلهة ، أسياد «الماعتين»، لا تكفوا عن استقبال كاتب آمون العظيم ، نفر حتب ، فى سـلام » •

ان علم اللاهوت هذا لا يختلف اساسا ، عن علم لاهوت الدولة القديمة الذى كان اقل اسهابا : فقد كتب معـاصر للملك تيتى فى قبره : لقد انجزت ماعت من اجل سيدها • لقد ارضيته بوسيلة ما كان يحبه • قلت الحق (ماعت) لقد أقمت الحق (ماعت) عملا ، ولذا فان المرء لا تاخذه الدهشة عندما يجد فى الدولة القديمة طائفة من الآلهة ، التى ليست الا تصورات عقلية محضـة لها طابع أشـخاص • والواقع ـ وكما رأينا عند زيارة معبودات الحواضر ـ أن علم اللاهوت قد حاول ـ منذ أبعد زمن يمكننا الرجوع اليه ـ أن يتعمق الطبيعة الالهية وأن يفهم الروابط التى توجد بين ما هـو الهى وظواهره العديدة وكذلك بين العالم وعناصر الـكون والآلهة ، حتى ليجد الانسان ، دون انقطاع ، أن آلهة معنوية بصفة خالصـة قد اختلطت بالمجموعة الالهيـة الشـعبية • ولا شك فى أن مدرسة هليوبولس اللاهوتية قد قامت فى ذلك بدور أساسى •

وكان يبدو من الراجح أن الكهنة شاءوا أن يضفوا على الملك ـ قبلما يصبح مباشرة ابن رع نسبا منحدرا فى خط مستقيم من الخالق ، بوسيلة تخضـع له قانونا ليس قطـر مصر وحسب ، ولكن مجموع الكون • وكان هذا هـو الذى حدا الى تنسيق التاسوع الالهى • لقد رأينـا كيف أن أتوم جمع شمل نفسه بقدرته الذاتية فى الفوضى السـائلة لأول مرة « ليظهر للوجود من تلقاء ذاته » • ولقد بدأ يخلق ، دون

عون أجنبى ، لا الآلهة المحلية التى لا طاقة لها على التخصص كثيرا ، بل العناصر المكونة للعالم التى لم يكن من الممكن ان يوجد غيرها دونها وهى : الهواء المضيء « شــو » والرطوبة « تفنوت » ، اللذان أنجبا « جب » الاله ــ الارض و « نوت » الالهة ــ السماء • وقد نسب لهذين الأخيرين انجاب السـلف المباشر للملك اى أشخاص الأسطورة الأوزيرية : اوزيريس وايزيس وست ونفتيس • وعلى هذا النحو ، حدث أن تآلف بما يدعو للدهشة ولكن فى دهاء ، تاسوع هليوبولس الالهى العظيم • وقد استدعت الحال أن يضاف اليه تاسوع صغير ، أكثر غموضا وتأرجحا جمع فيــه عــدد معين من المعبودات الهامة كانت قد اجتازت منذ زمن بعيد حدود مسقط راسها وهى : حورس اولا ولكن ايضــا تحــوت وانوبيس وكذلك شخصيات معنوية لاهوتية مثــل ماعت • وهــذه التجمعات القيمة لأنها كانت تسمح بتصنيف هــذا العــدد الوفير من المعبودات ووضع النظام فى الفوضى التى تشيع فيه ، نجدها فى أماكن عدة • وقد تبنت طيبة ، أيضا ، التاسوع ولكنها زادته وشكلته بطريقة تختلف اختلافا يسيرا • وقد تآلف فى زمن حاتشبسوت ، من « منتو » الذى كان يجيء فى المقدمة ، ثم أتوم ، وشو وتفنوت وجب ونوت وأوزيريس وســت ونفتيس وحورس وسبك وحاتحور وتاننت ويونت •

ولم يشأ كهنة ممفيس ، وهذا راجح ، أن يظلوا فى المؤخرة ووضعوا فى احكام نظرية للخلق «بكلمة بتاح» التى كان لها دوى بعيد فى التفكير اللاهوتى المصرى ، بأجمعه • وقد بدأت بملاحظة عن كيف تسير عملية المعرفة (سيا) ، وعملية الادراك (حو) ، اللذين ألها كذلك :

« القلب (= الفكر) واللسان (= الأمر المنفذ) لهما السلطة على كل الأعضاء لهذا السبب وهو أن القلب يوجـد فى كل جسم واللسان فى كل فم عند جميع الآلهــة وجميع الناس وجميع أنواع الحيــوان وجميع الزواحف الحيــة • والقلب يفكر فى كل ما يريد واللسان يأمر بكل ما يريد••

ونظر العينين وسمع الاذنين وتنفس الأنف لها صلة بالقلب ٠ انه هو الذى لا يكف عن انتاج كل معرفة ٠ أما عن اللسان فانه هو الذى يردد كل ما يفكر القلب فيه ٠٠ وعلى هذا النحو يتجزا كل عمل وكل حرفة وما تصنعه الأيدى وسير السيقان وحركة كل الاعضاء الأخرى اتباعا لذاك الأمر الذى فكر فيه القلب والذى عبر عنه اللسان والذى لا ينقطع عن خلق كينونة كل شيء ٠

ان الطرائق التى استخدمها اتوم فى القيام بالخلق تمثلت بالتصور العقلى والأمر بكلمة بتاح ، فهو قد تصور كل شيء فى قلبه وحفظه بفمه « واذن فكل كلمة الهية جاءت الى الوجود بالوسيلة التى فكر فيها القلب والتى أمر بها اللسان ٠ وعلى هذا النحو خلقت « الكا آت » ٠٠٠ » ٠ ان هذه الآراء التى يرجع تاريخها على الأرجح الى الأسرة الثالثة قد هيأت للفكر الانسانى امكان ادراك العالم الذى كان يبدو له غير متناسق ، واذا كان العالم تصورا الهيا واذا كان الانسان صورة الاله الخالق ، فهذا يعنى أنه يوجد بينهما امكان لنفاذ أحدهما فى الآخر ٠ لقد كانت هذه لعبة صعبة جميلة لا ندهش لوجودها عند معاصرى الملك زوسر ٠ ثم اننا لا نزال نجد صدى لهذه النظريات حتى فى نقوش المعابد التى ترجع الى نهاية العهود المتأخرة ٠

الفصل السادس

● الاشراك والتوحيد

كلما وجدنا نصوصا أكثر صراحة تتيح لنا أن نزيد معرفة بلاهوت أحد الآلهة المحليين ممن اكتسبوا بعض الأهمية، وجدنا أنها تطلق على صفة « الأوحد » ، ولا شك فى أن هذه الملاحظة لا يمكن أن تعبر فى أكثر من حالة الا عن رغبة فى اضفاء مزيد من الجلال على رب الاقليم على نحو ما نفعل حين نقول عن أحد الأشخاص انه « فريد » لمجرد أن يكون لديه قليل من اصالة ملحوظة • ومع هذا ، فانه عندما يسجل أحد النقوش قائمة مفصلة بأسماء كل الالهات التى تكون ، أساسا ، ايزيس ، فلا شك فى أن واضعا قد تصور الوحدة الالهية وعلى الأقل ، وحدة الالهات • ويبقى أن نعرف ما اذا كان ظنه قد ذهب الى أن كل الآلهة كانت « أوزيريس » واذا كان بذلك قد اختصر الآلهة فى اثنين فقط ، على أن من المناسب أن نشير الى أن هذه النصوص ترجع الى عهد متأخر جدا • كما أن من الممكن أن نسلم بتطور الفكر المصرى ، فى العهد الاغريقى أو الرومانى تحت تأثير المبادىء الاغريقية خلال القرن الرابع •

ولكن نوعا من الأدب يخلص من هذا اللوم : هو أدب الوصايا الخلقية ، التى يرجع أقدمها الى الدولة القديمة • ولقد أبدى دريتون **Drioton** منذ زمن بعيد رأيا بأن تلك التعاليم لم تذكر على الاطلاق ، اذا صح القول ، أسماء « جماعة الآلهة » ولكنها تحدثت على الدوام عن الاله ، على

وجه عام • فكيف يجب فهم هذا اللفظ ؟ لقد أجاب دريتون بأن المقصود هو « الله » وذلك هو مذهب التـوحيد عنـــد الحكماء • ورد كيس Kees : ان المقصود هو الملك ، وحين أثار انتباهه ضجيج جماعة الآلهة المحلية التى كان لها بعض أعضاء الحيوان ، لجأ ـ لكى يعطى النصوص التى لم يكن فى استطاعته الغاؤها حقها ـ الى عبارة انتقاص لماسبيرو : « ان مصر عرفت عددا من الآلهة ، التى كان يطلق على كل فرد منها « آوحد » يوازى ما كان لديهـا من مدن عظيمـة » • ترى ، هل فهم السبب اذن ؟ •

ويجب ان نلاحظ ، بادىء ذى بدء ، أن النصـــوص التعليمية عينها ، تستخدم احيانا أسماء آلهـة معينة • ان اقدم صيغة لتعاليم بتاح حتب ، كانت تتضمن عبارة : « ان العدالة لها مكان التبجيل وتفوقها دائم ، انها لم تتبدل منذ زمن اوزيريس » • ولكن التعديل الذى طرأ عليها فى الأسرة الثانية عشرة استبدل اوزيريس بذاك الذى خلقها • ومما يجعل مغزى لهذه الواقعة التى يمكن أن تكون عرضية تماما ، هو ان التعبير « تابع حـورس » المعروف جيـدا فى اللغـة المصرية ، يستبدل فى فقرة أخـرى بعبارة « تابع الاله » وهى أعظم ندرة • ان كل شىء يمضى كما لو كان يراد تحاشى ذكر اله معين • ولا يوجد اسم علم واحد لمعبود فى تعاليم آنى • ولكن مرة واحدة ، تذكر الآلهـة فى صـيغة الجمع ومرتين يكون الموضوع « الهك » • ومما يدعو للعجب انه فى كتاب امنموبى ، الذى يعرض أرفع مستوى خلقى ، يوجد أعظم عدد من الآلهة • ولنترك جانبا « شاى » و «ارموثس» اللذين يعنيان المصـير وحسب ، وابوفيس وخنـوم وليسا الا وسائل للحديث ، فيتبقى أن رع وتحوت ذكرا بالاشارة الى آساطيرهما ، وتلاحظ هذه الظاهرة فى بردية انسنجر حيث يعرض مذهب للحكمة العميقة •

ومن الجهة الاخرى ، فانه في السير الروحية التي خلفها لنا كثير من الاشخاص العظام الذين عاشوا في عهد الامبراطوريه ، يدرك المرء ان فقرات عديدة ليست الا مقتطفات من اعمال تعليميه او نقلا معدلا عنها • والامر لا يتعلق بموضوع الهة فرادى ، جاءت في بقية النقش ولكن بالاله على وجه عام • يسير « بكى » في عهد امنوفيس الثالث على نهج الحكماء ، ويقول انه « وضع الله في قلبه واحاط علما بقدرته » • وعندما تظهر الوصايا التي تتعلق بالعدالة والاحسان ، منذ الدولة القديمة ، فانها تنسب ، في معظم الأحوال، لله ، وقد أعلن حرخوف: «أرغب أن يكون اسمي قد بلغ الكمال في حضرة الاله العظيم » • ويقول رخميرع وزير تحوتمس الثالث في مجال نص مشابه : « لقد كنت صادق القول أمام الله » • وفي قصص من أمثال قصة رجل الواحة أو قصة سنوهي ، لا تستخدم الفقرات التي تنتسب الى الحكم الأدبية ، في معظم الأوقات ، تعابير أخرى غير لفظ الاله •

امام هذه الوقائع التي لا تقبل الجدل ، ترجم دريتون الكلمة المصرية بلفظ « الله » • وخلص ــ وكان على اليقين محقا ــ توحيد الحكماء • غير انه لما لم يكن ممكنا انكار تعدد الآلهة عند المصريين على وجه عام ، أضاف أنه بسبب روح المحافظة الدينية ظل التصوران قائمين جنبا الى جنبه دون شك ، وأحيانا داخل الفرد الواحد ، ولا شك في أن هذا الراى الأخير هو الذى لا يمكن التسليم به كما هو • ان أمثلة كتلك التي ترجع لليونان القديمة أو للهند وحتى للهند الحديثة ، تبين كيف أن توحيدا حقيقيا يمكن أن يكون له وجود تحت مذهب اشراك ظاهر ، داخل وجدان ديني بلغ حدا عظيما من النقاء دون أن يثير مشكلات ما • ولسبب أقوى ، لا تجد نفوس أقل تقدما خطأ في أن تفكر في صيغ من الاشراك • ان جميع درجات الضمير الديني لها وجود في اى شعب • ترى ماذا كان تفكير سقراط ، حين طلب ،

وهو يموت ، الى قريطن criton (١) أن يقدم ذبيحة ، ديكا ابيض الى اسكلبيوس ، ذلك ان المرء يمكنه ان يتصور مذهب توحيد يقوم على انعزال عنيف ، واحتراما لتعال يكون فيه أى قبول لاقل تقليد ديني مهما كان شأنه ضئيلا ، يبدو كما لو كان وثنية · لقد كانت هذه حال التوحيد العبرى الذى كان يقوم الأنبياء على حمايته · ولكن يمكن أن يتصور المرء أيضا فكرة تبدأ من طائفة من الالهة الى تصور ميتافيزيقى للوحدة الالهية · وفى هذه المرة ، تكون عملية تنسيمية طبيعية يمكن ان تجلب نفوسا معينة الى مذهب توحيد دون أن تقسرهم على الدخول فى صراع مع كل بيئتهم الاجتماعية والتنازع مع قواعد الصيغ الدينية التى احسوا من خلالها ما هو الهي ، بدءا ذى بدء · فهنا لا يوجد تحول ولكن بالحرى صعود صوب مكان لا يبدو فيه أن الآلهة المعينة لا تجدف على « الاله الأوحد » ، ولكنها بالحرى لا تحمل الا قدرا ضئيلا من الالهى الذى يتركز فى موضع آخر · ذلك يتخطى التقليد لكنه لا يلغيه على الاطلاق · بل انه يتركه قائما من أجل أولئك الذين لا يصلون الى التعالى به ·

على هذا النحو كان يبدو مذهب التوحيد المصرى ، ومع هذا ، فقد جاء وقت فى تاريخ مصر الدينى ، أوشك أن يسود فيه التوحيد الخالص ـ الشبيه بالتوحيد الذى كان لدى الأنبياء العبريين ـ فقد كان هناك ملك يدعى أولا امنحتب (أى لتكن آمون راضيا) غير اسمه فجأة الى اخناتون وهو ما قد يعنى (ذاك الذى يسر منه آتون) وطارد اسم آمون الى حد أنه حطمه حتى فى ذرى المسلات ، وعلى وجه عام ، ألغى أسماء جميع الآلهة وأرشد ، ويمكن أن يقال عن

---

(١) قريطن Criton :

كان من أثرياء أثينا وتلميذا لسقراط ·

وقد أفرد أفلاطون « محاورة » أطلق عليها اسمه هى المحاورة التى جرت بين سقراط وقريطن الذى جاء ووجده فى السجن وعرض رد حريته اليه · وامتدح سقراط احترام القانون حتى لو كان غير عادل (القرن الرابع) ·

طيب خاطر ، بشر المخلصين له بمبدأ عقيدة اتون • ومن الضرورى أن نضع موضع الاعتبار فى هذه الحركة عوامل كثيرة • فقد ظهر جليا ، من نصوص تل العمارنة عينهـا ، انه كان يوجد سبب سياسى : هو وضع حد لقوة كهنة امون وتقييد طموحهم السياسى بقيد جاد • ولـكن هـذا لم يكن الدافع الوحيد للملك • وما كان ليقف فى مواجهة جميـع التقاليد الدينية القديمة الراسخة ، عند شعب ، لو لم تكن لديه رسالة شخصية عليه أن يؤديها ، وتجربة فريدة كان يجب الافصاح عنها :

انك تستقر على الدوام فى قلبى ،
لا يوجد أحد آخر يعرفك
سوى ابنك •• لأنك أحطته علما بتدابيرك وقوتك •

وعـلى هـذا ، من كان اذن ذلك الاله الذى كان عتيدا وغيورا الى هذا الحد ؟ اذا جسر المرء على اطلاق هذه الصفة الغريبة من صفات يهوه (١) ، عليه • ان نشيدا رائعا وضعه فيما يرجح كثيرا ، الملك أو وضع بالهام مباشر منه ، يبينه لنا ، يتغنى به ويسبح بحمده الخلق طرا ، الذين يتهللون عندما يطلع ، القرص الساطع ، فى أفق السماء • أوليس هو الذى خلق العالم • حتى أصغر الديدان • لقـد صـنع الانسان ، ليس المصريين وحدهم بل الأجانب كذلك ولـكى يقدم لهم آية على عنـايته الربانيـة ، فانه اذا كان قد قدم للبعض مبـاشرة مياه « نون » عن طريق النهر ، فقـد فتح للآخرين نيلا فى السماء يسكب عليهم ماء • على هيئة المطر، ثم انه وهو الخالق متعدد الشكل ، **يظل الواحد الفرد :**

انك لا تكف عن جذب ملايين الأشكال من ذاتك فى حين انك باق فى وحدانيتك •

---

(١) يهوه الاسم الأصلى لاله بنى اسرائيل فى صورة الاله القبلى والذى يشار اليه باسم « ادوناى » Adonae بعد ارتقائه الى اله عالمى ــ (المراجع) •

ولم يكن لاتون مظهر آخر غير مظهر قرص الشـــمس ٠ لا شيء من التماثيل ولا شيء من الاشارات المعقدة ٠ لا شيء غير أشعته الطوال التي تنتهي بأيد تحيله مستدفه ، يقدم بها الحياة الخالقة للزوجين الملكيين ، وعن طريقهما الى العالم اجمع ، ولم تكن لمعابده ، على الاطـــلاق ، مقـــادس مظلمه لا يسمح بولوجها ٠ وكان قدس الاقداس مكشـــوفا لضـــوء الشمس وكانت تعرض فيه القرابين على المذابح ٠ ولم تكن توجـــد مواكب ، بتاتا ، بما أن الصـــور كانت قد ألغيت ٠ وانما أحيانا كان الملك بمفرده ، وهو النسخة الصادقة لأبيه اتون ، يقدم نفسه لشعبه الذى كان يستطيع على هذا النحو أن يتمثل فيه ، بطريقة ما ، الاله الذى يتجلى فقط فى قرص النهار ، الالهى ٠

لقد نبعت كل اصالة حركة العمـــارنة من موقف الملك على وجه التحديد ، أما من وجهة علم اللاهوت ، فان مضمون نشيد آتون العظيم ــ اذا استثنينا التلميحات النادرة للســـيرة الذاتية ــ يماثل مضمون نشيد آمون الموجود بمتحف القاهرة والذى يسبقه بخمسين عاما ونيف ٠ واذا استثنيت الفقرات العـــديدة التي تتعلق بالمذهب الرمزى لزينـــات آمون التى اصبحت غامضة في أيامنا وتتطلب شرحا مستفيضا ، فاننـــا نجد فيه نفس النغمة ونفس الجمال الأدبى ونفس الاحساس المرهف تجاه ظواهر الحياةالعجيبة ٠ وفى الحق ، ان مفكرى طيبة ، الدينيين كانوا منذ أزمنة طوال ، قد تصوروا الوحدة الالهية وعبروا عنها تعبيرا يبلغ حد الكمال ٠ غير أنهم كانوا يؤدون ذلك بوسيلة تصويرية وقد استخدموا لغـــة مشتركة فيما يبدو ٠ على أن المرء عندما يقوم بتحليل مناهج تعبيرهم ، فلا يمكن أن يتطرق شك الى ذهنه حول فكرهم ٠ ولنأخذ مثالا لذلك ٠ كان مهندسا العمارة سوتي وحر قد نقشا ، قبـــــل ثورة العمارنة بزمن يسير ، على نصب نشيدا لآمون وها هو ذا شطر منه :

التحية لك يا قرص (آتون) النهار ،
الذى خلق الناس وجعلهم يعيشون ،
الصقر القوى ذو الريش المتعدد الألوان ٠
الذى جاء للوجود ليرفع نفسه !
الذى جاءللوجود من تلقاء ذاته دون أن ينجبه سواه
حورس الأكبر الذى يقيم فى نوت ـ السماوية ،
عند طلوعه يبتهج الانسان
وعند غيابه يحدث للمرء مثل هذا ٠
ذاك الذى صنع ما تنتجه التربة ،
خنوم وآمون الناس !
ذاك الذى يدير القطر المزدوج ،
من أعظم كائن الى أصغره ٠
أم الآلهة والناس ، صانعة الخير ٠
الفنان الساهر ، الذى لا يعرف الكلال ،
عندما يخلق أعماله التى لا عد لها ٠
الراعى القوى الذى يقود قطيعه ٠
حظيرته التى تجعله يعيش !
العداء السريع الذى يتقدم فى اندفاع !

لقد أثار الشاعر ببراعة ملحوظة ـ لكي يزيدنا معرفة بآمون الذى أصبح هنا قرص الشمس وهى صورته المرئية ـ ذكرى اله الشمس القديم حورس والصقر الذى يرمز اليه ٠ ان فكرة الخلق توحى فى الحال بخنوم وبآمون ٠ وليست هذه شخصيات الهية ، بل هى الأسماء التى تعبر لمن

يعرف تماما التقاليد الدينية عن القدرة التي تخصص فيها اله معين • ولا يمكن ان يتصور المرء دون تعسف ان يجعل من الحكمة قرينة « ليهوه » أو من القوى الفيلونية (١) آلهة لحاشيته الالهية • وكذلك يلجا شاعرنا ، الذى لا شك في انه على مذهب التوحيد، هنا — الى التعبير عادة في صيغ مشركة، غير أنه سرعان ما يصحح الها باخر ، فهو يضع آمون الى جانب خنوم ، وهو ينسب الابدية الزمنية الى الكائن المتعدد الأسماء والاوحد : فهو لم يولد ! ثم يعرضه في طائفة من الصور التي يستحيل أن تتراكب ، وان تقاربت عن قصد، فهو : فنان وراع وحظيرة ، انه يوحي بصفات اله خالق ، وبعناية ربانية وبملاذ • وتحمل الثقوب التي يبرزها النسيج الشمرى ، دعوة للفكر ليتملى الأله غير المعروف •

وفي الحق ، لقد أفاد كهنة آمون من أعمال المدارس الدينية العظيمة في الدولة القديمة ، هليوبولس وممفيس وهرموبولس وعرفوا كيف يضعون لالههم ، بتعميق تجربتهم الدينية ، علم لاهوت صبغ بعد ذلك كل التفكير الديني المصرى باجمعه • ولهذا فانه سابق جدا لمذهب التلفيق (٢) المتاخر ويرجع تاريخ خطوطه الأولى فيما يرجح الى الدولة الوسطى •

ان آمون ، بداية بدء ، أوحد :

انك الأوحد الذى صنع كل ما يوجد

الواحد ، وهو يظل أوحد ، الذى صنع الكائنات •

---

(١) كان فيلون Philon فيلسوفا اغريقيا من اصل يهودى ، ولد في الاسكندرية حوالى عام ٢٠ ق٠م • وكان تصنيفه مزيجا من افلاطون والتوراة وله اثر على الأدب المسيحى — (المترجم) •

(٢) مذهب التلفيق Syncrétisme — الجمع في تحكم بين آراء او مذاهب مختلفة او متعارضة لتكون مذهبا واحدا — مصطلحات مجمع اللغة العربية — (المترجم) •

وتوحى هــذه الصيغة اللفظية التى استخدمها المصرى هنا بتلك الترجمة التى نجد معادلا دقيقا لها فى اغريقيــة « يمبليك » التى لا شك فى أن النماذج المصرية الهمته بهــا ٠

:év uovotnti Tns évatoi

Evotntos Uéwv.

ولم يقنع علماء اللاهوت برفع مرتبة الههم الاوحد فوق جمهرة الالهه الاخرى ، كما تحمل كلمة ماسبرو على الاعتقاد بذلك ٠ لقد بذلوا محاولة لارجاع الآلهــة للوحــدة ٠ وقد أتاحوا لامــون منــذ الدولة الوسطى ــ بعــد مزجه برع ــ اكتساب وحدة اله هليوبولس الشمسى ، ثم عمدوا الى وضع خطة مجملة لمذهب تلفيق يجمعه مع الآلهة الاخرى : خبرى وآتوم وحراختى و « مين » وفى عهد الامبراطورية الحديثة، اتخذ آمون بالاضافة الى هذا ، طبيعة الآلهة الثمانية وطبيعة تاتنن ٠ ولكى يبين تماما أن المسألة مسألة شــكل خارجى ، وليست الحقيقة فى قصاراها ، يكون آمون هو بتاح عينــه أحيانا ، وأحيانا آخرى هو الشكل الكامل الذى قام بصنعه بتاح ، وقد جعل منه نشيد ليدن ــ الذى يعكس أسمى مراتب الفكر ــ خالق التاسوع الذى يكون جسمه ويظل هو ، دون سواه ، الأزلى : « ان التاسوع يبقى مجتمعا فى أعضائك ، وان صورتك هى كل اله اتحد فى جسمك : لقد كنت أول من تفجر ، لقد استهللت البداية » ٠ انه هو الذى خلق كل الآلهة « التى ظهرت للوجود من فمه » ٠ واذا تبقى الهان لم يعد بصفة خالصة وببساطة من خلق آمون وهما رع وبتاح فليس مرجــع هــذا أنهما الها الامبراطــورية ، ولكن لأن شخصيتهما كانت فريدة ٠ وفى الواقع تكون هــذه الآلهــة وحدة : « ثلاثة هى كل الآلهة : آمون ورع بتاح ، ولا توجد أشباه لها ٠ آمون هذا اسمه باعتبار أنه خفى ، ورع هــو وجهه ، وجسمه هو بتاح » ٠ ويرى المرء أنه فى مستوى معين للضمير الدينى ، لم يكونوا يقتنعون بوضع الواحد الى جوار

الآخر • بل لقد بذلوا محاولة لشرح تنوع المظاهر ووحدة الكائن : « الاله الأوحد الذى جعل من ذاته ملايين » •

ان آمون اله أبدى • وكانت ألف وسيلة تصويرية تقدمه للمفكر • « لقد قام بصنع نفسه » فى البداية ، ثم صار بعد ما تمثل بالشمس الحركة الكونية التى تتكرر الى الأبد ، كما سبق أن رأينا • وها هى احدى الفقرات التى تمثل أعظم تطور وارتقاء :

ذاك الذى بدأت صيرورته أول مرة ،
آمون الذى أنجب نفسه فى البدء دون أن يعرف سره.
لم يوجد اله قبله ،
ولم يكن يوجد اله آخر معه ليحدثه عن شكله ،
ولم تكن له أم لتضع اسمه ،
ولم يكن له أب نسله وقال « هذا هو ذا أنا ! »
ذاك الذى قام بنفسه بصنع بيضته •
القوى الغامض الميلاد والذى خلق جماله ،
الاله الالهى الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته •

كل الالهة جاءت للوجود، عندما أعطى لنفسه البداية • ان آمون خالق • وفى هذا ، يسترد التقاليد المحلية التى قمنا بتحليلها فى سرعة ونحن نغشى المدن التى نشأت فيها • وقد استحوذ على غرار نايت وبتاح وعلى غرار أتون فى زمن لاحق ، على صفة جنسية مزدوجة ، فهو أبو الآباء وأم الأمهات • وفى التورية بالألفاظ كان يقال انه ذرف الدمع « ريمى » وبهذا خلق الناس « رومى » • ان كل وسائل الاله الخالق التى كانت معروفة ، نسبت اليه • ولقد استعير أهمها وهو الخلق بالكلمة Verbe من بتاح : « لقد تكلم

بنعمة وجاءت الكائنات للوجود : الناس والآلهة والحيوانات الكبيرة والصغيرة ، كلها على اية صورة كانت . وكل ما يطير وما يحط » وقد استولى عليه مثل بتاح لـ « يهوه » احساس بالرضى امام صنعه : «انك راض لانك خلقت كل البشرية» .
وهو حاضر في كل مكان ، في مصر وفي الاقطار الاجنبيـــة « حتى في اطباق وحتى في احناء الارض وحتى في اعماق البحر » . ان له عينين وله اذنين في كل مكان . انه يستمع للصلوات ويصغى للشكايات وهو الحامي بالغ الكمال لذاك الذى وضعه في قلبه . وهـــو لا يكف عن مد ذراعيـــه لذاك الذى يحبه . ان قلبه رفيق عنـــدما يضرع المرء اليه . انه يخلص الوجل من العنيف ويفصل بين القوى والتعس » . انه ملاذ المسجونين والمرضى . أنه يشفي العميان ، اى اولئك الذين أصابتهم أمراض العيون الشائعة في مصر ، وكذلك أيضا أولئك الذين انتابهم العمى الروحي . انه لا يجىء لانقاذ ذاك الذى يدعوه في الظروف الخطـيرة ، وحسب ، ولكنه يجىء أيضا من تلقاء ذاته لغزو القلوب :

الاله الرفيق ، ذو الأفكار الخيرة

اليه ينتمى الرجل المرن ، الطيع لارادته

انه أعظم نفعا من الاف ، لذاك الذى وضعه فى قلبه ..

الحامى الكامل ، فى الحق .

جميل الرعاية الذى يغتنم فرصة ، دون أن يرد .

انه ، كما نرى ، العناية الربانية بخلقه التى تسهر على البشرية وهى فى سبات ، ساعية للخير لأجل قطيعها .

ومع ذلك فان هذا الاله ، لا يمكن أساسا معرفته . انه ليس خفيا وحسب ، كما يوحى اسمه بذلك ، ولكنـــه يقـــع بعيدا عن وسائل البحث البشرى . « لقد استخفى عن ذاك الذى خرج منه . وهو المصباح الساطع ذو الأشعة العظيمة

الذى لا يرى الا من خلال شعيرته المحجوبة » • ويتبين نشيد ليدن هنا ، ايضا ، عمقا روحيا يدعو للاعجاب :

انه خفى عن الآلهة : لا يعرف المرء مظهره •
انه ابعد من السماء ، انه أعمق من الجحيم !
ان اى اله لا يعرف شكله الحقيقى •
ان صورته لا تبسط فى مطوى الكتب
ليس لدى المرء عنه ، أية شهادة تبلغ الكمال •
انه بالغ الخفاء حتى ان مجده لا يتكشف •
انه أكبر من أن يفحص ، وأعظم من أن يعرف
ان المرء ليسقط فى الحال ميتا من الرعب •
اذا تلفظ باسمه الخفى الذى لا يستطيع أحد معرفته •

لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه ، تجاه هذه القصيدة المعاصرة ، على وجه التقريب ، لموسى النبى من استثارة ذكرى الكلمة التى قالها له يهوه : « لا يمكن أن يرانى الانسان ويعيش » • ولقد ذكر أفلاطون ، وأعقبه فيلون الصعوبة التى يعانيها الانسان فى التقرب عقليا من الله • وكان المصريون قد رأوا الاتجاه الذى كان يجب السير فيه • وكما تستدير الأشجار والنبات صوب الضوء ، وكما ترقص الخليقة بأجمعها ابتهاجا أمام الشمس ، يجب أن يستدير الانسان صوب الاله ، المصدر الأوحد للحياة والبهجة • انه بالحب ، يرفع الاله القلوب اليه :

ان الناس سعداء ، عندما تطلع ،
يحل الوهن بالقطيع عندما تلمع
ان حبك يوجد فى سماء الجنوب
ورفقك فى سماء الشمال •

ان جمالك يخلب القلوب ،
وحبك يجعل الأذرع تهوى ،
وشكلك بالغ الكمال يسلب الأيدى القوة ،
ان القلوب تنسى كل شيء لأنها تطلعت اليك •

* * *

لقد كان عن قصد اننا أردنا اختتام هذا الكتاب عن الهة مصر بقصائد دينية تشهد بتجربة روحية عالية • ان هذه النصوص بأجمعها ، يتراوح تاريخها بين عام ١٥٠٠ وعام ١٠٠٠ ق•م• ويوجد غيرها كثير من القصائد المعاصرة او اللاحقة • انها تقيم الدليل على العمل الجليل العجيب الذى أنجزه الفكر الدينى المصرى ، الذى لم ينقطع ، حتى انطفا نوره ، عن اثارة المشاكل اللاهوتية والروحية والخلقية • ان ارتقاء القمم هو الذى يتيح للمرء أن يصدر حكمه على أحد الشعوب ، وقد قمنا ــ خلال جولتنا الطويلة عبر القطر ــ بزيارة أكبر عدد من المعابد وحاولنا ان نفهم على قدر الاستطاعة طبيعة آلهتها • وقد رأينا أنواع الحيوان المقدس والأشكال العجيبة التى أضفيت على المعبودات التى كانت نصف حيوانية ونصف بشرية • وحاولنا أن نحيط علما ببعض الاشارات التى كانت توضع عليها والشعارات التى كانت تصحبها • وفى كل هذا الخليط التقليدى الذى ترجع عناصر معينة منه ، بكل توكيد ، الى عهد ما قبل التاريخ ، عكف علماء اللاهوت دون انقطاع على التدخل لوضع الترتيب والتنظيم • هذا هو اذن دين المصريين الذى ينير لنا طريقة دراسة هذه الآلهة المحلية ، التى تتبنى عددا مختلف القدر من الآراء التى كان يضعها فى عناية كهنة المراكز الهامة والتى كان يذيعها « بيت الحياة » • ومع هذا ، فانهم لم يكفوا ــ مهما بلغ المستوى الروحى الذى ارتفعنا اليه الا خلال مرحلة اخناتون الوجيزة عن المحافظة على ذخيرة

التقاليد التى استمرت تتكاثف فى ازدياد مطرد اذ كان يضاف اليها دون انقطاع • وكان الأمر يتطلب تفسير التعابير باللغة القدم وقد انضمت شروح الى شروح ، حتى انه فى العصر المتأخر تجمعت كومة من التوضيحات الرمزية والتفسيرات التى نجد عناء فى ان نشق طريقنا وسطها • وعندما وصلت المسيحية الى مصر ، لم تكن قد بقيت للدين المصرى قوة ليلتقى بالتيار الداخلى الذى كان كهنة آمون قد رووه • لقد تصلب واستغلق (Elle s'était sclérosée et fermée) استخدمنا تعبيرا عزيزا لدى برجسون ، ولم يبق أمامه الا أن يتوارى ولكن دون أن يموت ، لأنه ورث الاغريق والعبريين أعز ما كان لديه ، ليعيش مرة أخرى فى المثل الأعلى الذى يسعى عالمنا ، على الدوام فى شكل أو آخر ـ الى الارتقاء اليه •

حاشـــية

منـذ عشرات الأعـوام ، أقوم ببحث عن علاقة اللغـة المصرية القديمة باللغة العربية ، اذ كنت أؤمن بأننا نصـل الى استجلاء التاريخ بالآثار وبفقه اللغة جميعا • ولقد أهاب الباحثون فى علم الانسان بفقهاء اللغة لتأييد آرائهم عن أصل قدماء المصريين •

وأرانى مضطرا الى التعليق على ما جاء فى هذا الكتاب الشعبى الذى وضعه عالم الآثار النابه فرانسوا دوما فيما يتصل بأسماء ألهة قدماء المصريين والى أن ينشر ما وصلت اليه فى بحثى نشرا علميا ، أحتفظ بما أذكره الآن •

فى عام ١٩٥١ ألقيت حديثا على «جمعية الآثار المصرية» عالجت فيه موضوع علاقة اللغـة المصرية القديمة باللغـة العربية بالمقاييس التى وضعها علماء اللغات للموازنة بين لغة وأخرى وقد نشرت مقدمته صحيفة الأهـرام فى العـدد الصادر بتاريخ ١٩٥٤/٧/٢٦ •

وقد أعلنت فى ذلك الحديث ما يأتى :

« والمستقبل كفيل بأن يظهر لنا أن أساس مفردات اللغة المصرية القديمة سامى محض وعـلى وجه التخصيص عربى محض » •

ولقد تأيد هذا القول تمام التأييد من مصادر خارجية •

(١) فى مقال نشره و • فستديل W. Vycichl فى مجلة كوش Kush ، المجلد الســـابع عام ١٩٥٩ جاءت هـــذه العبارة :

« ومن وجهات النظر الجديدة هذه لا تتع اللغة المصرية القديمة كما كانت حتى الآن (فى اعتباره) فى حاشية نطاق اللغات السامية ولكن فى صميمها » • ودعاه الى هذا ما آقره ريسلر Rössler من ان لغة البربر سامية تماما » •

(٢) تحول سير الن جاردنر عن رأيه الذى ورد فى الطبعة الثالثة من أجروميته الى الرأى الذى جاء فى كتابه « مصر الفراعنة » ، اكسفورد عام ١٩٦١ وأقتبس منــه ما يأتى : « ومن الوجهة الاخرى فان العلاقة باللغات السامية (العربية والعبرية) لا يمكن كذلك ان يتطرق اليها الخطأ اذا لم تكن اعظم » •

والآن ، أقرر أن علاقة اللغة المصرية القديمة بالحامية لا سند له • وأسوق شاهدا :

فى الرسالة التى وضعها ف • كاليس F. Calice بعنوان Grundlegen der agyptisch-semitischen Wortvergleichung. 1936

ذكر فى القائمة الرابعة الألفاظ المصرية التى يوجـد ما يقابلها فى اللهجات الحامية فقط ، وقد تبين لى أنها ترجع الى اللغة العربية

ومثال ذلك :

اللفظ المصرى

mm يمسك ـ يقبض على

يقابله فى اللغة العربية لفظ لم ـ واللم الجمع الكثير الشديد واللم مصدر الشىء يلمــه لما جمعــه ـ اللمة الشىء المجتمع •

واللفظ 3 sh ـ منجل

يقابله فى العربية خصين وهى الفأس ذات الحد الواحد وجمعها آخصن ٠

واللفظ wsm ـ يمجن

يقابله فى العربية شوب وهـو المـزج والخلط الشوب وفيه قلب وابدال

واللفظ نبرى ـ الحنطة والهة الحنطة

يقابله فى العربية نبر ـ أنبار الطعام واحدها نبر مثل سدر ، قلت ومعنى الأنبار جماعة الطعام من البر والتمر والشعير ـ (مختار الصحاح) ٠

وسأقتصر الآن على أسماء الآلهة وهو موضوع الكتاب ٠

جاء فى الفصل الثانى :

« ان أصل أسماء الآلهة فيما عدا اسم «خنوم» لا يطابق أى حيوان معروف فى اللغة المصرية أو فى أية لغة أخرى من مجموعتها الحامية ـ السامية » ٠

والواقع أن أسماء الحيـوان بما فيها أسـماء الطيـور والأسماك والحشرات ترجع الى اللغة العربية ومثال ذلك :

الاله فى اللغة المصرية المقابل فى اللغة العربية

skr صـقر

spuw سيد ـ طائر لين الريش (المترجم) ٠

hkt هجـاة (هجاة الضـفدع قاله ابن سيده والمعروف الهاجة) (الدميرى) ٠

hr طير الحر أو ساق حر

inpw أبو نوفل من كنى الثعلب أبو نوفل

الخ ٠٠٠٠

وجاء ان حابى (حعبى) اله الفيضان ليس مصريا على اليقين ٠

يوجد فى اللغة المصرية لفظ آخر يرادفه وهو لفظ Bch وهو الفيض وتمثيل وتأليه الوفرة ويقابل فى اللغة العربية البحر وهو « الماء الكثير ملحا كان أو عذبا سمى بذلك لعمقه واتساعه وكل نهر عظيم فهو بحر ويقال فلان بحر أى واسع المعروف » ٠

أما لفظ hni فقد قوبل بلفظ حفل اذ يقال حفل الوادى اذا كثر ماؤه ٠

و « سن » من المنة أى القوة بدليل وضعته المعروفة ونبات الخس الذى يرسم الى جواره ، جالب القوة واسم آمون مشتق منه والقوة على الدوام شىء خفى ٠

وأجد تأييدا لهذا ان اسم مركب آمون ، المقدسة هو وسر حات أى قوى المقدمة وقد استخدم كلقب لآمون نفسه ٠

ولفظ وسر ومعناه قوى يقابل لفظ أزر فى اللغة العربية ٠

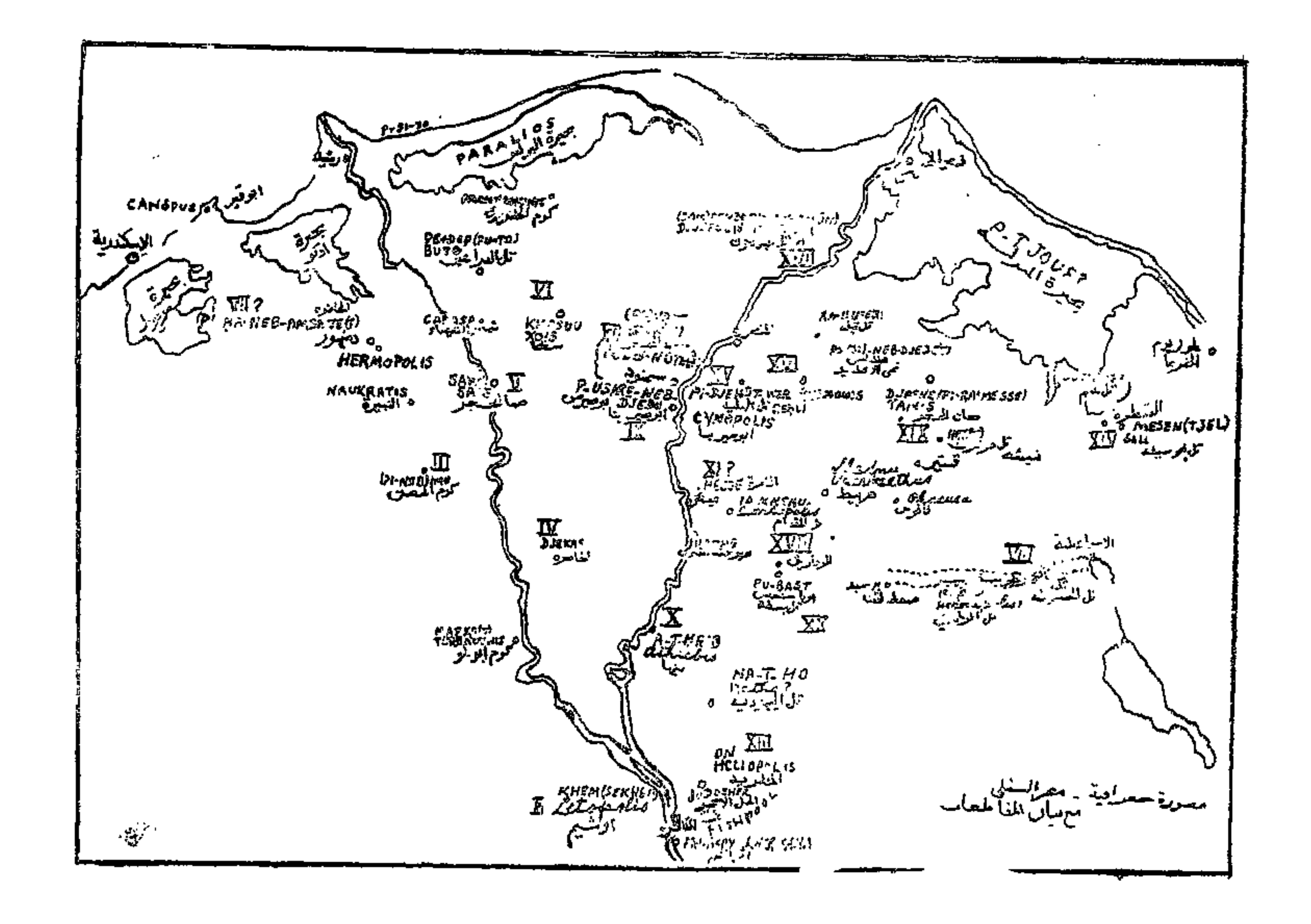
لقد تمكنت من المقابلة بين أسماء الأصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية وآلهة مصر القديمة وقد ذكرت بعضها فيما تقدم ٠

والأصنام التي وصلت الينا اسماؤها يبلغ عددها حوالى ١٢٠ صنما من ٣٦٠ صنما كانت تضمها الكعبة •

ويرجع السبق في هذا للمغفور له أحمد كمال باشا ، اذ نشر في مجلة Recueil de Travaux عام ١٩٠٢ مقابله بين ٢٢ صنما من بينها اللات والعزى ومناة والهة قدماء المصريين •

ويؤيد هذا شاهد من مصر القديمة :

أطلق التعبير «تانتر» ومعناه قطر الاله او الأرض الالهية ويرادفه «تاوى نترو» الآلهة أو أرض الآلهة ، المزدوجة ، على المنطقة الصحراوية التى تقع بين النيل والبحر الأحمر ، وصحراء بلاد العرب (او صحراء سكان الكهوف) ، المنطقة التى كان قدماء المصريين يعتقدون أنها الموطن الأصلى لأهم معبوداتهم • ويوجد رأى يقول ان هذا التعبير لم يكن يطلق على الصحراء التى تقع بين النيل والبحر الأحمر أو جزء منها وحسب ، أو قطر بنط أو بلاد العرب ولكن على كل النطاق القديم الذى كان ينتمى للاله حورس أى كل مناطق العالم الشرقية التى كان لقدماء المصريين علم بها من أقصى الجنوب الشرقى (بنط) حتى أقصى الشمال الشرقى (قطر الحيثيين) وفى توسع كان يشمل كريت (Kuentz B.I.F.A. Oxv p. 178) ويشرح فارينا (Farina, Aegyptus Vi p. 52-53) هذا الاسم بأنه تعبير يدل على الشرق عامة ، مجموع المناطق التى كان يبدو للمصريين أن الشمس الاله الأول يجىء منها (Gauthier noms. Geog. p. VI).



CANOPUS
أبوقير
الإسكندرية
رشيد
PARALIOS
بحيرة البرلس
بحيرة إدكو
HERMOPOLIS
دمنهور
NAUKRATIS
SAIS
صا الحجر
BUTO
XOIS
CYNOPOLIS
P. JOUF
PU-BAST
HELIOPOLIS
Letopolis
MESEN (TJEL)
مصورة جغرافية – مصر السفلى
مع بيان المقاطعات

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/١١٩٨٩

ISBN — 977 — 01 — 5483 — 0